الصراع مع الصليبيين

تأليف

الدكتور/ محمد عبد القادر أبو فارس

الصراع مع الصليبيين

• الكتاب: الصراع مع الصليبيين

• الكاتب: الدكتور/ محمد عبد القادر أبو فارس.

• الطبعة: الأولى 1999.

• النشر والتوزيع: دار البشير للثقافة والعلوم - طنطا

تليفاكس: 305538 - 321744 /040

☎ 210907 - 228277 /040

أصالة للتجارة والتسويق - الزقازيق

تليفاكس: 353988 - 348654 /055

• التجهيز الفني: الندى للتجهيزات الفنية. المحلة الكبرى ☎ 228277

• الإيداع القانوني: 14230 / 98

• الترقيم الدولي: I.S.B.N 977-278-88-7

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الخليفة الراشد عمر الفاروق الذى حرر المسجد الأقصى من أوضار الشرك وعقيدة التثليث.

إلى الجيل القرآنى الفريد الذى أدرك كيف يتعامل مع الصليبيين ويكسر شوكتهم.

إلى القائد الفذ صلاح الدين الأيوبى الذى حرر أرض الإسراء من دنس الصليبيين الغزاة.

إلى الذين تواطأوا مع أعداء الإسلام ضد دينهم وأمتهم لعلهم يكفرون عن سيئاتهم.

إلى الذين خدعوا بالغرب الصليبى لعلهم يثوبون إلى رشدهم.

إلى الذين يركضون وراء السراب الأمريكى باحثين عن حلول لقضاياهم رجاء أن يعرفوا أعداءهم ويدركوا حقيقتهم وكيف يتعاملون معهم.

أهدى كتابى هذا

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلامضل له ، ومن يضلل فلن تجد له من دون الله ولياً مرشداً .

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، كل شيء هالك إلا وجهه ، فلاشيء قبله ولا شيء بعده .

ونشهد أن سيدنا وحبيبنا محمداً عبده ورسوله بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، ونصح للأمة ، وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها إلا هالك ورضى الله تبارك وتعالى عن صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ أعلام الورى وليوث الوغى وأسد الشرى الذين جاهدوا فى الله حق جهاده ، وحملوا مشعل الهداية فأحيا الله بهم نفوساً بعد موات ، وأنقذها بعد ضلال ، وأرشدها بعد غواية ، قال تعالى : ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾(1)

ورضى الله عن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، الذين نقلوا لنا هذا الدين صافياً نقياً عن خير القرون .

ثم أما بعد:

فإن جزيرة العرب قبل الإسلام كانت ملاذاً للشرك و المشركين ، إذ كانت عبادة الأوثان هى السائدة ، وبخاصة فى مكة المكرمة ، إذ كان البيت الحرام يعج بمئات الأصنام .

وكان بجانب هذه العبادة الشائعة والديانة المنحرفة فئات من اليهود تسكن فى يثرب ، وهى تشكل قوة اقتصادية وسياسية قوية ، لها أثرها فى مجريات الأمور والأحداث ، ويوجد أيضاً فى الجزيرة وفى مكة أفراداً يدينون بدين النصرانية كورقة بن نوفل ـ رحمه الله ـ

(1) الأنعام : 122 .

لقد كان أهل الكتاب من يهود ونصارى يعلمون من التوراة والإنجيل أن نبياً عربياً سيظهر فى جزيرة العرب ، بل وفى مكة المكرمة ، وقد ذكر فى التوراة والإنجيل كثير من صفاته وأخلاقه ، قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[1].

وكتب السيرة تذكر أن ورقة بن نوفل ـ رحمه الله ـ حينما حدث ميسرة غلام خديجة بما رأى من كرامات لرسول الله ـ ﷺ ـ قبل بعثته بأعوام كثيرة قال : لئن كان هذا حقاً إن محمداً لنبى هذه الأمة وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى ينتظر، هذا زمانه [2].

وتخبر كتب السيرة كذلك عن لقاء الرسول وهو فتى وقبل البعثة بأعوام عديدة بالراهب بحيرى فأكرمه وأكرم التجار القرشيين فى تلك الرحلة بسببه ، واحتفى به حفاوة أثارت انتباه الجميع ، وبخاصة حينما حذر عمه أباطالب من خطر اليهود على ابن أخيه إذا علموا ماعلم بحيرى [3].

وفى قصة إسلام سلمان الفارسى ـ رضى الله عنه ـ مايفيد أن البلاد التى كانت تحيط بالجزيرة العربية قد شاعت فيها ديانة النصرانية وأن آخر الرهبان الذين تتلمذ على أيديهم أخبره أن زمان نبى قد أظله ، وهو مبعوث بدين إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، يخرج بأرض العرب مهاجراً إلى أرض بين حرتين [4] بينهما نخل ، به علامات لاتخفى ، يأكل الهدية ولايأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل[5].

هذه حال الجزيرة العربية وماجاورها من البلاد عند نزول القرآن الكريم على رسول الله ـ ﷺ ـ ، وكان لليهود مواقف من هذا الرسول والدين الذى جاء به فصلنا فيها فى كتابنا الصراع مع اليهود ويقع فى ثلاثة أجزاء ، وأما بالنسبة لعلاقة النصارى مع المسلمين فهى موضوع كتابنا هذا : الصراع مع الصليبيين .

---

(1) الأعراف : 157 .

(2) السيرة النبوية لابن هشام 1 / 191 .

(3) انظر : السيرة النبوية لابن هشام 1/ 180 ـ 182 .

(4) الحرة : كل أرض ذات حجارة سود من أثر احتراق بركانى .

(5) انظر : السيرة النبوية لابن هشام 1 / 214 ـ 222 .

لقد جاء هذا الدين يدعو إلى توحيد الله ـ تبارك وتعالى ـ ، ونبذ الشرك وصوره وأساليبه ، فاصطدم مع المشركين من أول يوم ، واستطاع فى النهاية أن يتغلب على الشرك وأهله وأن يسود فى الجزيرة العربية ويرفرف علم التوحيد على البيت الحرام .

أما بالنسبة للنصارى فى بداية البعثة فقد كان الأسلوب القرآنى يمتاز بملاطفتهم بمدح عيسى ـ عليه السلام ـ ومدح أمه مريم ـ عليها السلام ـ ، قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ (1) ، وقال تعالى : ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(2) وفصل القرآن فى ولادة عيسى ـ عليه السلام ـ وحمله فأزال كثيراً من الغبش والغموض فى سورة من سور القرآن هى سورة مريم .

ولقد وضح القرآن أن أساس الديانات السماوية واحد ، وهو الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده ، وأن مصدر التلقى واحد قال تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾(3)

ولقد أمر القرآن الكريم الرسول ـ ﷺ ـ وأتباعه بمجادلة أهل الكتاب ومنهم النصارى بالتى هى أحسن ، وأن يلاطفهم قال تعالى : ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (4)

ولقد حاول رسول الله ـ ﷺ ـ أن يبنى علاقة طيبة مع نصارى الحبشة ومع النجاشى حاكمها بالذات ، فأرسل نفراً من المسلمين فى العام الخامس من البعثة إلى أرض الحبشة حينما اشتد الأذى على المسلمين فى مكة لعلهم يجدون ملجأً لهم ولدينهم .

أما النجاشى فقد قبلهم فى أرضه وأما البطاركة فقد كانوا قوماً مرتشين يأكلون أموال الناس بالباطل وكانوا أصحاب سلطة ونفوذ ، لم يطيقوا بقاء المسلمين فى الحبشة ، بل لقد

(1) المؤمنون: 50 .

(2) الأنبياء : 91 .

(3) الشورى : 13 .

(4) العنكبوت : 46 .

تواطأوا مع سفير قريش عمراً بن العاص على إخراجهم من الحبشة وإرجاعهم إلى مكة ليواجهوا العنت والمشقة والفتنة فى الدين ، فتذكر كتب السيرة أن قريشاً قد أرسلت عمراً ابن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة وأرسلت معهما الهدايا ليفرقاها على البطاركة ثم يطلبا منهم تأييدهما فيما جاءا فيه ، فبعد أن وزعا الهدايا على البطاركة قابلا الملك ومعه البطاركة وقالا له : إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لانعرفه نحن ولاأنت ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشيرتهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه ، فقال البطاركة : صدقاً أيها الملك وقومهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم (1) .

ولقد آمن الصحابة بوحدة المصدر للإسلام والنصرانية وأن الأولى أن يتقاربا ويتحدا بل ويتبعا الدين الذى بشر به ـ عيسى عليه السلام ـ .

ومن منطلق وحدة المصدر والتلقى فقد حزن المسلمون فى مكة حزناً شديداً حينما انهزم الروم النصارى أمام الفرس عبدة النار ، وفى المقابل فرح المشركون لهزيمة الروم وسروا لانتصار الفرس ، ولقد واسى الله المؤمنين فى هذا الأمر الذى اعتبروه مصاباً بالنسبة لهم ، فبشرهم ببشرى سارة تدخل السرور إلى قلوبهم يوم وقوعها ألا وهى هزيمة الفرس أمام الروم ، وسجل هذا الحدث فى الكتاب الخالد القرآن الكريم ، وفى سورة اسمها سورة الروم ، فقال سبحانه : ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ (2) ومما يجدر ذكره أن هذا النصر الذى بشر الله به لن يتجاوز من السنين تسعاً فبضع السنين أقلها ثلاث وأكثرها تسع .

وهكذا نرى أن الدعوة فى الطور المكى اتسمت بالحوار الهادىء والجدال الرفيق الرقيق ، ومحاولة بناء الجسور مع النصارى .

وبعد ثلاثة عشر عاماً من حياة الجهاد فى مكة هاجر رسول الله ـ ﷺ ـ والذين آمنوا

---

(1) انظر : الهجرة النبوية للدكتور محمد أبو فارس ص 20 .

(2) الروم : 1 ـ 5 .

معه من مكة إلى المدينة المنورة ، فانشغل رسول الله ـ ﷺ ـ بعلاج اليهود وبمشركى العرب فى بداية الأمر ، وبعد غزوة الحديبية أرسل رسول الله ـ ﷺ ـ سفراءه إلى الزعماء والأمراء والملوك فى مصر والشام والحبشة ـ وكانوا نصارى فدعاهم إلى الإسلام بكتب كتبها إليهم قد حملها السفراء ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده .

وقد كان نص الكتاب الذى أرسله رسول الله ـ ﷺ ـ إلى هرقل ملك الروم كما رواه الإمام البخارى ـ رحمه الله ـ فى صحيحه بإسناده عن أبى سفيان ـ رضى الله عنه ـ :

« *بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين (1) ، ويأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لانعبد إلا الله ولانشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنابعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون* (2) . »

وبقى أسلوب مخاطبة النصارى بهذا الدين أسلوب الحوار بالحسنى وتصحيح الانحرافات العقائدية كتأليه عيسى ـ عليه السلام ـ وأمه وادعاء أنه ثالث ثلاثة ، وأنه ابن الله .

ولقد التقى رسول الله ـ ﷺ ـ وفداً من نصارى نجران وحاورهم فى دينهم واعتناق الإسلام بناء على ماجاء فى كتبهم من بشارةبهذا النبى ووجوب الإيمان به ودعاهم إلى المباهلة فى نهاية الأمر ، إلا أن الاستجابة من أمراء النصارى وملوكهم فى الشام ومصر والحبشة للإسلام لم تكن جدية

ولم يكتف الصليبيون الرومان والصليبيون العرب فى بلاد الشام بعدم الإيمان والدخول فى الإسلام ، بل واجهوا سفراء رسول الله ـ ﷺ ـ بالاعتداء والأذى والقتل ، مما جعل رسول الله ـ ﷺ ـ يتخذ الإجراء الحازم الحاسم مع هؤلاء الذين لايقدرون حرمة دم المسلم وأن السفراء لايعتدى عليهم ، فكانت سرية مؤتة .

وبعد عام تقريباً حشدت حشود الصليبيين الروم للانقضاض على الدولة الإسلامية

(1) الأريسيين : الفلاحين .

(2) صحيح البخارى بفتح البارى 1 / 41ـ44 ، مختصر صحيح مسلم 2 / 56 رقم 1122 .

واستئصال شأفتها ، وتقويض أركانها ، فسير رسول الله ـ ﷺ ـ جيشاً قوامه ثلاثون ألف مقاتل تحت قيادته ، كانت نتيجة ذلك أن أخذ الجزية من الإمارات الكائنة على الحدود الشمالية للدولة الإسلامية ، وعاد سالماً غانماً .

لقد واجه النصارى سماحة المسلمين ولطفهم بالحقد والصد والاعتداء على من آمن من الأمراء كأمير معان وغيره ، وظل هذا الحقد يزداد مع الأيام حتى كانت معركة اليرموك التى تجند البطاركة فيها ، بل كانوا فى مقدمة الجيش وفى الصفوف الأولى يحملون صلبانهم ويقاتلون المسلمين ، ولكن شاءت قدرة الله وحكمته أن تحرر هذه الأرض من أوضار الشرك وعقيدة التثليث وأن يطرد الروم الغزاة .

ولكن جذوة الحقد لم تنطفىء ، وظلت الأجيال تتناقلها ، حتى شنت فى القرن الرابع الهجرى حروباً صليبية على بلاد الشام ، وفلسطين وحاولت احتلال الحجاز والاعتداء على قبر رسول الله ـ ﷺ ـ ولكن المسلمين كانوا لهذه الحروب الصليبية بالمرصاد ، فلم يستسلموا بل ظلت الحرب سجالاً حتى طهروا فلسطين وسائر بلاد المسلمين من دنس الصليبيين وردوهم إلى بلادهم خائبين منهزمين فهل توقف الصليبيون عن عداء الإسلام وأهله؟

إن الأحداث تؤكد أن أوربا الصليبية وسائر الدول الصليبية الأخرى وفى مقدمتها أمريكا ظلت تحمل الحقد الدفين فى القلوب حتى جاء العصر الحديث ، فحملت على بلاد المسلمين واحتلتها ودخل القائد البريطانى اللمبى القدس ليصرح عن حقده الصليبى فيقول : الآن انتهت الحروب الصليبية .

ويدخل القائد الفرنسى جورو دمشق ويركل قبر صلاح الدين قائلاً : هانحن عدنا ياصلاح الدين .

إن هذا الكتاب يحدثنا عن فترة من فترات الصراع مع الصليبيين ، ويضع الحل الناجح لعلاج حقدهم ، يدرس الأحداث ويحللها ويستنبط العبر والعظات والدروس والحكم والأحكام ، ويحاول أن يربطها بالواقع لتستفيد منها الأجيال لتدرك طبيعة الصراع وأبعاد المعركة وحجمها وخطورتها ، ولتدرك من هم أعدؤها وماحقيقتهم .

إن الصراع مع الصليبيين لايقل خطورة عن الصراع مع اليهود قديماً وحديثاً ، ويتأكد

هذا الخطر فى عالمنا المعاصر ، وفى حياتنا المعاصرة .

إن الكاتب ليؤمل أن تدرك هذه الأمة أعداءها وكيف ينبغى أن تتعامل معهم بجد وحزم وصرامة .

وإن الكاتب ليرجو من الله ـ العلى القدير ـ أن يجعل عمله هذا خالصاً لوجهه الكريم وأن يكون فى ميزان حسناته يوم القيامة ، يوم لاينفع مال ولابنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم ، وعمل بر لاتشوبه شائبة الرياء والعجب والغرور .

وإن كاتب هذه الأسطر ليرجو من القارئ الكريم أن يرشده ويقدم له النصح فإن العصمة لله وحده ولمن عصمه الله من ملك أو رسول ، وماسوى ذلك يؤخذ من قوله ويرد .

وكم يسر الكاتب إذا رأى من إخوانه القراء اهتماماً وفى مقدمة هذا الاهتمام النقد والتوجيه والإرشاد إلى الصواب ، فإن المؤمن مرآة أخيه ، والله فى عون العبد ماكان العبد فى عون أخيه .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

الأردن - صويلح

المؤلف

سرية مؤتة

توطئة

أسباب السرية ومبرراتها

لقد كان لغزوة الحديبية وماآلت إليه من اتفاقية بين مشركى قريش ورسول الله ـ ﷺ ـ نتائج إيجابية كثيرة بالنسبة للمسلمين ، فقد تفرغ المسلمون لعدو لئيم خبيث فى خيبر ، إنهم يهود خيبر الذين تجمعوا فى حصونهم يكيدون للإسلام وأهله ، ويتربصون بالمؤمنين الدوائر ، فسار إليهم رسول الله ـ ﷺ ـ ودك حصونهم وقتل أبطالهم وحرر أرض خيبر منهم كان ذلك فى العام السابع من الهجرة النبوية ـ على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ .

ومن الآثار الهامة كذلك تفرغ رسول الله ـ ﷺ ـ والذين معه لنشر الدعوة الإسلامية فى الداخل والخارج ، فأرسل سفراءه برسائل مكتوبة إلى الأمراء والرؤساء والملوك على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم يدعوهم إلى الدخول فى دين الإسلام بتوحيد الله ـ تبارك وتعالى ـ وعبادته وحده لاشريك له [1] .

لقد وجه رسول الله ـ ﷺ ـ حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس ملك مصر حاملاً إليه كتاب رسول الله ـ ﷺ ـ ، كما كتب كتاباً إلى قيصر الروم وأرسله مع سفير المسلمين دحية الكلبى ليوصله إلى ملك بصرى حتى يقوم الأخير بإيصاله إلى قيصر الروم وكتب كتاباً إلى كسرى ملك الفرس وكلف عبد الله بن حذافة أن يوصله إلى زعيم البحرين ليوصله إلى كسرى ، وأرسل كتاباً آخر مع عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ملك الحبشة ، وكتب كتاباً إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى وكلف شجاع بن وهب الأسدى أن يسلمه إليه ، وكتب رسول الله ـ ﷺ ـ كتاباً إلى جبلة بن الأيهم كما كتب رسول الله ـ ﷺ ـ كتاباً إلى عمرو بن فروة الجذامى عامل الروم على معان وبعث رسول الله ـ ﷺ ـ العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى العبدى بالبحرين ، وكتب رسول الله ـ ﷺ ـ إلى ملوك حمير جاء فيه : ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لايغير عنها ، وعليه الجزية [2] .

---

(1) هذه الكتب موجودة فى كتاب الوفا بأحوال المصطفى لأبى الفرج ابن الجوزى تحت عنوان أبواب مكاتبته الملوك 2 / 717ـ 743.

(2) انظر كتاب الوفا 2 / 743 .

هذا وبعث رسول الله ـ ﷺ ـ الحارث بن عمير الأزدى إلى ملك بصرى .

وقد اختلفت مواقف هؤلاء من دعوة رسول الله ـ ﷺ ـ وسفرائه فرفض معظمهم الانصياع إلى الحق ، والاستجابة لدعوة الخير حرصاً على زعامة فارغة أو سلطان زائل .

فالمقوقس لم يدخل فى الإسلام ، ولكنه أحسن إلى سفير رسول الله ـ ﷺ ـ فلاطفه وأرسل معه هدية إلى رسول الله ـ ﷺ ـ لقد كان من أتباع عيسى ـ عليه السلام ـ وكان يسمع عن صفات الرسول من أهل الكتاب ، ولكنه لم يسلم حرصاً على بقائه فى الحكم كما أخبر الرسول ـ ﷺ ـ : «*ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه*»(1) .

وأما ملك الروم فقد أحسن إلى سفير الرسول ـ ﷺ ـ وقرأ كتابه واحترمه وعرف أن مرسله نبى ، وعرض على البطاركة الدخول فى الإسلام ، فنفروا نفرة رجل واحد فى وجهه ورفضوا عرضه ، وثاروا عليه ، فخافهم على نفسه وملكه ، فباع آخرته بدنياه ولم يسلم ومات على نصرانيته (2) .

وأما كسرى فقد مزق كتاب رسول الله ـ ﷺ ـ فدعا عليه رسول الله ـ ﷺ ـ بأن يمزق الله ملكه ، ولم يكتف كسرى بفعله القبيح بل أرسل إلى واليه باليمن باذان بن ساسان يأمره بأن يرسل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ رجلين جلدين ليأتيا به ، ولكن باذان لم يفعل ماأمره به ، بل دخل فى الإسلام ، فأقره رسول الله ـ ﷺ ـ أميراً على اليمن ، ثم جعل ولده شهر بن باذان أميراً بعد وفاته (3) .

وأما النجاشى ملك الحبشة فقد أحسن إلى سفير رسول رسول الله ـ ﷺ ـ ودخل فى الإسلام ، وأحسن إلى من عنده من المسلمين ، وكان له شرف المشاركة فى تزويج أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان لرسول الله ـ ﷺ ـ بعد أن تنصر زوجها فى الحبشة

---

(1) انظر : الوفا بأحوال المصطفى 2/ 717 وزاد المعاد 3/ 691 وشرح المواهب اللدنية 3/ 348 ـ 350 وعيون الأثر 3/ 265.

(2) انظر : الوفا بأحوال المصطفى 2/ 726 وصحيح البخارى متن فتح البارى 1/ 48 والفتح الربانى 21/ 198 ـ 199 وفتح البارى 1/ 41.

(3) انظر : صحيح البخارى 9/ 190 ـ 191 وتاريخ الأمم والملوك 2/ 90 ـ 91 والطبقات الكبرى لابن سعد 1/ 259 ـ 260 وزاد المعاد 1/ 125 والنظام السياسى فى الإسلام ص 144 .

فقد طلب إليه رسول الله ـ ﷺ ـ أن يزوجه إياها فأصدقها عن النبى ـ ﷺ ـ أربعمائة دينار[1].

وأما الحارث بن أبى شمر الغسانى النصرانى الصليبى فكان سيئاً فى استقبال سفير رسول الله ـ ﷺ ـ وكان أشد سوءاً فى رده بعد قراءة كتابه ـ ﷺ ـ فقد رماه وصاح : من ينزع منى ملكى ! أنا سائر إليه ، علىّ بالناس ، فتجهز الناس للقتال ثم قال لسفير الرسول : أخبر صاحبك بما ترى ، ولكن قيصر الروم أمره بألا يسير لقتال الرسول فخنس[2].

وأما جبلة بن الأيهم فأسلم إلا أنه لم يستمر على إسلامه ، فقد ارتد إلى النصرانية فى عهد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ لأنه آذى مسلماً بلطمه وهو يطوف بالبيت فخيره عمر بن الخطاب بين أن يرضى المعتدى عليه وبين أن يقتص منه ، ولكنه فر إلى القسطنطينية وتنصر هناك ومات على الكفر والعياذ بالله[3].

أما فروة بن عمرو الجذامى عامل الروم على معان فقد استجاب لدعوة الرسول ـ ﷺ ـ فأسلم وكتب إلى رسول الله ـ ﷺ ـ بإسلامه وأرسل له هدية ثمينة ، ولما بلغ ملك الروم إسلام فروة الجذامى طلب منه أن يترك الإسلام ويرجع إلى دين النصرانية ، فأبى ذلك قائلاً : لا أفارق دين محمد ـ ﷺ ـ وإنك تعلم أن عيسى بَشَّر به ولكنك تضن بملكك ، فحبسه ثم قتله[4].

وأما مصير سفير رسول الله ـ ﷺ ـ الحارث بن عمير الأزدى الذى أرسله إلى ملك بصرى ، فقد لقيه شرحبيل بن عمرو الغسانى أمير مؤتة فقال له : لعلك من رسل محمد فقال له : نعم ، فقتله[5].

(1) انظر : زاد المعاد 3 / 689 وعيون الأثر 2 / 264 والمستدرك 4 / 21 وصفة الصفوة 2 / 43ـ45 والطبقات الكبرى لابن سعد 8 / 99 والبداية والنهاية 8 / 28 والاستيعاب على هامش الإصابة 4 / 305ـ306.

(2) انظر : الوفا بأحوال المصطفى 2 / 737ـ738.

(3) انظر : الوفا بأحوال المصطفى 2 / 739.

(4) انظر : الوفا بأحوال المصطفى 2 / 740ـ741 والسيرة النبوية لابن كثير 4 / 167ـ168.

(5) انظر : الطبقات الكبرى لابن سعد 2 / 128 و شرح المواهب 2 / 268 وتاريخ الخميس 2 / 70 وامتاع الأسماع 1 / 344ـ345 وزاد المعاد 3/ 381 والسيرة الحلبية 2 / 786.

هذا وقد دفن فى قرية من قرى الطفيلة اسمها بصيرا وهى تبعد 70 كم عن مؤتة[1].

مما تقدم نرى أن معظم طواغيت النصارى سواء كانوا عرباً أو عجماً لم يستجيبوا للإسلام بل تطاول بعضهم على سفراء رسول الله ـ ﷺ ـ ومن أسلم، وتكررت الاعتداءات على من يعتنق الإسلام أويفكر فى ذلك ، فقد قتلوا والى معان حين أسلم وقد قتلوا الحارث بن عمير الأزدى وقد اعتدوا على سفير الرسول دحية بن خليفة الكلبى وحاولوا نهب ماله ، ومنهم من صمم أن يغزو رسول الله ـ ﷺ ـ ، وقد قتل والى الشام من أسلم من عرب الشام [2].

وتجرأوا أن يسفكوا دماء خمسة عشر صحابياً كانوا أفراد سرية بقيادة عمرو بن كعب الغفارى أرسلهم الرسول ـ ﷺ ـ ليدعوا إلى الإسلام فى مكان يقال له : ذات اطلاح فلم يستجب أهل المنطقة إلى الإسلام وأحاطوا بالدعاة من كل مكان وقاتلوهم حتى قتلوهم جميعاً إلا أميرهم كان جريحاً فتحامل على جرحه حتى وصل المدينة فأخبر رسول الله ـ ﷺ ـ [3].

لقد كانت هذه الأحداث المؤلمة وبخاصة مقتل سفير رسول الله ـ ﷺ ـ الحارث بن عميرالأزدى ـ محركة لنفوس المسلمين ، وباعثاً لهم ليضعوا حداً لهذه التصرفات النصرانية العدوانية ، ويثأروا لإخوانهم فى العقيدة الذين سفكت دماؤهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ونبينا محمد رسول الله ـ ﷺ ـ ، فأمر رسول الله ـ ﷺ ـ المسلمين بالتجهز للقتال ، فاستجابوا للأمر النبوى وحشدوا حشوداً لم يحشدوها من قبل ، إذ بلغ عدد المقاتلين فى هذه السرية ثلاثة آلاف مقاتل ، واختار النبى ـ ﷺ ـ للقيادة ثلاثة أمراء على التوالى : زيد بن حارثة ، ثم جعفر بن أبى طالب ثم عبد الله بن رواحة .

(1) انظر : تجربة مؤتة ص 85 .

(2) انظر : خاتم النبيين 2/ 1139 .

(3) انظر : تاريخ الطبرى 3/ 103 وحياة سيد البشر 3/ 172 .

فقد روى الإمام البخارى ـ رحمه الله تعالى ـ فى صحيحه بإسناده إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما ـ قال : أمر رسول الله ـ ﷺ ـ فى غزوة مؤتة زيد بن حارثة فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « *إن قتل زيد فجعفر ، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحه*(1) » .

ولقد اعترض جعفر بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ على تقديم زيد بن حارثة ـ رضى الله عنه ـ عليه فى الإمارة ، فقد روى الإمام أحمد والنسائى وصححه ابن حبان من حديث أبى قتادة قال : بعث رسول الله ـ ﷺ ـ جيش الأمراء وقال : «*عليكم زيد بن حارثة فإن أصيب زيد فجعفر* » ، فذكر الحديث وفيه : ما كنت أرهب أن تستعمل علىَّ زيداً ، قال : « *امض فإنك لا تدرى أى ذلك خير* » (2) .

هذاولقد أمر رسول الله ـ ﷺ ـ الجيش الإسلامى أن يأتوا المكان الذى قتل فيه الحارث ابن عمير الأزدى ـ رضى الله عنه ـ وأن يدعو من مكان هناك إلى الإسلام فإن أجابوا فبها ونعمت وإن أبوا استعانوا بالله عليهم وقاتلوهم (3) .

من وصايا الرسول : ولقد زود الرسول ـ ﷺ ـ الجيش فى هذه السرية وغيرها من السرايا بوصايا تتضمن آداب القتال فى الإسلام .

عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذاأمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ـ عز وجل ـ ، وبمن معه من المسلمين خيراً ، ثم قال : اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدرواولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً .

وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم واكفف عنهم : ادعهم إلى الدخول فى الإسلام ، فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف

(1) صحيح البخارى 9/ 53 وانظر : السيرة النبوية لابن هشام 2/ 373 وإمتاع الأسماع 1/ 345 والفتح الربانى 21/ 136 وتاريخ الطبرى 3/ 107 والدرر 154 وعيون الأثر 2/ 153 والجامع 291 .

(2) فتح البارى بشرح صحيح البخارى 9/ 53 والفتح الربانى 21/ 136 وبلوغ الأمانى 21/ 136 ـ 137 وقال عنه الساعاتى : (الحديث صحيح ورجاله ثقات ، وانظر : مسند ابن أبى شيبة 14/ 512) .

(3)انظر : الطبقات الكبرى لابن سعد 2/ 128 والسيرة الحلبية 2/ 787 .

عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم دار المهاجرين ، فإن فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين وعليهم ماعلى المهاجرين، وإن دخلوا فى الإسلام و اختاروا دارهم فأخبرهم أنهم يكونوا كأعراب المسلمين، يجرى عليهم حكم الله ، ولا يكون لهم فى الفيء ولا فى الغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية ، فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم .

وإن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تستنزلهم على حكم الله فلا تستنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لاتدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا ؟

وإن حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك على أن تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله ، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمةأبيك و ذمة أصحابك ، فإنكم إن تخفروا [1] ذمتكم وذمة آبائكم خير لكم من أن تخفروا ذمةالله وذمةرسوله .

وستجدون رجالاًفى الصوامع [2] معتزلين للناس فلا تتعرضوا لهم ، لا تقتلن امرأة ولا صغيراً ضرعاً [3] ولا كبيراً فانياً، ولا تفرقن نخلاً ، ولا تقلعن شجراً ولا تهدموا بيتاً [4] .

(1) أخفر الذمة : نقضها ولم يوف بها ولم يتمها وأزال خفارتها أى أمانها وذمامها .

(2) الصوامع : جمع صومعة وهى المكان الذى يحبس العابد من النصارى نفسه للعبادة فيه ويقطع عن الدنيا .

(3) الضرع : الصغير السن الضعيف الضاوى، يذل من ضعفه ولايدفع عن نفسه .

(4) انظر : إمتاع الأسماع 1 / 345 ـ 346 والوفا بأحوال المصطفى 2 / 712 ـ 713.

● ما يستفاد من ذلك :

أولاً : رسالة الإسلام لعموم الناس وليست محصورة فى العرب : هذا ما نستنبطه من إرسال النبى ـ ﷺ ـ سفراءه برسالاته إلى ملوك العرب والعجم داخل الجزيرة العربية وخارجها، وهذا ما صرح به الرسول ـ ﷺ ـ : «*كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وأنا بعثت إلى الناس كافة*»(1) والقرآن الكريم فى مكة قد حدد عالمية الرسالة فقال ـ سبحانه وتعالى ـ فى سورة الأعراف وهى مكية : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾(2)

ثانياً : الدعوة إلى الله لا تتوقف تحت أى ظرف كان ، ينبغى على أتباعها وأصحابها أن يبادروا إلى نشرها وتبليغها للناس ، مهما بلغت التضحيات ؛ لأن الرجال المؤمنين يخلصون لرسالتهم فيحيون لها ، ويموتون من أجل سيادتها

ثالثاً : يلاحظ فى كتب الرسول ـ ﷺ ـ التى حملها سفراؤه إلى الملوك والرؤساء والأمراء أن الرسول ـ ﷺ ـ حمل الملوك والأمراء المسؤولية الكاملة عنهم وعن رعاياهم إن هم لم يستجيبوا لدعوة الإسلام ويدخلوا فى دين الله ، فقد جاء فى كتاب الرسول ـ ﷺ ـ إلى هرقل ملك الروم : «*إنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين*» (3) وجاء فى كتابه إلى المقوقس ملك مصر : «*أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم القبط*» (4) ، وجاء فى كتابه إلى كسرى ملك الفرس : «*أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس*» . (5)

ويؤخذ من هذا أن إقبال الحكام على الإسلام واعتناقهم له والتزامهم به له أثر على رعاياهم ولهذا كان أجرهم مضاعفاً ؛ لأن الرعايا فى الغالب تقبل على ما أقبل عليه الحكام، بل تقلدهم وتقتدى بهم ، كما أن إحجامهم عن الدخول فى الإسلام له أثر سلبى كذلك ومن هنا كان الإثم مضاعفاً .

---

(1) رواه البخارى ومسلم ، متن فيض القدير وهو الجامع الصغير 1 / 567.

(2) الأعراف : 158 .

(3) الأريسيين : الفلاحين . انظر مختصر صحيح مسلم 2/ 57 رقم الحديث 1122 .

(4) انظر : زاد المعاد 3 / 691 وشرح المواهب 3 / 348 ـ 350 وعيون الأثر 2 / 265 .

(5) انظر : زاد المعاد 3 / 688 ـ 689 وكتاب الجامع فى السنن والآداب والمغازى والتاريخ ص 288 ونصب الراية 4 / 420 ـ 421 .

فحين يعتقد الحاكم بالإسلام سييسر للناس سبل الهداية ويشجعهم على اعتناق الإسلام ، فهو على الأقل يوفر لهم الحرية الكاملة لأن يختاروا هذا الدين ولا يضع عقبة من العقبات التى تحول بينهم وبين الإسلام .

أما إذا رفض الحاكم الإسلام وهو يملك سلطة القهر والغلبة ، وهو قادر على إرهاب الناس، فسيتوجس الناس منه خيفة إن هم اعتنقوا الإسلام ، تجنباً لبطشه وفتكه ، وخلاصاً من شره ، ولهذا حمله رسول الله ـ ﷺ ـ وزر كفره ووزر كفر رعيته وعدم إيمانها ؛ لأنه كان السبب فى ذلك .

وماشرع الجهاد إلا لتذليل العقبات التى تحول بين الناس وبين الدخول فى هذا الدين سواء كانت هذه العقبات أشخاصاً أو مؤسسات أو منظمات أو دولاً ، قال تعالى : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾(1)

ويؤخذ من إرسال الكتب أيضاً أن الحكام بحاجة إلى الإيمان والهداية كغيرهم ؛ لأن الإسلام جاء لإصلاح الحكام والمحكومين والأغنياء والفقراء على حد سواء .

والمريض يعالج سواء كان صاحب جاه وسلطان أولا جاه له ولا سلطان ، ومرضى القلوب بحاجة إلى العلاج أكثر من مرضى الأجسام ، والكافر مريض القلب ، فهو بحاجة إلى طب القلوب ، وطب القلوب هو الإيمان الذى يبعث الاستقرار فى النفس والطمأنينة فى الحياة ، والسعادة فى نفس الفرد والمجتمع ، وأحوج الناس إلى هذا الحكام الذين يتولون دفة الحكم وتدبير شؤون الناس .

رابعاً : النصارى الصليبيون فى الغالب قوم متعصبون ضد الإسلام : إن دراسة مواقف النصارى الصليبيين فى عهد الرسول ـ ﷺ ـ وبخاصة رجال الدين منهم والمتنفذين فيهم تجعل الباحث يدرك أن هؤلاء قد قامت الحجج الدامغة والبراهين الساطعة على رسالة الرسول محمد ـ ﷺ ـ ، ومع هذا فإنهم لم يؤمنوا به ولم يستجيبوا لطلبه مع سفرائه فعيسى ـ عليه السلام ـ بشرهم بمجيء رسولنا محمد ـ ﷺ ـ من بعده ، وتناقلت الأجيال هذه البشارة وحفظتها وتلتها مراراً من الإنجيل ، وقد ذكر القرآن هذا فقال سبحانه على

(1) الأنفال : 39 .

لسان عيسى ـ عليه السلام ـ : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (1)

وذكرت التوارة والإنجيل وهما الكتاب المقدس عند النصارى صفات هذا الرسول وعلموا أنه رسول الله ـ ﷺ ـ حقاً وصدقاً ، لتوافر هذه الصفات فيه .

وماجرى بين هرقل وأبى سفيان وكان يومها على شركه من حوار واستنتاج هرقل بعد الحوار أن محمداً بن عبد الله هو الرسول الذى أخبرت به التواراة والإنجيل وأن أتباعه هم أتباع الرسل وأن الرسول سينتصر على أعدائه ومخالفيه فقد جاء فى قول هرقل لأبى سفيان : إن كان ماتقول حقاً فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظن أنه منكم (2) .

إن رفض هؤلاء النصارى الصليبيين الدخول فى الإسلام واتباع سيد المرسلين وخاتمهم ـ ﷺ ـ مع قيام الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة على صدق رسالته يعود إلى أسباب منها :

1ـ **حب الزعامة والحرص عليها** : إن هرقل وغيره أيقن أن دعوة الإسلام هى الحق وأن الرسول ـ ﷺ ـ هو الذى بشربه عيسى ـ عليه السلام ـ ونطق الإنجيل بصفاته ، ولقد حدثته نفسه بالإيمان ، ولكنه تراجع حينما رأى أن زعامته مهددة بالزوال ، من البطارقة الذين أنكروا عليه فكرة الإيمان والاتباع .

ففى صحيح البخارى ـ رحمه الله ـ أن هرقل قد جمع من حوله وقال لهم : يامعشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد ، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبى ؟ فحاصوا(3) حيصة حمر الوحش ، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال : إنى قلت مقالتى آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عنه . (4)

(1) الآية 6 من سورة الصف

(2) انظر : صحيح البخارى بفتح البارى 1 / 35 ـ 44.

(3) حاصوا . نفروا .

(4) صحيح البخارى بفتح البارى 1 / 48.

وكان موقف المقوقس ملك مصر التمسك بزعامته وملكه وعدم الإيمان بالإسلام مع قيام الحجة عليه .

2ـ **التعصب الأعمى للباطل** : لقد أدرك كثير من الرؤساء ورجال الدين النصرانى أن الحق فيما دعا إليه الإسلام ومابشر به الرسول ـ ﷺ ـ من قيم ومبادئ ولكنهم رفضوا ذلك كله تعصباً للباطل فأغلقوا أعينهم وأسماعهم وعقولهم عن التدبر والفهم ، فهم عُمىٌ عن الحق وإن رأوا ، وصمٌ وإن سمعوا ، وسفهاءٌ وإن كان لهم أدمغة .

وهذا النوع من الناس لو قدمت له ألف دليل ودليل لن يستفيد من ذلك ، ولن يحاول مجرد المحاولة أن يفكر فى الأمر وأن يدرك الحقيقة وأن يستجيب لصوت الخير والرشاد ، وهؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ (1)

وهؤلاء يصدق فيهم قوله تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (2)

3ـ **الخوف على مصالحهم الذاتية ومكاسبهم الشخصية** : لقد حقق هؤلاء الزعماء ورجال الدين مكاسب كثيرة وامتيازات وفيرة بغير حق ، ويجدون فى الإسلام القائم على العدل الداعى إلى إعادة الحقوق إلى أهلها سينزع هذه المكاسب الباطلة وهذه الامتيازات الظالمة من أيدى هؤلاء الظلمة ويعيدها إلى أهلها .

وهم يتشبثون بهذه الامتيازات ويعضون عليها بالنواجذ ، بل ويستميتون فى الدفاع عنها حتى آخر قطرة من دمائهم ، ومن ثم يقفون من الإسلام موقف العداء ؛ لأنه يسعى لتطهيرهم من الأنانية والظلم والفجور .

إن مصالحهم الخاصة وأهواءهم الفاسدة تصبح آلهة عندهم تسيرهم فى غياب العقل والمنطق نحو رفض الخير والبقاء على ماهم عليه من الانحراف والزيغ والضلال ، قال سبحانه : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾

تأمل موقف الحارث بن أبى شمر الغسانى حينما قرأ كتاب الرسول ـ ﷺ ـ رماه وصاح : من ينزع منى ملكى ، أنا سائر إليه ، علىَّ بالناس ، فتجهز الناس للقتال .

---

(1) يونس : 101 .
(2) النمل : 14 .

خامساً : صورتان متناقضتان : إن أحداث السيرة النبوية تذكر لنا صورتين متناقضتين تماماً .

الصورة الأولى : نظرة المسلمين إلى الروم وتعاطفهم معهم حينما هزموا على أيدى الفرس ، فلقد حزن المسلمون حزناً شديداً لهزيمة الروم لأنهم أهل كتاب ، وفرح كفار قريش لانتصار الفرس على الروم لأنهم عبدة الأوثان والنار فهم مجوس ، ولقد سجل الله ـ عز وجل ـ فى كتابه الكريم هذا الحدث وواسى المسلمين وبشرهم بأن الروم سينتصرون على الفرس بعد هزيمتهم ، ومن ثم يدخل السرور قلوب المؤمنين بعد أن غمرها الحزن ، وسميت هذه السورة التى تضمنت ذلك سورة الروم ، قال تعالى : ﴿الم ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ (1)

والصورة الثانية : موقف شرحبيل بن عمرو الغسانى النصرانى الصليبى وغيره من زعماء المنطقة وملوكها من سفراء رسول الله ـ ﷺ ـ ودعاته فقد قتلوا سفير رسول الله ـ ﷺ ـ الحارث بن عمير الأزدى وقتل أفراد سرية ذات أطلاح وقتلوا والى معان حين دخل فى الإسلام

إن الصورة الأولى تدل على سماحة المسلمين وتعاطفهم ، وتدل الصورة الثانية على

---

(1) الروم : 1 ـ 5

ومما يذكر أن الروم والمسلمين قد تألموا ألماً شديداً لانتصار الفرس على الروم لأن كسرى أبرويز كان يخرب بجيوشه كل مامر به من البلاد ، إذ اقتحم بيت المقدس وساق أسقفها وقسيسها ونصاراها وأحرق الكنائس واستولى على الصليب الأعظم ، وبعث به إلى المدائن ، وقد كتب إلى خصمه هرقل كتاباً يقطر زهواً وخيلاء ، وكفراً وازدراء . فقد جاء فيه : من كسرى أعظم الآلهة وسيد الأرض كلها إلى عبده الغبى الذليل : هرقل ، إنك تقول : إنك تعتمد على إلهك ، فلم إذاً لم ينقذ أورشليم من يدى؟!

ولم تمض بضع سنين حتى كان الروم بقيادة هيرا كلوس الأول (هرقل) (610 ـ 640 م) يستولون على أرمينيا والقوقاز ويتقدمون إلى بلاد فارس فيدمرون كلورمية مسقط رأس زرادشت منشئ ديانة المجوسية ، ويطفئون نارهم المقدسة ، ويسحقون جموعهم الغفيرة فى نينوى ، ويلاحق هرقل كسرى فى دستجرد والمدائن فيفرمنها الواحدة بعد الأخرى ، ويقتل من فى هذه المدائن ويستولى على جميع مافيها ، ويسبى نساء كسرى ويحلق رأس ولده ويذله ويسوقه على حمار فى غاية الهوان ، ويسترد جميع البلاد التى احتلها الفرس منه ، ويستعيد الأسرى ، ويعين وصياً على ولده الصغير قياذ الذى قتل أباه ويعلن نفسه أنه سيده وسيد فارس أيضاً . انظر . تجربة مؤتة ص 91 ـ 93

الحقد الأعمى التى تترع به قلوبهم ونفوسهم تجاه سفراء رسول الله ـ ﷺ ـ وأتباعه وصحابته .

وهذا الحقد نابع من عقيدة فاسدة وعقلية منحرفة زائغة زيغ عقيدتها والمسلمون أصحاب عقيدة صافية نقية ، فهم يدعون إلى التوحيد ونبذ الشرك ، والصليبيون أصحاب عقيدة مشركة تقوم على تأليه عيسى ـ عليه السلام ـ كما تقوم على عقيدة التثليث ، وعلى هذا فالشرك وأهل الشرك لايطيقان أهل التوحيد فتبقى نار العداوة والحقد تتأجج يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة فإذا ظفروا بمسلم كان الانتقام بشراسة وحماقة ، وهذا بعض مافى قلوبهم من الحقدوالكره وماتخفى صدورهم أكبر ، وصدق الله العظيم : ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾(1)

سادساً : السمة الجدية فى هذا الدين : لقد نهج الإسلام فى التعامل مع خصومه بالحوار الهادئ والحجة المقنعة والدليل الدامغ ولكن هؤلاء الخصوم حين كانوا يفلسون فكرياً أمام أهل الحق يلجأون إلى الدس والغدر والبطش .

فقد علمت كيف قتلواسفير رسول الله ـ ﷺ ـ وسفكوا دماء خمسة عشر صحابياً من الدعاة إلى الله وقتلوا والى معان حينما أعلن إسلامه ، فما الموقف من هؤلاء ؟ نعم إن الإسلام يواجه الفكرة بالفكرة ، والحجة بالحجة ، لكن حينما يتجاوز أعداؤه إلى القوة لايقف مكتوف الأيدى ، ويكتفى بالاحتجاج على هذه الجرائم ، بل يوجب على أصحابه أن يواجهوا القوة بالقوة ، بل يذهب إلى أبعد من ذلك إنه يأمر أتباعه أن يهاجموا كل عدو لهم إذا طرأت له فكرة استخدم القوة معهم إن لم يكن بينهم وبينه عهد وعقد ، وإذا كانت هناك عهود ومواثيق وخشى المسلمون غدر هؤلاء المعاهدين فالإسلام لايطلب من أهله أن يحافظوا على هذه العهود حتى ينقضها غيرهم بالغدر والخداع ، ولكنه يطلب من أهله ويأمرهم أن يفسخوا العقد ويلغوه من طرف واحد ثم يتخذوا القرار المناسب فى التأديب والزجر ، قال تعالى : ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾(2)

وهذا الموقف الحازم الصارم وقفه رسول الله ـ ﷺ ـ من هؤلاء النصارى الصليبيين

(1) آل عمران . 118

(2) الأنفال : 58 .

حين اعتدوا على سفرائه ودعاته فلم يفعل ماتفعله دول العالم الثالث اليوم وفى مقدمتها الدول العربية ، فيطير برقية احتجاج شديدة اللهجة يستنكر فيها الاعتداءات الغاشمة الظالمة إلى المحافل الدولية المعادية ليكسب ودها وتأييدها ، بل قرر أن يسير جيشاً ليلقن هؤلاء الغادرين العابثين درساً يسجله التاريخ ليستفيد منه كل من يأتى من الأجيال فيما بعد .

سابعاً : قيمة الإنسان فى الإسلام : إن هذا الدين يهتم بهذا الإنسان اهتماماً بليغاً ، كيف لا ، وماتنزل القرآن على قلب رسول الله ـ ﷺ ـ إلا لإصلاح شؤون هذا الإنسان وإسعاده فى الدنيا والآخرة ، ولإنقاذه من عذاب الدنيا وجحيم الآخرة ، ويحفظ للمسلم فى المجتمع الإسلامى كرامته ويوفر له عزته وشرفه .

إن مانراه اليوم من بعض الدول أن كثيراً من أفراد رعاياها يتعرضون للإذلال والقهر والبطش ولاتحرك ساكناً ، فلا تثأر لهؤلاء المستضعفين من أبنائها وبناتها ، إنهم يتعرضون للتجويع وتكسير عظام الأطراف وتحطيم الجماجم والتعذيب الشديد الذى لايطاق ، ونجد حكام المنطقة لايقفون بجانب هؤلاء وقفة رجل واحد يرفعون عنهم الضيم ويحررونهم مماهم فيه من العنت والمشقة والبلاء .

إن رسول الله ـ ﷺ ـ قداعتبر المرء المسلم له من الكرامة والحرمة أكثر من حرمة الكعبة على شدة حرمتها وشرفها وعظمتها ، ومن ثم فقد أوجب الدفاع عنه ونصرته ، كان رسول الله ـ ﷺ ـ يطوف بالكعبة يوماً وهو يقول : « *ماأطيبك وأطيب ريحك ، وماأعظمك وأعظم حرمتك ، ولحرمة العبد المؤمن عند الله أشد حرمة منك دمه وماله وعرضه* »

ومن هذا المنطلق لم يطق رسول الله ـ ﷺ ـ أن يسمع قتل الحارث بن عمير الأزدى إلابالثأر له وتأديب الذين اعتدوا عليه أو وافقوا على ذلك .

ثامناً : قيمة السفير فى الإسلام : إن السفير فى الإسلام يمثل الدولة ومن ثم فحرمته من حرمتها ، وهيبته من هيبتها ، وأمنه هو أمنها ، وكرامته كرامتها .

فالاعتداء على سفير رسول الله ـ ﷺ ـ يعنى الاعتداء على رأس الدولة وشعبها وإسقاط لهيبتها إن رضيت بذلك ، وتساهلت فيه ، ولكن الموقف السليم أن تحافظ على هيبتها بمحافظتها على سفرائها وتأديب كل من تسول له نفسه بالمساس بكرامتهم أو

الاعتداء عليهم ، ومن هذا المنطلق غضب المسلمون معه فتحمسوا لقتال هؤلاء الغادرين وغزوهم فى عقر دارهم ، حتى يكونوا عبرة لكل معتبر وعظة لكل متعظ .

نعم لقد ساء الاعتداء على الحارث بن عمير الأزدى رسول الله ـ ﷺ ـ ، واعتبره تحدياً صريحاً ، وأمراً لايحسن السكوت عليه ، لاسيما والإسلام لايزال يركز دعائمه فى أنحاء الجزيرة العربية ، ولايزال فى أشد الحاجة إلى الاحتفاظ بكل ماله من هيبة ، وكانت الفكرة التى رسخت فى نفوس الناس حينذاك أن الإسلام قوة لاتغلب ، وأنه مؤيد بروح من الله ـ عز وجل ـ ، وتحت تأثير هذه العقيدة أسلم كثير من الناس رغباً أو رهباً ، ولاسيما الأعراب فى البادية ، فقد كان أكثرهم يسلمون لقوة المسلمين وتفوقهم على أعدائهم ، ولذلك كان رسول الله ـ ﷺ ـ حريصاً على ألا تنقص هيبة الإسلام فى أية ناحية ، وألا تتزعزع عقيدة الناس فيه على أى حال ، وكان السكوت على قتل الحارث بن عمير أمراً يحط من كرامة الإسلام وينتقص من هيبته ، فكان لابد من عمل يحفظ على الإسلام هيبته ، ويشعر الناس فى داخل الجزيرة وخارجها أن الإسلام قوى الجانب قوى الشوكة تدمى كل من يحاول أن ينالها بسوء .

ومن أجل هذا قرر الرسول ـ ﷺ ـ أن يبعث سريته هذه إلى الشام ، حيث قتل سفيره الحارث بن عمير الأزدى ـ رضى الله عنه ـ لتأديب ذلك المعتدى ، وغسل ما لحق بدولة الإسلام من إهانة تمثلت فى الاعتداء على سفيرها [1]

تاسعاً : يلاحظ أن الرسول ـ ﷺ ـ على رغبته فى الجهاد وقتال أعدائه لم يقد هذه المعركة وإنما اختار غيره ليقودها ، فما الحكمة من ذلك ؟

ويبدو أن هناك أكثر من حكمة من وراء ذلك :

فالوقت غير مناسب لأن يهجر رسول الله ـ ﷺ ـ حاضرة الدولة الإسلامية ويقطع تلك المسافة الشاسعة ؛ ذلك لأن القوى المعادية فى الجزيرة العربية وبخاصة فى مكة وماحولها كقريش وهوازن وثقيف لاتزال تقطر قلوبها حقداً عليه ، وتتربص به وبمن آمن معه الدوائر ، وترجو أن تصيب غرة من المسلمين ومنه ، وفى خروجه ـ ﷺ ـ من المدينة

---

(1) انظر : (صور من حياة الرسول) لأمين دويدار ص 515 ـ 516 .

وسفره الطويل إلى مؤتة باعث يستهوى هؤلاء أن يغدروا بالمسلمين ويهاجموا المدينة فى غياب قائدها وخروج جل أهلها منها ، وإذا كان الوقت فى غاية الحرج فالأولى أن يبقى رسول الله ـ ﷺ ـ القائد الرائد وثلة من المؤمنين حوله تحسباً لوقوع أى أمر مفاجئ ، هو أقدر الناس على حله وعلاجه .

ولعل الرسول ـ ﷺ ـ أراد من هذه الحملة أن يجس نبض أعدائه ، وأن يعرف مدى رد فعلهم وقدرتهم وكفاءتهم فى القتال ، فكانت السرية بدونه تؤدى هذا الغرض وتحققه دون أن يقودها رسول الله ـ ﷺ ـ ، ولم يرد رسول الله ـ ﷺ ـ أن تكون معركة حاسمة فاصلة بينه وبينهم إذ لم يأت الوقت المناسب لذلك .

ومن الحكمة أيضاً أن الرسول ـ ﷺ ـ القائد الفذ والإدارى الناجح أراد أن يوجد القيادات البديلة وأن يدربها على القيادة تدريباً مستقلاً ، تقود المعارك فى غيابه ، فتخطط وتنفذ وتواجه المشكلات المفاجئة وتفكر فى إيجاد الحلول لها دون وصاية ، أو اعتماد على تخطيطه ، فإن الرسول ـ ﷺ ـ سيفارقهم يوماً من الأيام ، ويبقوا هم من بعده يسيرون دفة الحكم ، ويقودون الجيوش ويواجهون الأعداء فى معارك طاحنة ، فلابد ـ والحالة هذه ـ أن ينالوا فى حياته من التهيئة والإعداد والدربة على القيادة حتى يستفيدوا من توجيهاته وإرشاداته بعد أن يزاولوا القيادة وتصدر عنهم اجتهاداتهم العسكرية والقيادية فى جو من الحرية والاستقلالية .

ولقد استطاع الرسول ـ ﷺ ـ بهذه الوسيلة أن يترك أكفأ القيادات العسكرية والإدارية والمالية والسياسية والاجتماعية .

ومما يجدر ذكره أن كثيراً من المسؤولين فى البلاد الإسلامية سواء كانوا حكاماً أو مسؤولين للحركات الإسلامية لايعيرون انتباهاً ولا اهتماماً لتهيئة القيادات والكفاءات التى ستخلفهم ، إذ يصر كثير من الحكام أن تكون مقاليد الأمور كلها بيده ولايفسح المجال لغيره بجانبه لتنمو مواهبه فى الحكم والإدارة والسياسة ، فيجتهد فى ذلك ، حتى وإن خالف الحاكم فى اجتهاده .

ومن الحق أيضاً أن نقول : إن بعض العاملين فى الحركات الإسلامية والذين يتصدرون العمل على وجه الخصوص تطغى شخصياتهم على العمل وتهيمن عليه ،

بحيث يتصور المسؤول أنه كل شيء ، فيظهر نفسه ولايحب أن يظهر بجانبه أحد ، بل يحاول بعضهم أن يبنى مجده على أشلاء الآخرين والإساءة إليهم ، بالنقد والتجريح ومن ثم الإحباط الذى يقتل الإبداع عندهم ، ومن ثم يخسر العمل الإسلامى طاقات وكفاءات لو استغلت لقطع شوطاً بعيداً فى تحقيق أهدافه التى ينشدها وينادى بها .

عاشراً: يلاحظ فى هذه السرية أن النبى ـ ﷺ ـ قد اختار أكثر من أمير لهذه السرية على غير عادته ، ونلمح من وراء ذلك أمراً هو أن الرسول ـ ﷺ ـ كان يتوقع قتالاً شرساً، وحشوداً ضخمة من النصارى الصليبيين ، وهذا ما كان فعلاً فقد استشهد الأمراء الثلاثة .

ومما يدل أيضاً على أن القتال سيكون شرساً وعنيفاً أن الرسول ـ ﷺ ـ قد حشد أكبر عدد ممكن من المقاتلين إذ لم يسبق له أن أعد جيشاً غازياً لأعدائه أكثر من عدد جيش مؤتة .

لقد تحقق ماكانت القيادة تتوقعه من مقاومة شديدة ، وحشود كبيرة ، فدفعت إلى المعركة خيرة رجالها وأكفأ قياداتها ومقاتليها .

حادى عشر : فى اختيار الأمراء ثلاثة دروس فى غاية الأهمية وهى أن القائد لايضن بنفسه وأقاربه وأصدقائه عن الصدام بأعدائه ، والتعرض للمخاطر من طعن وجرح وقتل .

إن على القائد حتى يكون قدوة لجنوده أن يتقدم الناس وأن يتقدم أقرباؤه كذلك فى المعامع والمعارك ويبذلون دماءهم سخية فى سبيل أهدافهم النبيلة وغاياتهم السامية ، فإذا رأى الناس هذا من القائد وأقاربه انطلقوا إلى القتال بحماس ولاقوا أعداءهم بصبر وثبات ، وإذا رأوا من القائد وحاشيته وأقاربه انهياراً وجبناً وتراجعاً فإنهم سيكونون أكثر انهياراً وتقاعساً وتراجعاً وانهزاماً .

ولهذا نجد النبى ـ ﷺ ـ فى قيادته للغزوات يكون أقرب الناس إلى العدو ، ويختار أقاربه وأصدقاءه لأصعب المهمات ، ففى غزوة بدر اختار عمه حمزة بن عبد المطلب وابن عمه على بن أبى طالب وابن عمه عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ليبارزوا قادة الشرك ويصرعوهم .

وفى هذه السرية اختار الأمير الأول زيد بن حارثة ، وهو حب رسول الله ـ ﷺ ـ نشأ فى حجره وتربى على يديه ، وكان حب الرسول ـ ﷺ ـ له شديداً ، وحبه لرسول الله ـ ﷺ ـ عظيماً ، آثره على والده وعشيرته وأقربائه ، حتى دعى عند الناس بزيد بن محمد لتبنى الرسول ـ ﷺ ـ له قبل أن ينزل الحكم فى التبنى فدعى بعد ذلك بزيد بن حارثة .

وأما الأمير الثانى فهو جعفر بن أبى طالب ابن عم رسول الله ـ ﷺ ـ وسفيره إلى النجاشى ملك الحبشة وممثل المسلمين فيها وأميرهم مدة خمسة عشر عاماً ، وحين قدم على رسول الله ـ ﷺ ـ فرح لمقدمه فى خيبر وقال : « *لا أدرى بأى يوم أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر* » .

وأما الأمير الثالث فهو عبد الله بن رواحة الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ المدافع عن رسول الله ـ ﷺ ـ والقائد لناقة الرسول ـ ﷺ ـ فى عمرة القضاء ومندوب رسول الله ـ ﷺ ـ إلى خيبر ليحرص ثمارها فيقرر حقوق المسلمين وحقوق اليهود ، ويعدل ويترفع عن تفاهة اليهود .

هؤلاء الذين اختارهم رسول الله ـ ﷺ ـ أمراء هم أحباء وأقرباء لا لمغنم وإنما لمغرم ، فهؤلاء ستتوجه لهم السهام من كل مقاتل من مقاتلى الأعداء ، وأول من يتعرض للقتل من الجيش وهكذا كان فقد استشهد هؤلاء جميعاً ، وكان فى ثباتهم واستشهادهم قدوة لإخوانهم المقاتلين فى الثبات والتحمل والصبر والجلاد والجهاد .

وإذا كان لنا من كلمة نقولها هنا : إن على الحكام والقادة والأمراء إذا أرادوا أن تحبهم شعوبهم وأن تندفع معهم لتحقيق أهدافهم فى تحرير البلاد والعباد أن يتقدموا الصفوف ، وألا يعيشوا فى أبراجهم العاجية فى حياة من الترف والسرف والمخيلة وشعوبهم تعيش فى واد آخر ، حيث العنت والمشقة والجوع والعرى والضنك ، إن هذه الشعوب ستحقد عليهم وتتمنى زوالهم ، بل تنتظر اليوم الذى تتخلص منهم فيه ، وسيكون عندها يوم سعادة وهناءة واستقرار .

وعلى قادة الحركات الإسلامية أيضاً أن يكونوا قدوة لأتباعهم ، يتقدمون الصفوف فى القتال ، ويتقدمون الصفوف فى الابتلاءات والمحن ، ويثبتون أمام المغريات وفى وجه الشدائدوالملمات ، فإن فى ثباتهم ثباتاً للجنود ، وفى انهيارهم انهياراً للجنود ، عليهم

ألا يضنوا بأنفسهم وأبنائهم وأقربائهم عن المخاطر ويقدموا أبناء الناس إليها، عليهم أن يتلقوا بصدورهم وصدور أبنائهم كل مكروه قبل غيرهم ، فإن فعلوا ذلك كان لزاماً على من يسير معهم أن يسير خلفهم وأن يمنحهم ثقته وحبه وولاءه ونصرته ، وإن هم أحجموا عن ذلك وتقاعسوا وجبنوا وأخلدوا إلى الراحة ورضوا من الغنيمة بالأياب كانوا جديرين بأن يلفظوا وأن يهجروا وأن يتخلى أتباعهم عنهم ويوسدوا الأمر إلى من يعيش معهم ولهم ويؤثرهم فى المغنم ويفديهم بنفسه وماله وولده فى المغرم .

ثانى عشر : نلاحظ أن جعفر بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ قد اعترض على تقديم زيد بن حارثة ـ رضى الله عنه ـ وأن النبى ـ ﷺ ـ لم يتجاوب مع اعتراضه ولم يستجب له ، ولم يرجع عن اختياره ، بل أصر عليه قائلاً لجعفر ـ رضى الله عنه ـ : *«امض فإنك لا تدرى أى ذلك خير»* .

والذى انقدح فى روعى وفى نفسى أن تقديم النبى ـ ﷺ ـ لزيد بن حارثة يدل على أن اعتبار عنصر الكفاءة أقوى العناصر فى تقديم الناس للإمارة واختيارهم لها ، كما يدل على أن زيد بن حارثة أجدر بالإمارة وقيادة الجيش من جعفر بن أبى طالب ـ رضى الله عنه وعن زيد ـ لخبرته فى فنون القتال وقيادته الناجحة لسرايا عديدة ، بل إن السيرة تخبرنا أنه قلما يخرج زيد بن حارثة إلا ويختاره الرسول ـ ﷺ ـ أميراً عليها .

عن سلمة بن الأكوع ـ رضى الله عنه ـ قال : غزوت مع النبى ـ ﷺ ـ سبع غزوات وغزوت مع زيد بن حارثة سبع غزوات يؤمره رسول الله ـ ﷺ ـ علينا[1] قال الحافظ ابن حجر : وقد تتبعت ماذكره أهل المغازى من سرايا زيد فبلغت سبعاً كما قال سلمة : أولها فى جمادى الآخرة سنة خمس قبل نجد فى مائةراكب ، والثانية فى ربيع الآخر سنة ست إلى بنى سليم ، والثالثة فى جمادى الأولى منها فى مائة وسبعين يلقى عيراً لقريش ، والرابعة فى جمادى الآخرة منها إلى بنى ثعلبة ، والخامسة إلى مسمى فى خمسمائة إلى جذام بطريق الشام كانوا قطعوا الطريق على د حية وهو راجع من عند هرقل ، والسادسة إلى وادى القرى ، والسابعة إلى ناس من بنى فزارة ، وكان خرج قبلها فى تجارة فخرج

(1) انظر : شرح المواهب 2/ 268 قال : رواه أبو مسلم الكحى والإسماعيلى وأبو نعيم والطبرانى بهذا اللفظ وهو فى الصحيح بإبهام عدد غزوه مع زيد .

عليه ناس منهم فضربوه ، وأخذوا مامعه فجهزه إليهم فأوقع بهم (1)

ولقد شهد له الرسول ـ ﷺ ـ بجدارته للإمارة وأقسم على ذلك ، فقد روى ابن أبى شيبة فى مصنفه عن هشام بن عروة عن أبيه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قطع بعثاً قبل موته وأمر عليهم أسامة بن زيد ، وفى ذلك البعث أبو بكر وعمر قال : فكان أناس من الناس طعنوا فى ذلك لتأمير رسول الله ـ ﷺ ـ أسامة عليهم .

فقام رسول الله ـ ﷺ ـ فخطب فى الناس فقال : « *إن أناساً منكم طعنوا علىَّ فى تأمير أسامة وإنما طعنوا فى تأمير أسامة كما طعنوا فى تأمير أبيه ، وأيم الله إن كان لخليقاً للإمارة ، وإن كان لمن أحب الناس إلىَّ وإن ابنه لأحب الناس إلىَّ من بعده ، وإنى لأرجوأن يكون من صالحيكم فاستوصوا به خيراً* »(2)

ويؤخذ من ذلك أيضاً : أنه ليس كل اعتراض يكون صحيحاً ، فقد يقوم الظن فى ذهن صاحبه على رجحانه وصحته وفى واقع الحال يكون غير ذلك

إن الذى يلفت النظر ويجلب الانتباه رغبة جعفر بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ فى ألا يتقدم عليه زيد بن حارثة فما تفسير ذلك ؟

أقول : إن اعتراض جعفر على زيد ورغبته ألايتقدم عليه ويفهم من هذا رغبة جعفر أن يكون الأمير الأول للسرية ليس الباعث على ذلك تشوقاً للإمارة المطغية ، ولا حباً للمسؤولية الفارغة ، والزعامة الجوفاء ، بل كان حريصاً ـ كما أثبتت أحداث المعركة ـ أن يتولى النكاية فى العدو والإثخان فيهم ، وكان حريصاً على نيل الشهادة ، لقد كان ـ رضى الله عنه ـ قاب قوسين أو أدنى من الموت ، بل الموت أقرب إليه من شراك نعله .

ثالث عشر : الدعوة إلى الإسلام هدف من أهداف الجهاد : لقد كان النبى ـ ﷺ ـ يوصى الجيوش التى يرسلها بدعوة الناس إلى الإسلام وتناسى الجرائم التى اقترفوها إن هم أجابوا إلى دعوة التوحيد ودخلوا فى الإسلام وافرين .

لقد اقترف الملك الغسانى النصرانى الصليبى وقومه جرائم فى حق المسلمين ومنها

---

(1) شرح المواهب 2 / 268 .

(2) المصنف لابن أبى شيبة 12 / 139 رقم الحديث 12356 .

الاعتداء على حياة سفير رسول الله ـ ﷺ ـ الحارث بن عمير الأزدى ـ رضى الله عنه ـ ومع هذا فقد أمرهم رسول الله ـ ﷺ ـ أن يتناسوا آلامهم ويضمدوا جراحهم ، ويفضلوا دعوة الناس إلى الإسلام على الانتقام وتأديب المعتدين .

رابع عشر : الاستعانة بالله من أهم أسباب النصر والتوفيق فى قتال العدو : هذا ماأرشد النبى ـ ﷺ ـ أمراء الجيش إليه فى خطابه لهم

إن المسلم المجاهد بحاجة إلى عون الله ونصره وتأييده ، وعليه أن يستغيث بالله ويرفع أكف الضراعة إلى الله ـ عز وجل ـ طالباً عونه وتوفيقه .

والاستعانة بالله والاستغاثة به تسكب فى قلب المجاهد الأنس والأمان والاطمئنان كما تبث الأمل فى النفوس ، فهو مصدر القوة والمنعة والعزة . قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ .

• مايستفاد من وصايا الرسول ـ ﷺ ـ :

1 ـ يحسن بالقائد أن يزود جنده وأمراءه بالتوجيهات العسكرية والنصائح الأخلاقية ويبين لهم الآداب العسكرية فى القتال ، ويحضهم على الالتزام بها ، كما فعل رسول الله ـ ﷺ ـ فى وصاياه للسرايا وبخاصة سرية مؤتة .

2 ـ تقوى الله ومخافته رأس الحكمة وعامل من عوامل النصر ينبغى على الجيش الإسلامى أن يراعيها وأن يتخلق بها وينبغى على المربين أن يعمقوها فى نفوس الناس وبخاصة نفوس المجاهدين .

وكما أن التقوى عامل من عوامل النصر ، فإن المعاصى عامل من عوامل الهزيمة ، لأن المعاصى تغضب الرب وتقسى القلب وتحبط العمل ، ولاغرو إذاً أن نسمع قول عمر فى وصية من وصاياه للجيش الإسلامى إنما تتغلبون على عدوكم بطاعتكم لله ومعصيتهم له ، فإن عصيتموه فقد تساويتم فى المعصية والغلبة للأقوى .

ولو اتقى الله ـ عز وجل ـ قادتنا وحكامنا فى حروبهم مع أعدائنا من يهود وصليبيين لكان النصر حليفنا فى هذه الحروب ، ولكن تقوى الله كانت بعيدة عنهم كل البعد ، قد غيبوها من حياتهم العامة والخاصة ، بل شجعوا المعاصى ونشروها فى كل مكان وفى جميع وسائل الإعلام من إذاعة وصحافة وتلفاز ، واعتبروها أمراً هاماً من أمور الحضارة والرقى والتقدم .

3 ـ رضوان الله غاية القتال فى الإسلام : إن المجاهد المسلم ينبغى أن يكون هدفه من جهاده وقتاله لأعدائه هو رضوان الله ـ عز وجل ـ ، ليرفع رايته ويحقق ألوهيته ، فلايقاتل لمغنم ولايقاتل رياء وطلباً للجاه والسمعة ولايقاتل حمية . فإن هذه الأمور ليست فى سبيل الله وتحرم صاحبها من الأجر .

عن أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ قال : سئل رسول الله ـ ﷺ ـ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياءً ، فأى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال : «*من قاتل*

لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله» . (1)

نعم ينبغى أن يكون الجهاد الحق مبرءاً من حظوظ النفس وعجبها وغرورها ومن حب الجاه والتشوق للزعامة والوجاهة والرياسة .

ومن الجدير بالذكر أن الإنسان إذا عاش لهذه الغاية لايظلم أحداً ولايسفك دم أحد ظلماً ، ولايغدر ولايخون ، ولايستولى على أموال المعاهدين بالباطل ؛ لأن هذه الأمور كلها تتنافى مع الغاية التى يقاتل من أجلهاوهى رضوان الله ، بل إن هذه الأمور تسخط الله وتستوجب عقوبته .

4 ـ الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها خيانة وحرام : يؤخذ من نهى الرسول ـ ﷺ ـ المقاتلين عنها ، والأصل فى النهى يفيد الحرمة مالم ترد قرينة تصرفه إلى غير ذلك ، بل جاءت النصوص الأخرى تؤكد حرمة ذلك ، أما نهى الرسول ـ ﷺ ـ فقد جاء فى قوله : *«لاتغلوا»*

وأما التأكيد على حرمة الغلول فقوله تعالى : ﴿**وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**﴾ (2)

ولقد أخبر رسول الله ـ ﷺ ـ عن مصير الذى غل فأخذ شيئاً من الغنائم بأنه يشتمل بها فى نار جهنم .

5 ـ الغدر حرام : هذا خلق إسلامى نبيل ، ومبدأ إسلامى ثابت ، لايحل لمسلم أن يغدر بغيره حتى ولو كان عدوا ؛ لأن الغدر خيانة ، والإسلام يحرم ذلك قال تعالى : ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ**﴾(3)

وفى علاقة المسلمين مع عدوهم قد يبدو لبعض المسلمين أن الغدر بالعدو يحقق نصراً ومصلحة فيدفعه ذلك إلى الغدر وهذا وهم خاطئ ، وتصرف حرام لأن النبى ـ ﷺ ـ نهى عن الغدر فقال : *«ولاتغدروا »* ، وعد الغدر من صفات المنافقين فقال : *«آية المنافق*

(1) رواه الجماعة ، نيل الأوطار 7 / 226.
(2) آل عمران : 161 .
(3) الأنفال : 58 .

ثلاث : *إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر* »[1] .

وينبغي أن يكون واضحاً هنا أن الخدعة فى الحرب غير الغدر ، فإن الغدر أن تعاهده على وقف القتال ـ مثلاً ـ فترة من الزمن ، وتغدر به فتفاجئه بالقتال وهو مطمئن للعهد الذى بينك وبينه ، أما الخدعة فتكون عند إعلان حالة العداء والحرب فإن الإسلام يشرع للمسلم بل ويستحب له أن يخدع عدوه كأن يستدرجه لضربه أو أن يفاجئه فى زمان لايتوقعه أو يحشد له حشداً لاقبل له به ، أو يستخدم وسيلة لايعرفها ولم يعد نفسه لمواجهتها ، فهذا كله يقع تحت قول الرسول ـ ﷺ ـ : « *الحرب خدعة* » .

6 ـ المثلة بالقتلى ممنوعة شرعاً : أخذ هذا من نهى النبى ـ ﷺ ـ فى وصاياه التى ذكرناها سابقاً ، فقد عد النبى ـ ﷺ ـ ذلك خروجاً عن اللياقة والأدب ، وحذر منه ، ونهى عنه .

7 ـ لايجوز قتل الأطفال والنساء ورجال الدين والمدنيين الذين لايشاركون فى القتال : أما إذا شارك بعضهم فى القتال برأى أو بجهد فإنه يقتل ولو كان رجل دين أو امرأة أو شيخاً ، فإن النبى ـ ﷺ ـ أمر بقتل امرأة يهودية شاركت فى القتال ، كما أقر قتل دريد بن الصمة فى غزوة حنين وقد كان شيخاً هرماً لايستوى على ظهر ناقته قد بلغ من العمر مائة وستين سنة ؛ لأنه شارك برأيه فى القتال فى أكثر من موطن فى هذه الغزوة .

8 ـ المحاربون مخيرون بين الإسلام والجزية والقتال : هذا مانص عليه رسول الله ـ ﷺ ـ فى وصاياه ، ويؤخذ من هذا أن الإسلام حريص على هداية الناس وتقديم الخير لهم لاعلى جباية أموالهم وسفك دمائهم ، فإن أبوا ذلك فلا يجبرون على اعتناق الإسلام ، بل يقرهم الإسلام على البقاء على دينهم وإن كان باطلاً محرفاً وأن يعيشوا فى المجتمع الإسلامى ويحدد لهم حقوقاً ويوجب عليهم واجبات ، فإن أبوا ذلك أيضاً فهم أعداء مناوئون لابد من كسر شوكتهم وتخضيدها حتى لايكونوا خطراً على الدولة الإسلامية .

9 ـ الهجرة إلى دار الإسلام واجبة : أخذ هذا مما تقدم فى وصايا النبى ـ ﷺ ـ والحق أن الذى يضن بنفسه وماله على المجتمع الإسلامى فلايهاجر إليه ليس له الحقوق التى يتمتع

---

(1) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى ـ الجامع الصغير وهو متن فيض القدير 1 / 63 .

بها من هاجر إلى المجتمع الإسلامى وأسهم فى بنائه بنفسه وماله وجهده وهذا يتفق مع منطق العدل فى الشرع .

إن المجتمع الإسلامى بحاجة إلى طاقات المسلمين المالية والمعنوية والإعلامية وغيرها ، والمسلمون مدعوون أينما كانوا لبناء هذا المجتمع وتقويته حتى يكون قادراً على الوقوف فى وجه أعدائه الطامعين وهذا أمر واجب ؛ لأن نصرة المسلمين واجبة ، وخذلانهم حرام ، وفى الوقت ذاته إن المسلم حين يعيش فى المجتمع الإسلامى ، تتوفر له الحرية فى عبادته وتحركه وتنقله وعمله ونشاطه الدعوى والتربوى ، أما حين يعيش فى مجتمع معاد فإنه سيتعرض لكثير من المضايقات منها أنه سيخضع لهذا النظام الكافر الذى يطبق قوانين الكفر ويربى الناس عليه ويشيع كثيراً من العادات القبيحة فى المجتمع ، مما يجعل المسلم وأبناء المسلم ليسوا فى منأى عن هذه العادات والتأثر بها ، فيدفع فى كل يوم يعيش فيه فى المجتمع الجاهلى ضريبة من ماله ، وضريبة من دمه ، وضريبة من جهده ، يرسخ بنيانه ويعلى أركانه .

ولهذا عد الله ـ تبارك وتعالى ـ القادرين على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ولم يهاجروا إلى المجتمع الاسلامى ظالمين يستحقون العقوبة ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴿٩٧﴾ إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾ (1) .

10 ـ من آداب القتال فى الإسلام ، عدم الاعتداء على المزروعات بالإتلاف لغير حاجة أو ضرورة قتالية ؛ ذلك لأن ضرورة القتال قد تستدعى شيئاً من هذا ، والضرورة تقدر بقدرها ، وقد أمر رسول الله ـ ﷺ ـ بقطع بعض أشجار النخيل لبنى النضير ليجبرهم على الاستسلام فيقطعوا الأمل من المقاومة ، فلم يكن الهدف هو إتلاف النخيل بقدر ما هو إرغام العدو على إنهاء القتال و الاستسلام .

11 ـ ومن آداب القتال أيضاً ، عدم الاعتداء على المبانى بالهدم وغيره إلا إذا

---

(1) النساء : 97 ، 98 .

دعت ضرورة القتال ذلك ، أما بدون ضرورة فلا يقبل من مقاتل شيء من هذا ؛ لأن هؤلاء المقاتلين سيكونون بعد قليل من رعايا الدولة الإسلامية التى يجب عليها أن توفر لهم المسكن والملبس والمأكل ، فإذا هدمت بيوتهم لغير ضرورة القتال ، فقد كلفنا الخزينة فى الدولة الإسلامية أموالاً باهظة وقد كنا فى غنى عن ذلك لو أحسنا التصرف .

السير إلى مؤتة

السير إلى مؤتة

الرسول والمسلمون يودعون الجيش الإسلامى

ولما تجهز الجيش الإسلامى وأتم استعداده ، توجه رسول الله ـ ﷺ ـ والمسلمون يودعون الجيش ويرفعون أكف الضراعة ـ لله عز وجل ـ أن ينصر إخوانهم المجاهدين ، لقد سلموا عليهم وودعوهم بهذا الدعاء : « دفع الله عنكم وردكم صالحين غانمين »(1) .

ولما ودع الناس عبد الله بن رواحة وسلموا عليه بكى ، وانهمرت الدموع من عينيه ساخنة غزيرة فتعجب الناس من ذلك وقالوا : مايبكيك ياابن رواحة ؟ فقال : والله مابى حب الدنيا وصبابة ، ولكن سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ (2) ، فلست أدرى كيف بى بالصدر بعد الورود ، فقال لهم المسلمون : صحبكم الله ودفع عنكم ، وردكم إلينا صالحين ، فقال عبد الله بن رواحة :

لكننى أسأل الرحمن مغفرة ❖ وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدى حران مجهزة ❖ بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقولوا إذا مروا على جدثى ❖ أرشده الله من غاز وقد رشدا

وودع رسول الله ـ ﷺ ـ عبد الله بن رواحة فقال عبد الله بن رواحة يخاطب رسول الله ـ ﷺ ـ بهذه الأبيات :

يثبت الله ماآتاك من حسن ❖ تثبيت موسى ونصراً كالذى نصروا
إنى تفرست فيك الخير نافلة ❖ فراسة خالفتهم فى الذى نظروا
أنت الرسول فمن يحرم نوافله ❖ والوجه منه فقد أزرى به القدر

---

(1) انظر : السيرة النبوية لابن هشام 2 / 373 وطبقات ابن سعد 2 / 128 ومغازى رسول الله ـ ﷺ ـ ص204
(2) مريم : 71 .

ولما انصرف رسول الله ـ ﷺ ـ قال عبد الله بن رواحة :

خلف السلام على امرئ ودعته في النخل غير مودع وكليل

هذا وداع ابن رواحة وماكان منه كما روته كثير من كتب السيرة النبوية (1)

• فضل الجهاد فى سبيل الله :

روى الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ في مسنده بإسناده إلى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : « *بعث رسول الله ـ ﷺ ـ ابن رواحة فى سرية فوافق ذلك اليوم جمعة ، فقدم أصحابه وقال : أتخلف فأصلى مع النبى ـ ﷺ ـ الجمعة ثم ألحقهم ، قال : فلما رآه ـ ﷺ ـ قال : مامنعك أن تغدو مع أصحابك ؟ قال : اردت أن أصلى معك الجمعة ، قال : فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : لو أنفقت مافى الأرض ماأدركت غدوتهم* » (2)

• الجيش الإسلامى يصل إلى معان :

ولما وصل الجيش الإسلامى إلى معان من أرض الشام وهى الآن محافظة من محافظات الأردن بلغه أن النصارى الصليبيين من عرب وعجم قد حشدو حشوداً ضخمة لقتالهم ، إذ حشدت القبائل العربية مائة ألف صليبى من لخم وجذام والفين وبهراء وبلى وعينت عليهم قائداً هو مالك بن رافلة وحشد هرقل مائة ألف نصرانى صليبى من الروم فبلغ جيشهم مائتى ألف مقاتل ، مزودين بالسلاح الكافى يرفلون فى الديباج لينبهر المسلمون بهم وبقوتهم (3) .

لقد أقام المسلمون فى معان يومين يتشاورون فى التصدى لهذا الحشد الضخم فقال بعضهم : نرسل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فى المدينة نخبره بحشود العدو فإن شاء أمدنا بالمدد وإن شاء أمرنا بالقتال (4) .

---

(1) انظر : مغازى رسول الله لعروة بن الزبير ص 204 ـ 205 والسيرة النبوية لابن هشام 2 / 374 وتاريخ الخميس 2 / 70 والسيرة الحلبية 2 / 787 والسيرة البوية والآثار المحمدية 2 / 68 وزاد المعاد 3/ 381 ـ 382 .

(2) انظر : الفتح الربانى 21/ 138 ومسند ابن أبى شيبة 14 / 512 وكنز العمال 10 / 561 رقم الحديث 30245 .

(3) انظر : حياة سيد العرب 3 / 177 وشرح المواهب اللدنية 2 / 271 .

(4) انظر : السيرة النبوية لابن هشام 2/ 375 وتاريخ الطبرى 3 / 107 ومغازى رسول الله لعروة ص 205 والطبقات الكبرى لابن سعد 2 / 129 وشرح المواهب اللدنية 2 / 271 وعيون الأثر 153 ـ 154 وزاد المعاد 3 / 382 والدرر ص 154 وجوامع السيرة ص 174 .

أما عبد الله بن رواحة ـ رضى الله عنه ـ فقد رأى غير ذلك فقال : ياقوم ، والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة ، ومانقاتل الناس بعدد ولاقوة ولاكثرة ، مانقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين : إما ظهور وإما شهادة فقال الناس : قد ـ والله ـ صدق ابن رواحة(1)

● مايستفاد من ذلك :

أولاً : يستحب وداع الجيش الغازى : استنبطنا من هدى رسول الله ـ ﷺ ـ وهدى أصحابه فى هذه السرية ، فقد خرج وأصحابه يودعون جيش مؤتة .

ويلوح لى أن وراء ذلك حكمة أو أكثر ، ولقد انقدح فى روعى أن هذا الوداع له أثره الفعال فى نفوس الغزاة ، إذ يقوى عزائمهم ، ويشحذ هممهم أن يودعهم القائد الملهم محمد بن عبد الله رسول الله ـ ﷺ ـ ، إنه مامن شك أن وداع الرسول قد شحنهم شحنة إيمانية قوية ، ورفع معنوياتهم القتالية .

وهذا الشعب الذى اجتمع يودعهم ويتمنى لهم من قلبه النصر المؤزر لهم ، قد ترك فى نفوسهم أثراً كبيراً ، فهم الذين يؤملون عليهم الثأر لكرامة سفير رسول الله ـ ﷺ ـ ، ويؤملون عليهم الحفاظ على هيبة الدولة الإسلامية ، وهم يرقبون ويترقبون ساعة عودتهم وهم مكللون بأكاليل النصر .

وحين يستشعر الجند هذا ينطلقون باندفاع وإصرار لقتال الأعداء ويثبتون فى ساحات الوغى ؛ ليحققوا آمال الأمة فيهم .

ثانياً : استحباب الدعاء للمجاهدين : هذا مافعله شعب المدينة وأقره رسول الله ـ ﷺ ـ ، فقد علمت أنهم دعوا لهم الله بالصلاح والنصر .

والدعاء للمجاهدين من أفضل المساعدات القوية المؤثرة التى يقدمها غير المقاتلين للمجاهدين ، إذ الدعاء سلاح من أقوى الأسلحة وعامل من عوامل النصر على العدد ، لاسيما وقد ندب الله إليه فى وقت الرخاء والشدة ، فقال سبحانه : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي

(1) انظر : السيرة النبوية لابن هشام 2/ 375 ـ 376 وتاريخ الطبرى 3/ 107 والسيرة الحلبية 2/ 787 والسيرة النبوية لابن كثير 3/ 458 ـ 459.

عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(1)

وفى دعاء الشعب للمجاهدين فائدة أخرى ، هذه الفائدة تتلخص فى أن هذا الشعب يعيش قضية المجاهدين ويتضامن معهم ويتعاطف ، فيشاركهم المشاعر ، ويعبر عن هذا التعارف والتراحم والتعاطف برفع أكف الضراعة إلى الله جلت قدرته ، وعزت عظمته بالدعاء الحار بأن ينصر إخوانهم المجاهدين وأن يردهم سالمين غانمين مأجورين .

ومما يجدر ذكره أن المسلمين فى هذه الأيام يغفلون عن هذا السلاح الخطير ، فلا يكثرون من الدعاء لإخوانهم المجاهدين ولايلحون فى الدعاء آناء الليل وأطراف النهار فى السر والعلن ، والأصل دوام الدعاء واستمراره مع الإخلاص من الداعين ، والله ـ عز وجل ـ يستجيب لدعاء الصالحين ، وييسر لعباده المجاهدين من أسباب النصر مالايخطر ببال واحد منهم ولا من غيرهم

وفى هذا المقام أذكر أخى القارئ بالدعاء للمجاهدين فى فلسطين ، والمجاهدين فى أفغانستان ، والمجاهدين فى كل مكا ن على وجه المعمورة ، كما أذكر بالدعاء للدعاة أن يشرح صدورهم للحق وأن يعينهم على حمله والثبات عليه .

ثالثاً : يشرع قول الشعر والاستماع إليه : فقد قرض الصحابى الجليل عبد الله بن رواحة الشعر بحضرة رسول الله ـ ﷺ ـ ولم ينكر عليه الرسول ـ ﷺ ـ ، إن الشعر المنهى عنه هو الشعر الذى قيل فيه وفى أصحابه : ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾ (2)

أما الشعر إذا كان رسالة خير، نبيل المقصد والغاية ، فهو ممدوح وأهله كذلك ، وفي هذا النوع من الشعراء قال الله تعالى : ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ (3)

وماشعر ابن رواحة ـ رضى الله عنه ـ إلا من هذا القبيل ، نبيل المقصد والغاية ، مملوء حكمة ونصحاً وإرشاداً .

(1) البقرة : 186 .

(2) الشعراء : 224 ـ 226 .

(3) الشعراء : 227 .

رابعاً : **نلمح من شعر عبد الله بن رواحة ـ رضى الله عنه ـ رثاء نفسه** : وهذا لابأس به وفى الوقت ذاته نجد شعره دعوة صريحة لكل الناس أن يسلكوا طريق الجهاد ، طريق الشهادة ، وهذا هو طريق الهداية .

تأمل قوله ـ رضى الله عنه ـ :

حتى يقال إذا مروا على جدثى ❖ ياأرشده الله من غاز وقد رشدا .

خامساً : **جواز تمنى الشهادة** : ففى الأبيات التى نطق بها عبد الله بن رواحة يظهر واضحاً وجلياً تمنى عبد الله بن رواحة الشهادة ، وهذا ليس من قبيل تمنى الموت المنهى عنه ، فالأخير نابع من ضيق فى النفس وسآمة فى الحياة ، وملل من الظروف ، ولهذا نهى الإسلام عنه فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « *لا يتمنين أحدكم الموت ولكن ليقل : اللهم أحينى ماكانت الحياة خيراً لى ، وامتنى ماكان الموت خيراً لى* » .

أما طلب الشهادة فممدوح شرعاً ، كما تمناها ابن رواحة فى الشعر الذى أنشده فى حضرة رسول الله ـ ﷺ ـ .

سادساً : **رأس الحكمة الخوف من عذاب الله** : تأمل معى موقف الأمير الأنصارى عبد الله بن رواحة ـ رضى الله عنه ـ ، كيف تأثر عند سماع آية من كتاب الله تتحدث عن النار وجحيمها ؟ ، فذرفت عيناه الدموع الغزيرة ، وهذا يدل على رقة قلب ابن رواحة وشفافية روحه ، ومدى تأثره عند سماع القرآن أوتلاوته ، وهذه خصلة من أفضل الخصال الحميدة التى يتجلى بها العارفون لربهم ، وهى خصلة تحمى صاحبها من النار وتحرم على جسمه شدة فيحها وتدخله الجنة حيث فيها مالاعين رأت ولاأذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر ، .

إن العين التى تدمع من خشية الله وخشية عذابه لاتمسها النار ، كما جاء فى الحديث : « *عينان لاتمسهما النار : عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس فى سبيل الله* »(1)

وابن رواحة بكت عيناه وسهرتا فى سبيل الله .

---

(1) رواه أبو يعلى والضياء عن أنس بإسناد صحيح ، الجامع الصغير وهو متن فيض القدير 4/ 368 .

سابعاً : الشهادة طريق النجاة من عذاب الآخرة : هذا ماصرح به عبد الله بن رواحة ـ رضى الله عنه ـ فى سفره فى حضرة الرسول ـ ﷺ ـ وأقره عليه ، ليس هذا فحسب ، بل قد نطقت الأحاديث الصحيحة الصريحة به ، فالشهيد يغفر له عند أول دفقة من دمه ، ويشفع فى سبعين رجلاً من أهله (1) ، ويلقى من التكريم والحفاوة ورفعة المنزلة مايغبطه عليه كثير من الناس ، بل الشهيد نفسه يتمنى أن يعود إلى الدنيا ليقاتل ويقتل عدة مرات لما يرى وينال من الدرجات العلا فى الجنة .

روى الإمام الترمذى ـ رحمه الله ـ أن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ سئل عن قوله تعالى : ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾(2) فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك فأخبرنا أن أرواحهم فى طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ، وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش ، فاطلع إليهم ربك اطلاعه فقال : هل تستزيدون شيئاً فأزيدكم ؟ قالوا : ربنا ومانستزيد ونحن فى الجنة ، نسرح حيث شئنا .

ثم اطلع إليهم ثانية فقال : هل تستزيدون شيئاً فأزيدكم ؟ ، فلما رأوا أنهم لم يتركوا قالوا : تعيد أرواحنا فى أجسادنا حتى نرجع إلى الدنيا فنقتل فى سبيلك مرة أخرى . (3)

وفى رواية ثانية عن ابن مسعود زيادة وهى : وتقرئ نبينا السلام وتخبره عنا أنا قد رضينا ورضى عنا(4) .

ثامناً : جواز الثناء على أهل الفضل ومدحهم : يستنبط هذا من مدح عبد الله بن رواحة لرسول الله ـ ﷺ ـ والثناء العاطر عليه ، كان ذلك فى حضرة الرسول ـ ﷺ ـ فلم ينكر عليه ، بل أقره على ذلك .

وأريد أن أستدرك هنا فأقول : ليس هذا الجواز على إطلاقه ، بل هو مقيد بعدم بعث العجب والغرور فى نفس الممدوح ، وعليه ، فلو علم المادح أن مدحه يبعث فى نفس الممدوح العجب والغرور فإنه يحرم عليه مدحه والثناء عليه فى وجهه ؛ لأن ذلك سبب

---

(1) هذا حديث رواه أبو داود فى سننه 2 / 15 .

(2) آل عمران : 169 .

(3) سنن الترمذى بعارضة الأحوذى 11 / 139 ـ 140 قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(4) سنن الترمذى بعارضة الأحوذى 11 / 140 قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

فى طغيانه وتكبره ، وهو بمثابة قطع عنقه وإهلاكه .

ومن هنا زجر رسول الله ـ ﷺ ـ المداحين الذين يبعثون العجب فى نفس من يمدحونه ، وأمر بأن نحثو فى وجوه المداحين التراب ؛ زجراً لهم وردعاً .

أما رسول الله ـ ﷺ ـ فليس مظنة التهمة ، فهو المعصوم المتواضع المبرأ من هذه النقائص فيستحب لجميع الناس أن يمدحوه ، بل مدحه والثناء عليه من أحب الأعمال التى يتقرب بها العبد إلى الخالق سبحانه .

تاسعاً : الانشغال بالجهاد والسير إلى الغزو أفضل من الصلاة مع الرسول ـ ﷺ ـ : إنه مامن شك أن الصلاة فى مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ لها فضل والصلاة خلف رسول الله ـ ﷺ ـ لها فضل آخر ، وثواب عظيم ، ولكن هذين الفضلين لايعدلان السير فى الغزو .

لقدأنكر رسول الله ـ ﷺ ـ على عبد الله بن رواحة ـ رضى الله عنه ـ أن يتأخر عن الجيش ولو لصلاة الجمعة خلف رسول الله ـ ﷺ ـ وفى مسجده النبوى ، بل صرح بصريح العبارة أن ذلك لايعدل فى ثوابه السير مع الجيش فقال له : « *لو أنفقت مافى الأرض ماأدركت غدوتهم* »

وهذا فهمناه من أن إنفاق مافى الأرض من مال فى سبيل الله له ثواب جزيل يفوق الصلاة فى المسجد النبوى ، وعلى جلالة هذا الثواب فإنه لايعدل السير خطوات مع الجيش الإسلامى ، فيكون السير إلى الغزو أفضل من الصلاة مع الرسول ـ ﷺ ـ وفى مسجده .

عاشراً : قوة الاستخبارات العسكرية الإسلامية : إن هذه الاستخبارات كانت فى غاية اليقظة والحذر ، ترصد حركات الأعداء وتراقب سيرهم ، ولقد استطاعت أن تحصل على معلومات دقيقة تتعلق بتحرك الجيش النصرانى الصليبى ، وأن تنقل هذه المعلومات إلى القيادة ؛ لتتدبر الأمر وتتخذ القرار المناسب وفق المعطيات الجديدة والمعلومات الوثيقة .

إن هذه المعلومات تدل على أن وسائل الاستخبارات العسكرية الإسلامية قوية وفاعلة ونشطة وشاملة فى مراقبة العدو وحشوده .

حادى عشر : استخبارات العدو نشطة : ومن الحق أن يقال أيضاً : إن الذى يدرس

الأحداث يدرك أيضاً أن استخبارات العدو العسكرية كانت قوية ونشطة ، لم تغفل عن مراقبة الجيش الإسلامى وجمع المعلومات عنه ، ومن ثم التوصية بأن يحشد له أضعاف أضعاف قوته .

ولو كانت هذه الاستخبارات غير نشطة وغير فاعلة لتمكن الجيش الإسلامى من مفاجأة هؤلاء الأعداء وتوجيه ضربة قوية تهدم أركانهم وتزلزل بنيانهم .

ثانى عشر : إن مما يلفت النظر حشد هذه الحشودات الضخمة من النصارى الصليبيين العرب والنصارى الصليبيين الروم : فلم كان ذلك ؟ وبم يفسر ذلك ؟

أحسب أن ذلك يعود إلى أسباب منها:

1 ـ إن دولة الروم وعملاءها النصارى العرب قد بلغتهم أنباء انتصارات المسلمين فى الجزيرة العربية وبخاصة انتصاراتهم على عدو خبيث لئيم ، هم يهود بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة ، ويهود خيبر ، وهذا يستدعى أن يحسب الروم لهؤلاء المسلمين ألف حساب ، فهم ليسوا سذجاً وليسوا بسطاء .

2 ـ الروح المعنوية العالية فى القتال التى كان يتمتع بها المقاتل المسلم ، وفى الوقت ذاته ضعف الروح المعنوية عند المقاتل النصرانى ، وحتى يتعوض هذا الفارق لابد من حشد الأعداد الضخمة من أصحاب الروح المعنوية الضعيفة ؛ لتتصدى للعدد القليل من أصحاب الروح المعنوية العالية فى القتال .

3 ـ لقد رأت قيادة الأعداء أنها فرصة ثمينة أن تنفرد بهذا الجيش القليل وتحشد عشرات أضعافه حتى تسحقه وتبيد خضراءه ، فتحطم بذلك معنويات المسلمين ، وتقطع آمالهم فى غزو العالم الصليبى فيما بعد .

ثالث عشر : وأمرهم شورى بينهم : إن الإسلام يرفض الاستبداد بكل أنواعه ، ويوجب العدل من الحاكم والطاعة من الرعية ، والشورى بين الحاكم والمحكوم ، إنه يربى أتباعه على الشورى والالتزام بها حتى تصبح خلقاً اجتماعياً لايفارق أهله فى حياتهم مهما كانت الظروف والأحوال .

ولقد علمنا رسول الله ـ ﷺ ـ كيف تكون الشورى ، وكيف تمارس الشورى فى مواطن كثيرة من غزواته وسيرته ـ ﷺ ـ ، وفى هذه السرية نجد هذا الدرس بيناً فى نفوس

أصحابه وأتباعه فى غيابه ، إذ وقفوا يتشاورون فى الموقف العسكرى بعد بلوغهم حشود النصارى الصليبيين الضخمة .

رابع عشر : قوة الروح المعنوية العالية عند المسلمين : لقد كان المسلمون فى هذه السرية يتمتعون بروح معنوية عالية فى القتال ، مع أن عددهم قليل ، وعدد عدوهم ضخم جداً وهذا لم يفت فى عضدهم ، فلم تلن لهم قناة ، ولم تهن لهم عزيمة ، فبمجرد سماعهم لقول عبد الله بن رواحة الذى ذكرهم بالغاية من خروجهم وجهادهم والنتائج المترتبة على ذلك إما النصر وإما الشهادة استجابوا على الفور وتدافعوا للقتال وقالوا : صدق ـ والله ـ ابن رواحة .

الجيشان يقتتلان

الجيشان يقتتلان

لقد تابع الجيش الإسلامى سيره بحماس بعد أن سمع رأى عبد الله بن رواحة ـ رضى الله عنه ـ حتى التقى مع جيش النصارى الصليبيين فى قرية مؤتة بقيادة زيد بن حارثة ـ رضى الله عنه ـ

لقد عبأ المسلمون أنفسهم فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بنى عذرة يقال له : قطبة بن قتادة ، وجعلوا على ميسرتهم رجلاً من الأنصار يقال له : عباية بن مالك .

ولقد بدأ القتال من أول يوم عنيفاً وشرساً ، واستمر على هذه الحالة من العنف والشراسة سبعة أيام ، أبدى المسلمون قادة وجنداً بطولات رائعة ، وشجاعة فائقة ، وتضحية وإقداماً أثار إعجاب الأعداء والأصدقاء ، وحطم الروح المعنوية فى القتال لدى الأعداء . وكان فى مقدمة الذين أبلوا بلاءً حسناً أمراء الجيش الثلاثة ، زيد بن حارثة وجعفر ابن أبى طالب وعبد الله بن رواحة ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ .

• استشهاد الأمراء الثلاثة :

1 ـ **استشهاد زيد بن حارثة** (1) : لقد كان ـ رضى الله عنه ـ أول الأمراء فى هذه السرية ، حمل الراية ستة أيام يقاتل أعداء الله ويلتف المسلمون حوله ثابتين ثبات الشم الرواسى حتى إذا دخل القتال يومه السابع اشتدت الحرب وحمى الوطيس وتوجهت إليه السهام من كل جانب ، وتكاثر عليه الأعداء ، فجاءت كوكبة من الأعداء وشددت هجومها عليه حتى وصلوا إليه ونالته رماحهم وسيوفهم وهو ثابت لايتزعزع حتى مزقت الرماح جسمه ، وسال دمه الزكى على الرماح ، يشهد له بالبلاء والبذل والشهادة .

(كان زيد بن حارثة أول من أسلم من الموالى ، ونزل فيه آيات من القرآن منها قوله تعالى : ﴿**وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ**﴾ (2) وقوله تعالى : ﴿**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا**﴾(3)

(1) انظر : السيرة النبوية لابن هشام 2 / 378 وأنساب الأشراف 1 / 380 وتاريخ الخميس 2 / 74 وعيون الأثر 2 / 154 و الدرر ص 154 وإمتاع الأسماع 1 / 348 وزاد المعاد 3 / 383 والسيرة النبوية لابن كثير 3 / 480 ـ 483

(2) سورة الأحزاب : 4 .

(3) سوره الأحزاب : 37 .

ولقد أعتقه رسول الله ـ ﷺ ـ وزوجه مولاته أم أيمن واسمها بركة فولدت له أسامة بن زيد ، فكان يقال له : الحب ابن الحب ، ثم زوجه بابنة عمته زينب بنت جحش ، وآخى بينه وبين عمه حمزة بن عبد المطلب ، وقدمه فى الإمرة على ابن عمه جعفر بن أبى طالب فى هذه السرية)[1].

هذا ولقد ذرفت عينا رسول الله ـ ﷺ ـ حينما نعى نبأ استشهاد زيد بن حارثة للمسلمين ، وبكى ـ ﷺ ـ لما رأى ابنة زيد بن حارثة تبكى على أبيها[2].

2 ـ استشهاد جعفر بن أبى طالب[3] :

وفور استشهاد زيد بن حارثة ـ رضى الله عنه ـ استلم الراية جعفر بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ ، وانبرى يتصدى لجموع المشركين الصليبيين ، فكثفوا حملاتهم عليه ، وأحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم ، فلم تلن له قناة ، ولم تهن له عزيمة ، بل استمر فى القتال وزيادة فى الإقدام فقد نزل عن فرسه وعقرها وأخذ ينشد :

ياحبذا الجنة واقترابها ❖ طيبة وبارد شرابها

والروم روم قد دنا عذابها ❖ كافرة بعيدة أنسابها

عليّ إذ لاقيتها ضرابها

لقد أخذ ـ رضى الله عنه ـ اللواء بيده اليمنى فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت فاحتضنه بعضدية وانحنى عليه حتى استشهد وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .

ولقد أثخن ـ رضى الله عنه ـ بالجراح ، إذ بلغ عدد جراحه تسعين بين طعنة برمح أو ضربة بسيف أو رمية بسهم وليس من بينها جرح فى ظهره بل كلهافى صدره .

روى الإمام البخارى ـ رحمه الله ـ فى صحيحه بإسناده إلى عمر بن الخطاب ـ رضى

(1) انظر : السيرة النبوية لابن كثير 3 / 481 .

(2) انظر: تاريخ الخميس 2 / 74 والمصنف 14 / 519 .

(3) انظر : صحيح البخارى بفتح البارى 9 / 52 ـ 54 والسيرة النبوية لابن هشام 2 / 378 وفتح البارى 9 / 54 وجامع الأصول 8 / 350 ومعازى عروة ص 205 ومجمع الزوائد 6 / 160 وعيون الأثر 2/ 155 وجوامع السيرة ص 174 وإمتاع الأسماع 1 / 348 والمصنف لابن أبى شيبة 14 / 521 .

الله عنهما ـ قال : كنت فى تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبى طالب فوجدناه فى القتلى ووجدنا مافى جسده بضعاً وتسعين من طعنة أو رمية[1] .

ولقد عوض الله ـ تبارك وتعالى ـ جعفر بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وأكرمه على شجاعته وتضحيته بأن جعل له جناحين يطير بهما فى الجنة حيث يشاء كما ثبت فى الصحيح .

فقد روى الإمام البخارى فى صحيحه بإسناده إلى عامر قال : كان ابن عمر إذا حيا ابن جعفر قال : السلام عليك ياابن ذى الجناحين[2] .

ولقد تأثر رسول الله ـ ﷺ ـ لموت جعفر بن أبى طالب وبكى عليه وذرف دموعه حزناً عليه ، وأحاط زوجه وأبناءه بالعطف والحنان والرعاية ، ودعا لهم بخير .

قالت أسماء بنت عميس زوج جعفر : لما أصيب جعفر وأصحابه دخل علىَّ رسول الله ـ ﷺ ـ وقد دبغت أربعينا مناً ، وعجنت عجينى ، وغسلت بنى ودهنتهم ونظفتهم قالت : فقال لى رسول الله ـ ﷺ ـ : ائتينى ببنى جعفر ، فأتيته بهم فتشممهم وذرفت عيناه ، فقلت : يارسول الله بأبى أنت وأمى مايبكيك ؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شىء ؟ قال : نعم أصيبوا هذا اليوم ، قالت : فقمت أصيح ، واجتمعت إلىَّ النساء ، وخرج رسول الله ـ ﷺ ـ إلى أهله فقال : لاتغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً ، فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم .[3]

وروى الترمذى ـ رحمه الله ـ فى سننه بإسناده إلى عبد الله بن جعفر قال : لما جاء نعى جعفر قال النبى ـ ﷺ ـ : « اصنعوا لأهل جعفر طعاماً فإنه قد جاءهم مايشغلهم »[4]

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وروى الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ فى مسنده بإسناده إلى عبد الله بن جعفر بن أبى

(1) صحيح البخارى بفتح البارى 9/ 53 .

(2) صحيح البخارى بفتح البارى 9/ 57

(3) السيرة النبوية لابن هشام 2/ 380.

(4) سنن الترمذى 3/ 314 .

طالب ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ جاء آل جعفر بعد ثلاثة أيام من استشهاده فقال : « *لاتبكوا على أخى بعد اليوم ، ادعوا إلىَّ ابنى أخى ، قال عبد الله : فجيء بنا كأنا أفرخ ، فقال : ادعوا إلىَّ الحلاق ، فجيء بالحلاق ، فحلق رؤوسنا ، ثم قال : أما محمد فشبيه عمنا أبى طالب ، وأما عبد الله فشبيه خلقى وخلقى ، ثم أخذ بيدى فأشالها فقال : اللهم اخلف جعفراً فى أهله وبارك لعبد الله فى صفقة يمينه ، قالها ثلاث مرات ، قال : فجاءت أمنا تفرح* (1) *له فقال : العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم فى الدنيا والآخرة* » . (2)

3 ـ استشهاد عبد الله بن رواحة (3) :

وبعد أن استشهد جعفر بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ تقدم فاستلم الراية عبد الله ابن رواحة الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ ، وامتطى صهوة جواده وهويقول :

أقسمت يانفس لتنزلنه ❖ لتنزلن أو لتكرهنه
إن أجلب (4) الناس وشدوا الرنه(5) ❖ مالى أراك تكرهين الجنه
قد طال ماقد كنت مطمئنة ❖ هل أنت إلا نطفة فى شنه(6)
يانفس إلا تقتلى تموتى ❖ هذا حمام الموت قد صليت
وماتمنيت فقد أعطيت ❖ إن تفعلى فعلهما هديت

ويذكر أن ابن عم لعبد الله بن رواحة قد قدم له قطعة من لحم وقال له : شد بهذا

---

(1) قال فى مختصر بلوغ الأمانى 21 / 138 : أفرحه غمه وزال عنه الفرح وأفرحه الدين إذا أثقله ، وإذا كانت بالجيم فهو من المفرج الذى لاعشيرة له ، فكأنها أرادت أن أباهم توفى ولاعشيرة لهم فقال النبى ـ ﷺ ـ : «*أتخافين العيلة وأنا وليهم*» .

(2) الفتح الربانى 21 / 138 قال فى الحاشية : أورده الحافظ ابن كثير فى تاريخه وعزاه للإمام أحمد وروى أبو داود بعضه والنسائى فى السير بتمامه من حديث وهب بن جرير به . وأورده الحافظ الهيثمى وقال : روى أبو داود وغيره بعضه ، رواه أحمد والطبرانى ورجالهما رجال الصحيح .

(3) انظر : السيرة النبوية لابن هشام 2 / 379 وإمتاع الأسماع 1 / 348 وعيون الأثر 2 / 154 ـ 155 والدرر ص 154 ـ 155 والسيرة النبوية لابن كثير 3 / 462 وأيام العرب 90 ـ 91 وأنساب الأشراف 1 / 380 وتاريخ الطبرى 3 / 109 وسيد العرب 3 / 178 ـ 179 .

(4) أجلب القوم : صاحوا واجتمعوا

(5) الرنة : صوت ترجيع شبه البكاء .

(6) النطفة : الماء القليل الصافى ، والشنة : السقاء البالى ، أى فيوشك أن تهراق النطفة أو ينخرق السقاء ضرب ذلك مثلاً لنفسه فى جسده .

صلبك ، فإنك لقيت فى أيامك هذه مالقيت ، فأخذه من يده ثم انتهس منه نهسة ، ثم سمع جلبة وزحاماً فى جبهة القتال ، فقال يخاطب نفسه : وأنت فى الدنيا ، ثم ألقى قطعة اللحم من يده وتقدم يقاتل العدو حتى استشهد ـ رضى الله عنه ـ وكان ذلك فى آخر النهار .

• المسلمون يختارون خالد بن الوليد أميراً[1]:

ولما استشهد عبد الله بن رواحة ـ رضى الله عنه ـ وسقطت الراية من يده فالتقطها ثابت بن أقرم بن ثعلبة بن عدى بن العجلان البلوى الأنصارى وقال : يامعشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم ، قالوا : أنت ، قال : ماأنا بفاعل ، فاصطلح الناس على خالد ابن الوليد .

وجاء فى إمتاع الأسماع أن ثابت بن أقرم نظر إلى خالد بن الوليد فقال : خذ اللواء ياأبا سليمان ، فقال : لا آخذه ، أنت أحق به ، أنت رجل لك سن ، وقد شهدت بدراً ، فقال ثابت : خذه أيها الرجل ، فوالله ماأخذته إلا لك ، فأخذه خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ[2] .

خطة خالد بن الوليد[3]:

لقد علمت أن خالد بن الوليد استلم الراية فى آخر النهار وقد توقف القتال عند أول الليل ، فانشغل خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ فى إعادة تعبئة الجيش من جديد ، فجعل مقدمة الجيش ساقة ، وساقته مقدمة ، وميمنته ميسرة ، وميسرته ميمنة ، فأنكر المشركون ذلك وظنوا أن مدداً عظيماً جاء إلى المسلمين ، أما خالد فقد عاد ومن معه من المسلمين إلى المدينة المنورة ، فلم يجرؤ واحد من النصارى الصليبيين اللحاق به ؛ لانتشار الرعب فى قلوبهم ، وانهيار معنوياتهم .

• الرسول ـ ﷺ ـ يستنفر المسلمين لنجدة إخوانهم فى مؤتة:

ومما يجدر ذكره أن رسول الله ـ ﷺ ـ لما نبأه الله بما حدث فى مؤتة من استشهاد

(1) انظر : السيرة النبوية لابن هشام 2 / 383 وزاد المعاد 3 / 383 والسيرة الحلبية 2 / 788 .

(2) إمتاع الأسماع 1 / 348 ـ 349 .

(3) انظر : السيرة الحلبية 2 / 788 وشرح المواهب 2 / 273 وجوامع السيرة ص 175 .

الأمراء الثلاثة واصطلاح المسلمين على خالد ليكون أميراً عليهم أمر المسلمين بالإعداد والاستعداد والسير إلى إمداد سرية مؤتة .

روى ابن أبى شيبة فى مصنفه عن أبى قتادة فارس رسول الله ـ ﷺ ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « *انفروا فأمدوا إخوانكم ، ولا يتخلفن منكم أحد ، فينفروا مشاةً وركباناً ، وذلك فى حر شديد* » (1) .

وروى هذا الحديث أيضاً الإمام أحمد فى مسنده بإسناده إلى أبى قتادة ، وقال عنه الساعاتى فى مختصر بلوغ الأمانى من أسرار الفتح الربانى : الحديث صحيح ورجاله

(1) انظر : مصنف ابن أبى شيبة 14 / 513 ـ 516 وتكملة الخبر : فبينما هم ليلة مايلين عن الطريق إذ نعس رسول الله ـ ﷺ ـ حتى مال عن الرحل فأتيته فدعمته بيدى ، فلما وجد مس يد رحل اعتدل فقال : من هذا ؟ فقلت : أبو قتادة ، قال فى الثانية أو الثالثة ، قال : ماأرانى إلا قد شققت عليك منذ الليلة ، قال : قلت كلا بأبى أنت وأمى ، ولكن أرى الكرى والنعاس قد شق عليك ، فلو عدلت فنزلت حتى يذهب كراك ، قال : إنى أخاف أن يحذل الناس ، قال : قلت : كلا بأبى أنت وأمى قال : فابغنا مكاناً خميرا ، قال : فعدلت عن الطريق ، فإذا أنا بعقدة من شجر ، فجئت فقلت : يارسول الله ، هذه عقدة من شجر قد أصبتها ، قال : فعدل رسول الله ـ ﷺ ـ وعدل معه من يليه من أهل الطريق ، فنزلوا واستتروا بالعقدة من الطريق ، فما استيقظنا إلا بالشمس طالعة علينا ، فقمنا ونحن وهلين ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : رويداً رويداً ، حتى تعالت الشمس ، ثم قال : من كان يصلى هاتين الركعتين قبل صلاة الغداة فليصلهما ، فصلاهما من كان يصليهما ، ثم أمر فنودى بالصلاة ، ثم تقدم رسول الله ـ ﷺ ـ فصلى بنا ، فلما سلم قال إنا نحمد الله ، لم نكن فى شيء من أمر الدنيا ، يشغلنا عن صلاتنا ، ولكن أرواحنا كانت بيد الله ، أرسلها أنى شاء ، ألا فمن أدركته هذه الصلاة من عبد صالح فليقض معها مثلها ، قالوا : يارسول الله العطش قال : لاعطش ياأبا قتادة أرنى الميضأة ، قال : فأتيته بها فجعلها فى ضبنة ، ثم التقم فمها ، فالله أعلم أنفث فيها أم لا ، ثم قال : ياأبا قتادة أرنى الغمر على الراحلة ، فأتيته بقدح بين القدحين فصب فيه فقال : اسق القوم ، ونادى رسول الله ـ ﷺ ـ ورفع صوته : ألا من أتاه إناؤه فليشربه ، فأتيت رجلاً فأسقيته ، ثم رجعت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ بفضلة القدح فذهبت فسقيت الذى يليه حتى سقيت أهل تلك الحلقة ثم رجعت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ بفضلة القدح فسقيت حلقة أخرى ، حتى سقيت سبع رفق ، وجعلت أتطاول أنظر هل بقى فيها شيء ، فصب رسول الله ـ ﷺ ـ فى القدح فقال لى : إشرب ، قال : قلت : بأبى أنت وأمى إنى لا أجد بى كثير عطش ، قال : إليك عنى ، فإنى ساقى القوم منذ اليوم ، قال : فصب رسول الله ـ ﷺ ـ فى القدح فشرب ، ثم صب فى القدح فشرب ، ثم صب فى القدح فشرب ، ثم ركب وركبنا ، ثم قال : كيف ترى القوم صنعوا حين فقدوا نبيهم وأرهقتهم صلاتهم ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال . أليس فيهم أبو بكر وعمر ، إن يطيعوهما فقد رشدوا ورشدت أمهم ، وإن يعصوهما فقدغووا وغوت أمهم قالها ثلاثاً ، ثم سار وسرنا حتى إذا كنا فى نحر الظهيرة إذ ناس يتبعون ظلال الشجرة ، فأتيناهم فإذا ناس من المهاجرين فيهم عمر بن الخطاب قال : فقلنا لهم : كيف صنعتم حين فقدتم نبيكم وأرهقتكم صلاتكم ؟ قالوا : نحن والله نخبركم ، وثب عمر فقال لأبى بكر : إن الله قال فى كتابه : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ وإنى والله ماأدرى لعل الله قد توفى نبيه فقم فصل وانطلق ، وإنى ناظر بعدك ومقاوم ، فإن رأيت شيئاً وإلا لحقت بك ، وأقيمت الصلاة ، وانقطع الحديث) .

ثقات .[1]

الرسول يخبر المسلمين فى المدينة بوقائع الغزوة واستشهاد الأمراء الثلاثة :

روى الإمام البخارى ـ رحمه الله تعالى ـ فى صحيحه بإسناده إلى أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ ﷺ ـ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : « *أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب وعيناه تذرفان ، حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم* ».[2]

وروى الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ فى مسنده بإسناده إلى أبى قتادة فارس رسول الله ـ ﷺ ـ قال : بعث رسول الله ـ ﷺ ـ جيش الأمراء وقال : « *عليكم زيد بن حارثة ، فإن أصيب زيد فجعفر ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة الأنصارى فوثب جعفر فقال : بأبى أنت يانبى الله ماكنت أرهب أن تستعمل علىَّ زيداً ، قال : امضوا فإنك لاتدرى أى ذلك خير ، قال : فانطلق الجيش فلبثوا ماشاء الله ، ثم إن رسول الله ـ ﷺ ـ صعد المنبر ، وأمر أن ينادى الصلاة جامعة فقال رسول الله ـ ﷺ ـ ثاب خبر ، ألا أخبركم عن جيشكم هذا الغازى ، إنهم انطلقوا حتى لقوا العدو فأصيب زيد شهيداً فاستغفروا له ، فاستغفر له الناس ، ثم أخذ اللواء جعفر بن أبى طالب ، فشد على القوم حتى قتل شهيداً ، اشهدوا له بالشهادة ، فاستغفروا له ، ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فأثبت قدميه حتى أصيب شهيداً ، فاستغفروا له ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد وا م يكن من الأمراء ، هو أمر نفسه ، فرفع رسول الله ـ ﷺ ـ أصبعيه وقال : اللهم هو سيف من سيوفك فانصره* ».[3]

● تأملات وملاحظات :

أولاً : أهمية هذه المعركة : يبدو لنا أن هذه المعركة تعتبر من أهم المعارك التى وقعت بين المسلمين وبين النصارى الصليبيين من عرب وعجم ، لأنها أول صدام مسلح ذى بال بين الفريقين ، وسيكون له من الآثار والنتائج القريبة والبعيدة التى تؤثر فى مستقبل الفريقين فى هذه المنطقة ، فإما أن تتحرر هذه المنطقة من استعمار الرومان الصليبيين وعملائهم العرب أو تبقى تحت نيراستعمارهم .

---

(1) انظر : الفتح الربانى 21/ 137 ومختصر بلوغ الأمانى المطبوع بحاشيته 21/ 137 .

(2) صحيح البخارى بفتح البارى 9/ 54 .

(3) الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى 21/ 137 .

والدارس لهذه المعركة وآثارها يدرك أنها كانت مقدمة لفتح بلاد الشام وتحريرها من الرومان ، إذ تغلبت الفئة المؤمنة القليلة على الفئة الكافرة الكثيرة ، وأعطت فكرة عن الروح المعنوية العالية فى القتال عند المسلمين كما أبرزت ضعف الروح المعنوية فى القتال عند الجندى الصليبى .

ثانياً : تعبئة الجيش الإسلامى كانت موفقة : فقد كان للجيش مقدمة ومؤخرة وميمنة وميسرة وقادة ثلاثة ، ولقد استطاع الجيش الإسلامى على قلته بهذه التعبئة أن يتصدى لمائتى ألف من الجيش المعادى وأبلى قادته وأمراؤه بلاءً حسناً ، بل لقد استطاع أن يحطم هجمات الأعداء ، يندفع بقوة السهم ليبطش بالآلاف من مقاتليهم ويذيقهم طعم الردى .

ثالثاً: يلاحظ أن أمراء الجيش : زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ قد استشهدوا جميعاً وفى الوقت ذاته لم ينفرط عقد المسلمين ، مع أن الغالب فى المعارك إذا قضى على قائد المعركة ضعفت معنويات الجند فى القتال ، وتقهقروا ، ودارت الدائرة عليهم .

وهذا الثبات والإصرار على القتال بعد أن استشهد الأمراء الثلاثة يدل على أن الجند يقاتلون من أجل هدف واضح ويرتبطون برسالة يعملون على تحقيقها وأن موت القائد لايؤثر عندهم ؛ لأن كل واحد منهم مكلف بالعمل لتحقيق الهدف أو الموت دونه ، ولقد تعلموا أن يتعلقوا بهذا الدين ولايتعلقون بالأشخاص حتى وإن كانوا قادة أكفاء ومحاربين عظماء .

رابعاً : لقد أعطى أمراء الجيش للأجيال المسلمة عبر العصور المختلفة دروساً فى الصبر والثبات والإقدام والتضحية والشجاعة والبذل والفداء .

فزيد بن حارثة ـ رضى الله عنه ـ لم تلن له قناة ولم تهن له عزيمة وقد أحاط به جنود الأعداء من كل جانب بل ثبت كالطور الأشم يجالدهم بسيفه ويطاعنهم برمحه حتى مزقت رماحهم جسده وتفجر دمه يسيل على رماحهم .

وأما جعفر بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ فيحمل اللواء بيمينه فتضرب وتبتر فيتحامل على آلامه ويتناول اللواء بشماله فتقطع ، فيجعل اللواء بين عضديه حتى يمزق جسده ويجد المسلمون فى جسده تسعين إصابة ليس من بينها إصابة واحدة فى ظهره بل

كلها مواجهة .

وأما عبد الله بن روحة الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ فلم يتراجع وقد رأى بأم عينيه ماحدث لأخويه فى الإمارة فتقدم يقاتل حتى استشهد .

خامساً : الباعث على التضحية حب الشهادة : إن الصبر والثبات والتضحية التى تجلت فى كل واحد من الأمراء الثلاثة وسائر الجند كان مبعثها الحرص على ثواب المجاهدين والرغبة فى أن يتخذ من أو ليائه وأصفيائه شهداء حيث يكونون من أهل الجنة، فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر

تأمل شعر ابن رواحة وهو يقول :

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها

وتأمل قول عبد الله بن رواحة يخاطب نفسه :

إن أجلب الناس وشدوا الرنه مالى أراك تكرهين الجنة

وقوله وهو يودع رسول الله :

ولكنى أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا

أو طعنة بيدى حران مجهزة أو رمية تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقال إذا مروا على جدثى ياأرشد الله من غاز وقد رشدا

والباعث أيضاً على الثبات وعدم الفرار من وجه العدو أنه تعلم أن الفرار من وجه الأعداء فى القتال يستوجب غضب الله وسخطه فى الدنيا والنار وجحيمها فى الآخرة قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(1)

سادساً : جواز عقر الفرس فى القتال حتى لاينتفع بها العدو : أخذ هذا الحكم من فعل جعفر بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وإقرار الرسول ـ ﷺ ـ لهذا الفعل بعد بلوغه

(1) الأنفال : 15 ، 16 .

إياه إذ لم ينكره .

ويؤخذ من هذا أيضاً : جواز تدمير السلاح وسائر المعدات الحربية والحصون إن تأكد أن العدو سيستولى عليها ويستفيد منها في حربه ضد المسلمين .

سابعاً : حمل الراية رجولة وشجاعة ؛ لأن سهام الأعداء تتوجه إلى حامل الراية وتتركز هجماتهم عليه ، وهو بدوره يتصدى لهذه الهجمات ويصر على الثبات وهذا قمة التضحية والثبات والرجولة .

ثامناً : القيادة الشابة : لقد لمح النبى - ﷺ - بفراسته نضوج جعفر ورجولته وتوافر مؤهلات القيادة فيه ، وهو فى ريعان شبابه ، وباكورة عمره ، فلاغرو أن يؤمر على المسلمين فى الحبشة ، وأن يسعد المسلمون بإمارته وهو ابن عشرين سنة ، فقد قام بالإمارة خير قيام ، بعرض عقيدتهم وفكرتهم دون خوف أو وجل ، وبقول الاعتقاد الحق فى عيسى - عليه السلام - ، وإن كان يخالف اعتقاد أهل الحبشة الذين قبلوه ومن معه من المسلمين فى بلادهم ، ويبدى حججه الدامغة والبراهين الساطعة على صحة مايقول ، وهو يواجه أحد دهاة العرب ذلكم هو عمرو بن العاص ، فيعود حسيراً خالى الوفاضين ، راضياً من الغنيمة بالإياب خائباً فاشلاً .

ولاغرو إذاً أن نجد النبى - ﷺ - يختاره بعد عودته من الحبشة بعام ليكون أحد الأمراء الثلاثة فى وقعة مؤتة ، ويبلى بلاءً حسناً كما علمت وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .

تاسعاً : هذه المعركة يبدو لى أنها متميزة عن سائر المعارك والسرايا التى خاضها المسلمون فهى الوقعة الوحيدة التى جاء خبرها من السماء ، إذ نعى النبى - ﷺ - الأمراء الثلاثة قبل أن يصله الخبر من أرض المعركة ، بل وحدث المسلمين فى المدينة عن أحداثها .

وتمتاز أيضاً عن غيرها بأن الوقعة الوحيدة التى اختار النبى - ﷺ - لها ثلاثة أمراء على الترتيب : زيد بن حارثة ، جعفر بن أبى طالب ، عبد الله بن رواحة .

عاشراً : ويفهم من النصوص أن جعفر كان على جانب عظيم من الشجاعة ، فهو يقبل على القتال ولايدبر ، يكرولايفر ؛ ذلك لأن كل إصاباته التى بلغت بضعاً وتسعين كانت فى صدره ، ولم يكن شىء منها فى ظهره أى وهو فار ، بل كان مواجهاً للعدو يطعن ويجالد ، ويتلقى الطعن والرمى دون أن تلين له قناه أو تهون له عزيمة .

حادى عشر : إحذر نفسك ولاتتبعها هواها : النفس الإنسانية تميل إلى الدعة والراحة والتخفف من الأعباء ، وتكره القتال ؛ لأن فيه تعريضاً لها للهلاك قال تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(1)

ولذلك فقد تسول النفس لصاحبها فى الشدائد والظروف الحالكة بالتراجع والهروب من نزال العدو فى ساحات الوغى ، فعليه أن يكبح جماحها وأ ن يتمرد عليها وأ ن يرغمها على ركوب ماتكره من الأهوال .

وفى موقف الصحابى الجليل والقائد الفذ عبد الله بن رواحة الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ درس لكل مسلم ، كيف تصدى لهذا الوسواس وألزم نفسه الثبات والتصدى لقتال العدو ولم يتبع نفسه هواها حينما ترددت فى حمل الراية ، فكانت الشهادة وكان النعيم المقيم .

ثانى عشر : ضرورة توفر الغذاء المناسب والغنى بالمواد البروتينية للمقاتل : نعم لابد من هذا مهما كانت الظروف ، وعلى المقاتل أن يتناول غذاءه على الرغم ممايجده من آلام ومشاهد ، قد تجعله يعاف الطعام ، إذ الغذاء يقوى الجسم ويجعله قادراً على تحمل أعباء القتال ، والجسم الضعيف الكليل لايقوى صاحبه على مصارعه الأبطال فى ساحات الوغى ويكون عاجزاً عن النكاية فى العدو .

نأخذ هذا من تناول عبد الله بن رواحة عرق لحم وأكله منه ، ومن الجدير بالذكر أن اللحم غنى بالمواد البروتينية التى تقيم صلب المقاتل ، فلا غرو إذاً إذا علمنا أن الجيوش الحديثة تعتبر اللحم شيئاً أساسياً فى المواد التموينية للجيش ، وقبل ذلك مادرج عليه المسلمون فى جيوشهم من تزويدها باللحم دائماً .

ثالث عشر : رحمة الرسول ـ ﷺ ـ : لقد وصف الله رسوله ـ ﷺ ـ بالرحمة فقال : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(2) ومن صور هذه الرحمة ماظهر منه فى سرية مؤتة ، إذ ذرفت عيناه دموعاً وهو ينعى الشهداء ،

---

(1) البقرة : 216 .

(2) التوبة : 128 .

وتجلت الرحمة وهو يتشمم أبناء جعفر ودموعه تنهمر على خده.

رابع عشر : جواز بكاء المرأة على زوجها المتوفى : أخذ هذا من فعل أسماء بنت عميس - رضى الله عنها - حينما نعى النبى - ﷺ - زوجها ومن معه ، فبكت وصاحت ، فلم ينكر عليها النبى - ﷺ - ، ولم ينهها عن ذلك ، ولو كان ممنوعاً لنهاها عن ذلك ، والبكاء الذى نهى عنه الإسلام هو ماكان سائداً عند أهل الجاهلية من النواح واللطم وشق الجيوب ، والتبرم بقضاء الله وقدره ، وماإلى ذلك مما يكون سبباً فى معصية الخالق سبحانه.

خامس عشر : استحباب صنع الطعام لأهل الميت : أخذنا هذا من ندب الرسول - ﷺ - الناس أن يصنعوا طعاماً لآل جعفر ، وهذا يحقق أكثر من أمر ، إنه مواساة لأهل الميت وتخفيف مصابهم ، وفى الوقت ذاته هو تكافل بين المسلمين ، فأهل الميت ينشغلون بميتهم سواء كان بالتجهيز لدفنه أو بالحزن عليه ، إذ يجدون من يقدم لهم العون فى هذا الظرف الطارئ.

أقول : إن مايحدث فى بعض بلاد المسلمين اليوم من تكليف أهل الميت بصنع الطعام للقادمين ، والانشغال عن ميتهم ، أمر قبيح ينبغى الإقلاع عنه ، وهجره ، إذ أن أهل الميت فى وضع نفسى يستدعى أن يساعدهم الناس فيه وأن يخدموهم ويقدموا لهم يد العون ، ويواسوهم ، وليسوا فى وضع يمكنهم من صنع الطعام وإطعامهم للناس .

سادس عشر : تواضع ثابت بن أقرم : إن ثابت بن أقرم حينما استلم الراية بعد استشهاد عبد الله بن رواحة وطلب من الناس أن يختاروا أميراً عليهم وأشار بعضهم بأن يكون ثابت الأمير ، لم يقبل ذلك لالضعف فيه ، فهو الرجل المقاتل الشجاع الذى خاض مع رسول الله - ﷺ - غزوات كثيرة وفى مقدمتها غزوة بدر الكبرى التى كتب الله لأهلها المغفرة لبلائهم الحسن فى قتال عدوهم .

والتواضع يقتضى أن يقف الإنسان عند حده وكفاءته ولايتجاوز ذلك ، ولقد رأى ثابت بن أقرم أن هناك من هو أكفأ منه وهو خالد بن الوليد - رضى الله عنه - فآلى على نفسه أن يتقدم عليه ، وفى هذا من إنكار الذات وتفضيل مصلحة المسلمين العامة على أى أمر فردى أو مجد شخصى .

سابع عشر : استلام خالد بن الوليد الراية يدل على شجاعته ؛ لأن الذى سبق خالداً قد استشهدوا جميعاً ، وباستلامه الراية وأخذه إياها متوقع أن يصيبه ماأصاب الأمراء الثلاثة ، ومع هذا لايأبه لما يحدث له من أذى أو قتل ، إنه الإقدام والشجاعة .

ثامن عشر : تنصيب خالد على إمارة الجيش كان بناء على الشورى ، ولقد نال موافقة الأغلبية الساحقة للجيش ، تأمل قول الراوى : فاصطلح الناس على خالد ، أقول : وأبو سليمان لها ، فهو القائد المحنك المجرب المقدام ، شهد له رسول الله ـ ﷺ ـ بذلك ، وشهد له العدو والصديق بالكفاءة والإدارة فى فنون الحرب والقتال .

العودة إلى المدينة ونتيجة المعركة

العودة إلى المدينة ونتيجة المعركة

استقبال شعب المدينة للجيش الغازى

وعلى الرغم من الجهود الجبارة التى بذلها المحاربون قادة وجنداً ، والشجاعة النادرة فى مواجهة الأعداد الضخمة من حشودات العدو ، والاستبسال فى ذلك القتال الشرس ، والثبات فى ملاقاة العدو ودحره الذى سطره التاريخ لهؤلاء الأبطال الذين عاد بهم خالدبن الوليد ـ رضى الله عنه ـ بعد إعادة تعبئة الجيش ، فإن التاريخ يخبرنا أن شعب المدينة الذى رباه رسول الله ـ ﷺ ـ على العزة والحرية ، وقف بأطفاله ونسائه ينكر على الجيش الإسلامى أن يعود على هذه الصورة ، بل ينبغى ألا يعود إلى المدينة إلا بعد أن يسحق جيش الأعداء فلا تقوم له قائمة .

لقد وقف هؤلاء يقولون لهذا الجيش المنتصر : يافرار ، ويحثون فى وجوه هؤلاء المجاهدين الغزاة التراب ، ويرددون : فررتم فى سبيل الله .

ولكن رسول الله ـ ﷺ ـ الذى رباهم على حرية القول والرأى يوضح لهم ويصوب لهم الأمر فيفيد أنهم ليسوا بالفرار بل هم الكرار إن شاء الله .

عن النعمان بن بشير ـ رضى الله عنه ـ قال : تلقانا رسول الله ـ ﷺ ـ منصرفنا من مؤتة ، فقال قائل : أنتم الفرارون ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : «*لا بل هم الكرارون وأنا فئة*(1) *كل مسلم*» (2)

أقول : شتان بين الجيل الذى عاش فى المجتمع الإسلامى فى عهد النبوة ، وبين الجيل الذى يعيش فى عالمنا المعاصر ، فالجيل الأول رباه الرسول ـ ﷺ ـ على الحرية فى القول والرأى فلم يكتم أنفاسه ، ولم يخنق الكلمة الحرة فى فمه .

أما الناس اليوم فقد قهروا وربوا على الذل والنفاق للمسؤول ، ولم يربوا على الحرية

---

(1) الفئة : القوم من الجيش يكونون وراء المقاتلة ، إن انهزموا رجعوا إليهم .

(2) جامع الأصول فى أحاديث الرسول 8 / 354 وانظر . السيرة النبوية لابن هشام 2 / 382 والسيرة النبوية لابن كثير 3 / 469 ـ 470 والطبقات الكبرى لابن سعد 2 / 129 وحياة سيد العرب 3/ 181 .

فى القول والرأى ، ومن ثم ضيعت بلادهم وصودرت حرياتهم ودنست مقدساتهم نتيجة لتخاذل المتخاذلين وخيانة الخائنين وجبن المسؤولين فلم نجد من يقول لهؤلاء ، لامرحباً بكم أيها الفرارون.

لقد كان جديراً بهؤلاء أن يقولوا للذين لم ينالوا شرف القتال مع عدو بل سلموا أسلحتهم بشحمتها لا مرحباً بكم أيها الفرارون .

• شهداء مؤتة :(1)

لقد قاتل المسلمون النصارى الصليبيين فى مؤتة سبعة أيام وأبلوا بلاءً حسناً فى القتال ، فقتلوا عدداً ضخماً من الصليبيين العرب والعجم ولم يستشهد منهم إلا اثنا عشر شهيداً على أكثر تقدير ، ومن هؤلاء الشهداء الأمراء الثلاثة : زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة الأنصارى ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ.

ومنهم مسعود بن الأسود بن حارثة بن نضلة من بنى عدى بن كعب ووهب بن سعد بن أبى سرح وهو من بنى مالك بن مسل .

وعباد بن قيس الأنصارى الخزرجى . والحارث بن النعمان بن إساف بن نضلة بن عبد بن عوف بن غنم الأنصارى وسراقة بن عمرو بن عطية بن خنساء الأنصارى من بنى مازن بن النجار .

وأبو كليب بن عمرو بن زيد بن عوف بن مبذول الأنصارى من بنى مازن بن النجار .

وجابر بن عمرو بن زيد بن عوف بن مبذول الأنصارى من بنى مازن بن النجار .

وعمرو بن سعد بن الحارث بن عباد بن سعد بن عامر بن ثعلبة بن مالك بن أفصى ، وهو من بنى مالك بن أفصى .

وعامر بن سعد بن الحارث بن عباد بن سعد بن عامر بن ثعلبة بن مالك بن أفصى وهو من بنى مالك بن أفصى .

(1) انظر : السيرة النبوية لابن هشام 2/ 388 ـ 389 والسيرة النبوية لابن كثير 3 / 489 وجوامع السيرة ص 175 ـ 176 ومغازى رسول الله لعروة ص 206 وزاد المعاد 3/ 385 وتاريخ الخميس 2/ 75 .

• غنائم مؤتة: (1)

وغنم المسلمون في مؤتة غنائم إلا أنها لم تكن كثيرة وكانت عن طريق فردى وهى مايحصله القاتل إذا قتل عدوه فيأخذ سلبه؛ أى متاعه الشخصى كالخاتم والبيضة وغيرها.

عن عوف بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: خرجت مع زيد بن حارثة فى غزوة مؤتة، ورافقنى مددى من اليمن، ليس معه غير سيفه، فنحر رجل من المسلمين جزوراً فسأله المددى طائفة من جلده، فأعطاه إياه، فاتخذه كهيئة الدرق، ومضينا فلقينا جموع الروم فيهم رجل على فرس أشقر، عليه سرج مذهب، له سلاح مذهب، فجعل الرومى يفرى بالمسلمين، فقعد له المددى خلف صخرة، فمر به الرومى فعرقب فرسه بسيفه، وخر الرومى، فعلاه بسيفه فقتله، وحاز فرسه وسلاحه، فلما فتح الله للمسلمين، بعث إليه خالد بن الوليد فأخذ منه بعض السلب، قال عوف: فأتيت خالداً وقلت له: أما علمت أن رسول الله ـ ﷺ ـ قضى بالسلب للقاتل؟ قال: بلى، ولكنى استكثرته قلت: لتردنه إليه، أو لأعرفنكها عند رسول الله ـ ﷺ ـ فأبى أن يرد عليه.

قال عوف: فاجتمعنا عند رسول الله ـ ﷺ ـ فقصصت عليه قصة المددى، ومافعل خالد، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: ياخالد ماحملك على ماصنعت؟ قال: استكثرته، فقال: رد عليه الذى أخذت منه، قال عوف: فقلت: دونكها ياخالد، ألم أوف لك؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: وماذلك؟ فأخبرته، قال: فغضب رسول الله ـ ﷺ ـ وقال: ياخالد لاترد عليه، هل أنتم تاركون لى أمرائى، لكم صفوة أمرهم وعليهم كدره، أخرجه أبو داود (2)

وفى رواية لمسلم قال عوف بن مالك: قتل رجل من حمير رجلاً من العدو، فأراد سلبه فمنعه خالد بن الوليد، وكان والياً عليهم، فأتى رسول الله ـ ﷺ ـ عوف بن مالك فأخبره فقال لخالد: مامنعك أن تعطيه سلبه؟ قال: استكثرته يارسول الله، قال:

(1) انظر: جامع الأصول 8 / 352 ـ 355 وإمتاع الأسماع 14 / 352 وحياة سيد العرب 3 / 182 والسيرة النبوية لابن كثير 3 / 472 والسيرة الحلبية 2 / 793.

(2) جامع الأصول 8 / 352 ـ 353.

ادفعه إليه فمر خالد بعوف فجر بردائه ثم قال : هل أنجزت لك ماذكرت لك من رسول الله ـ ﷺ ـ ؟ فسمعه رسول الله ـ ﷺ ـ فاستغضب ، فقال : لاتعطه ياخالد ، هل أنتم تاركون لى أمرائى ؟ إنما مثلكم ومثلهم كمثل رجل استرعى إبلاً أو غنماً فرعاها ، ثم تحين سقيها ، فأوردها حوضاً ، فشرعت فيه ، فشربت صفوه وتركت كدره ، فصفوه لكم ، وكدره عليهم . (1)

• نتيجة المعركة:

لقد اختلفت وجهات النظر فى نتيجة معركة مؤتة ، فمن قائل أن المسلمين لم يتغلبو ا على أعدائهم ، بل كانت كفة الرومان الصليبيين وأذنابهم من العرب النصارى الصليبيين هى الراجحة . (2)

ومن قائل أن الفريقين قد تعادلا فى القتال فلم يكن هناك غالب ولامغلوب وانتهى القتال بانحياز كل فئة عن الأخرى وعدم متابعة القتال حتى النهاية . (3)

ومن قائل أن المسلمين هم الذين انتصروا على أعدائهم (4)

أقول : إننا لوأمعنا النظر ودققناه فى استنباط أهداف القتال عند الفريقين ثم نظرنا بعمق من من الفريقين حقق أهدافه أوجلها أكثر من الآخر لأمكننا أن نحدد من الظافر المنتصر فى هذا القتال

ويلوح لى والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم أن رسول الله ـ ﷺ ـ حين أرسل هذه السرية كان يتوخى عدة أمور هى :

ـ تأديب المعتدين على سفيره والثأر له

ـ إقامة الحجة على الأعداء بدعوتهم إلى الإسلام

---

(1) جامع الأصول 8 / 353ـ354 .

(2) انظر : زاد المعاد 3 / 383 والطبقات الكبرى لابن سعد 2 / 129 وعيون الأثر 2 / 155 .

(3) انظر : السيرة النبوية لابن هشام2 / 380 والسيرة النبوية لابن كثير 3 / 473 وعيون الأثر 2 / 155 .

(4) انظر : صحيح البخارى بفتح البارى 9 / 54 وفتح البارى 9 / 54 والسيرة النبوية لابن كثير 3 / 472ـ474 وشرح المواهب 2 / 273 .

- جس نبض أعدائه وأن يعرف مدى رد فعلهم وقوة الروح المعنويةعندهم .

- إرهاب الأعداء والحفاظ على هيبة الدولة الإسلامية

وأما أهداف الصليبيين فيمكن إدراكها بسهولة وهى تتلخص فى الدفاع عن أنفسهم والقضاء على الجيش الإسلامى المهاجم ، وإضعاف الروح المعنوية فى القتال عند المسلمين من خلال سحق الجيش الإسلامى .

فماذا كانت النتيجة؟

أقول : لقد حقق الجيش الإسلامى أهدافه فى هذه المعركة فبلغ الرسالة وأدب المعتدين على سفير المسلمين ، وحافظ على هيبة الدولة الإسلامية ، وظهر له قوة الروح المعنوية عند الجيش الإسلامى على قلة عدده وعُدده وضعف الروح المعنوية فى القتال عند الأعداء على كثرتهم فى العدد والسلاح .

لقد كان من أهداف الأعداء النصارى الصليبيين سحق الجيش الإسلامى وإضعاف الروح المعنوية فى القتال لديه بأقل الخسائر . إن شيئاً من ذلك لم يتحقق ، فلقد علمت - أخى القارئ - أن عدد الذين استشهدوا من الجيش الإسلامى لايتجاوز اثنى عشر رجلاً فى حين أن المسلمين قد قتلوا من أعدائهم عشرات الألوف من القتلى خلال سبعة أيام .

ومما يدل على هذا مارواه الإمام البخارى - رحمه الله - فى صحيحه بإسناده إلى خالد بن الوليد - رضى الله عنه - قال : لقد انقطعت فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف ، فما بقى فى يدى إلا صحيفة لى يمانية .(1)

أقول : كم كسرت هذه الأسياف وقطعت من الأعناق قبل أن تتكسر أو تتقطع وكم من الأعناق قطع بصحيفته اليمانية ، وهذا خالد بن الوليد - رضى الله عنه - ، وكل واحد من المسلمين ثبت ثبات خالد ، ولم يتراجع القهقرى .

قال ابن كثير يعقب على حديث البخارى المتقدم : وهذا يقتضى أنهم أثخنوا فيهم قتلاً(2) ، أجل كل واحد من المسلمين قاتل ، وكل واحد من المسلمين جاهد ، وكل واحد

(1) صحيح البخارى بفتح البارى 9/ 57 .

(2) السيرة النبوية لابن كثير 3/ 472 .

منهم نال من أعدائه ، وفى مقدمة هؤلاء الأمراء الثلاثة الذين قاتلوا ببسالة حتى استشهدوا ولقد كانت الروح المعنوية عالية جداً عند المسلمين ، وقد تجلى ذلك عندما وصلهم أنباء حشود الأعداء الضخمة ، فلم يكترثوا لها وساروا لقتالها يرجون إحدى الحسنيين ، إما النصر أو الشهادة .

ولقد استطاع قطبة بن قتادة الندرى قائد الميمنة فى الجيش الإسلامى أن يصرع أمير النصارى العرب فى الجيش الصليبى واسمه مالك بن زافلة ، قال قطبة يحدث عن ذلك :

طعنت ابن زافلة بن الأراش ❖ برمح مضى فيه ثم انحطم

ضربت على جيده ضربة ❖ فمال كما مال غصن السلم

وسقنا نساء بنى عمه ❖ غداة رقوقين سوق النعم

وهذه الأبيات تدل على أن المسلمين غنموا من النصارى وسلبوا من أشرافهم وقتلوا من أمرائهم . (1)

وقد مرمعنا بالأخبار الصحيحة أن المسلمين غنموا من أموال النصارى الصليبيين ومن ذلك امتناع خالد عن عطاء أحد الجنود سلبه كله لاستكثاره .

وكلمة الفصل هى إخبار الرسول ـ ﷺ ـ بالنتيجة ، فقد أخبر رسول الله ـ ﷺ ـ أن نتيجة المعركة ونهايتها كانت نصراً وفتحاً فتحه الله على المسلمين .

فقد روى الإمام البخارى ـ رحمه الله تعالى ـ فى صحيحه بإسناده إلى أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ ﷺ ـ قال : «*أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم*» . (2)

وجاء فى كتاب الجامع : ثم اتفق المسلمون على خالد بن الوليد ففتح الله به وقتلهم ، وقدم البشير بذلك إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ، وقد أخبر بذلك كله ـ ﷺ ـ قبل قدومه (3)

لقد كان لنتيجة هذه السرية وانتصار المسلمين فيها وظهور الروح المعنوية العالية

(1) السيرة النبوية لابن كثير 3 / 473 .

(2) صحيح البخارى بفتح البارى 9 / 54 .

(3) كتاب الجامع ص 292 .

فى القتال عند المسلمين قادة وجنداً أثر كبير على الروح المعنوية فى القتال عند الصليبيين العرب والرومان فيما بعد .

أجل من الحق الذى لاغلو فيه أن نقول : إن النصارى الصليبيين قاتلوا قوماً أشداء أقوياء الشكيمة ، يؤثرون الشهادة على الحياة ، فسرت فى نفوس النصارى الهزيمة والرعب كلما سمعوا بخروج المسلمين للقتال ، وماغزوة تبوك ببعيدة إذ بعد سنة قاد الرسول ـ ﷺ ـ هذه الغزوة ليقاتل النصارى الصليبيين فلم يجرؤ على لقائه وصدامه تلك الحشود الضخمة ؛ لأنها علمت قدرة المسلمين وكفاءتهم فى القتال ، فما كان منهم إلا أن تراجعوا فأخذ النبى ـ ﷺ ـ الجزية من الإمارات على الحدود الشمالية للدولة الإسلامية ثم عاد سالماً غانماً .

وفى معركة اليرموك حين اجتمعت جيوش المسلمين البالغة أربعين ألفاً وحشد لها النصارى الصليبيون مايزيد على المائتى ألف ؛ لأنهم يعرفون بحق قوة الروح المعنوية العالية المتفوقة فى القتال فى الجيش الإسلامى ، فحشدت هذه الحشود الضخمة لتعوض الفارق ، بل ربطت الجنود بالسلاسل حتى لايتمكنوا من الهرب أمام ضربات المسلمين القوية .

غزوة تبوك

أهمية الغزوة وأسبابها

أسماء الغزوة

اشتهرت هذه الغزوة باسم غزوة تبوك ، نسبة إلى مكان هو عين تبوك ، التى انتهى إليها الجيش الإسلامى بقيادة رسول الله ـ ﷺ ـ ، وعسكر فيها المسلمون يتحدون جنود الصليبيين من عرب وعجم ، وهذا المكان يقع فى منتصف الطريق الواقعة بين دمشق والمدينة المنورة

وللغزوة اسم آخر وهو غزوة العسرة ، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم حينما تحدث عن هذه الغزوة فى سورة التوبة ، قال تعالى : ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾(1)

وذكر هذا الاسم الإمام البخارى ـ رحمه الله ـ وغيره ، فقال فى صحيحه : باب غزوة تبوك وهى غزوة العسرة (2)، وعرف هذا الاسم عند الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فقد روى الإمام البخارى ـ رحمه الله ـ فى صحيحه بإسناده إلى يعلى بن أمية عن أبيه قال: غزوت مع النبى ـ ﷺ ـ العسرة . (3)

وسميت بهذا الاسم لشدة مالاقى المسلمون فيها من الضنك ، فقد كان الجو شديد الحرارة ، والمسافة بعيدة ، والسفر شاقاً لقلة المؤونة وقلة الدواب التى تحمل المجاهدين إلى أرض المعركة ، وقلة الماء فى هذا السفر الطويل والحر الشديد ، وكذلك قلة المال الذى يجهز به الجيش وينفق عليه .

ففى تفسير عبد الرزاق عن معمرعن ابن عقيل قال : خرجوا فى قلة من الظهر وفى حر شديد حتى كانواينحرون البعير فيشربون مافى كرشه من الماء ، فكان ذلك عسرة من الماء (4).

---

(1) التوبة : 117 .

(2) صحيح البخارى متن فتح البارى 9/ 175 ـ 176 .

(3) صحيح البخارى متن فتح البارى 9/ 176 .

(4) فتح البارى 9/ 174 .

ويحدثنا سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ عن مدى مابلغ العطش من المسلمين فيقول : خرجنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ إلى تبوك فى قيظ شديد فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع حتى إن كان أحدنا يذهب يلتمس الخلاء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته تنقطع ، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويضعه على بطنه (1)

وللغزوة اسم ثالث هو الفاضحة ذكره الزرقانى ـ رحمه الله ـ فى كتابه شرح المواهب اللدنية (2) ، وسميت بهذا الاسم لأن هذه الغزوة كشفت عن حقيقة المنافقين وهتكت أستارهم ، وفضحت أساليبهم العدائية الماكرة ، وأحقادهم الدفينة ، ونفوسهم الخبيثة وجرائمهم البشعة بحق رسول الله ـ ﷺ ـ والذين ساروا معه لقتال الصليبيين ، فسجلت تخلفهم عن القتال ومحاولة تثبيطهم المؤمنين عن الخروج مع رسول الله ـ ﷺ ـ والتشكيك فى قدرة المسلمين على قتال الروم ، ومحاولة قتلهم رسول الله ـ ﷺ ـ وفى هذه الموضوعات وغيرها وردت شواهد كثيرة من كتاب ربنا ـ تبارك وتعالى ـ علام الغيوب ، وسنة رسول الله ـ ﷺ ـ ، وقصص السيرة المطهرة .

وستتعرض لذلك بالشرح و التفصيل فى حينه ومكانه إن شاء الله تعالى .

(1) مجمع الزوائد 6 / 194 .

(2) انظر : شرح المواهب اللدنية 3 / 62 وسبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد 5 / 626 .

أهمية هذه الغزوة

كانت غزوة تبوك ذات أهمية وذات شأن في تاريخ الإسلام العسكري وفي غزوات رسول الله - ﷺ - بالذات ، إذ كانت آخر غزوة قادها رسول الله - ﷺ ولم يقد غزوة بعدها ، فقد كانت في يوم الخميس ، اليوم الأول من شهر رجب من السنة التاسعة لهجرة المصطفى - ﷺ - ، وكانت موجهة ضد أقوى دولة في العالم آنذاك ، دولة الروم وعملائها من العرب ، وبخاصة أن دولة الروم كانت في نشوة الانتصار على دولة الفرس التي كانت تنازعها على السيادة العالمية آنذاك وهزمتها شر هزيمة .

لقد حشد رسول الله - ﷺ - حشوداً ضخمة في هذه الغزوة ، بل لم يسبق لرسول - ﷺ - أن يحشد مثل هذه الحشود في حياته العسكرية ، وغزواته مع أعدائه، لقد بلغ عدد المقاتلين ثلاثين ألف مقاتل ، وبعض الروايات تزيد على ذلك .

لقد كانت هذه الغزوة عبارة عن حرب شاملة ، شملت كل إمكانات المسلمين العسكرية والمالية والبشرية والسياسية ، فكانت حرباً إجماعية بلغة العسكريين في العصر الحديث ، أي حرب الأمم ضد الأمم ، نعم لقد عرف المسلمون الحرب الإجماعية قبل أن يعرفها العالم بأربعة عشر قرناً ولكن شتان بين حرب الفروسية التي عرفها المسلمون وحرب العدوان التي عرفها العصر الحديث[1] .

لقد كانت هذه الغزوة غزوة هجومية ، إذ خرج رسول الله - ﷺ - من أرض الدولة الإسلامية ، ودخل في أرض الدولة المعادية ومستعمراتها وعملائها من نصارى العرب ، يغزوهم في عقر دارهم ، ويتحداهم وهم في أوج قوتهم وانتصاراتهم فلا يجرؤون على التصدي ، بل ينسحبون إلى العمق القهقري .

لقد كانت هذه الغزوة بعد عام فقط من غزوة مؤتة التي لم يحقق الجيش الإسلامي القليل انتصاراً ساحقاً على الجيش الصليبي الذي بلغ مائتي ألف مقاتل، وقد يكون هناك

---

(1) انظر : الرسول القائد ص 278 .

نفر من الروم أو عملائهم لم يدركوا قوة المسلمين وشدة بأسهم فبقوا على وهمهم واغترارهم بقوتهم ، فأذهبت هذه الغزوة وهمهم وغرورهم .

وتعود أهميتها أيضاً إلى أن رسول الله ـ ﷺ ـ فى هذه الغزوة قد صرح بهدفه وقصده لجميع المقاتلين واستنصر المسلمين فى كل مكان ، فهب المهاجرون والأنصار وأهل مكة وسائر القبائل العربية التى دخلت الإسلام ؛ لأن الرسول ـ ﷺ ـ كان يدرك إمكانات العدو وقدراته من حيث العدد والعدة .

أسباب الغزوة

لقد أرسل الله ـ تبارك وتعالى ـ رسوله محمداً ـ ﷺ ـ للناس كافة كما قال تعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾(1) ، فقام بأعباء الرسالة ، ولاقى مالاقى من العنت والمشقة حتى كتب له الله النصر على أعدائه فى الجزيرة العربية ، فدخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وبخاصة بعد فتح مكة أعتى قلاع الشرك ، وغزوة حنين فجاءت الوفود من القبائل العربية من كل حدب وصوب تعلن دخولها فى الإسلام ، وتسلم قيادها لرسول الله ـ ﷺ ـ ، وصار للمسلمين كيان سياسى ودولة قوية متماسكة البنيان ، قوية الأركان ، ذات جيش قوى معاصر من حيث القيادة والتخطيط والتدريب والتنفيذ والمتابعة ، كان يخرج بالنصر والفوز والغلبة فى معاركه مع أعدائه .

ولقد أقلق انتشار الإسلام وقيام دولته على أرض الجزيرة الحاقدين من نصارى العرب والروم وعملائهم من المنافقين ، لقد أدرك الروم ـ الغزاة المستعمرون ـ خطر الإسلام على نفوذهم فى المنطقة ، وأثره على سلطاتهم الغاشمة ، وامتيازاتهم التى سرقوها فى غفلة من الجماهير بعد قهرها وإذلالها .

لقد علموا أن الإسلام ثورة على الظلم والظالمين ، جاء يحرر المظلومين والمسحوقين من الظلم والاستعباد ، كما قال ربعى بن عامر : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة .

إن الإسلام جاء يلغى الامتيازات الظالمة ، ويرد الحقوق المسلوبة إلى أصحابها ، وهذا أمر مرفوض عند طواغيت العرب وطواغيت الروم ، فهبوا يعدون العدة للانقضاض على الدولة الإسلامية التى تحمل راية الحق والقوة والحرية والقضاء عليها قبل أن تنشر النور خارج الجزيرة العربية .

(1) الأعراف : 158 .

وقد ذكر كتاب السير والمؤرخون أكثر من سبب لهذه الغزوة :

1 ـ حملت الأخبار القادمة من الشام عن طريق التجار أن هرقل زعيم الروم قد حشد حشوداً ضخمة من نصارى العرب والروم لمباغتة المسلمين بهجوم كاسح يقوض أركان دولتهم الإسلامية ، ويهدم بنيانها ، فلما بلغ ذلك النبى ـ ﷺ ـ أمر على التو المسلمين بالإعداد والاستعداد والتجمع للخروج لقتال الروم وعملائهم ، واستنفر القبائل العربية التى دخلت الإسلام ، كما أرسل رسله إلى كل مكان فى الجزيرة العربية يطوفون أرجاءها ويحرضون الناس على قتال الروم ، حتى إذا اجتمع له عدد ضخم من المقاتلين قاده ـ ﷺ ـ بنفسه . (1)

ومما يجدر ذكره هنا أن نصارى العرب قد أغروا هرقل بغزو المسلمين فى الجزيرة إذ أرسلوا له كتاباً يقولون فيه : إن هذا الرجل الذى قد خرج يدعى النبوة هلك ، وأصابتهم سنون ، فهلكت أموالهم ، فإن كنت تريد أن تلحق دينك فالآن ، فاستجاب لهذا الإغراء وأرسل رجلاً من قادته وجهز معه أربعين ألفاً ، فبلغ ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ فأمر بالإعداد والجهاد . (2)

2 ـ ويذكر أيضاً أن اليهود قالوا لرسول الله ـ ﷺ ـ : ياأبا القاسم إن كنت صادقاً فالحق بالشام فإنها أرض الأنبياء ، فغزا تبوك لايريد إلا الشام ، فلما بلغ تبوك أنزل الله تعالى الآيات من سورة الإسراء : ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(3) ، رواه ابن أبى حاتم وأبو سعد والبيهقى بإسناد حسن . (4)

3 ـ ويذكر أيضاً أن الله ـ تبارك وتعالى ـ أمر رسوله ـ ﷺ ـ بغزو الروم وعملائهم من العرب ، فامتثل للأمر الربانى (5) وأمر الله المسلمين أن ينفروا مع رسول الله ـ ﷺ ـ

---

(1) انظر : سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد 5 / 626 وإمتاع الأسماع 1 / 445 وتاريخ الطبرى 3 / 142 وفتح البارى 9 / 174 وعيون الأثر 2 / 216 وزاد المعاد 3 / 527 والسيرة الحلبية 3 / 99 وشرح المواهب اللدنية 3 / 63 والأنساب 1 / 368 والكامل فى التاريخ 2 / 277 والوفا بأحوال المصطفى 2 / 707 .

(2) انظر : سبل الهدى والرشاد 5 / 526 وشرح المواهب اللدنية 3 / 64 .

(3) الإسراء : 76 .

(4) سبل الهدى والرشاد 5 / 526 وانظر فتح البارى 9 / 174 ـ 175 .

(5) كنز العمال 10 / 562 ـ 563 رقم الخبر 30249 .

فى غزوة تبوك ، فقال تعالى : ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (1)

4ـ وذكر سبب آخر هو أن الله ـ عز وجل ـ لما حرم على المشركين تدنيس البيت الحرام والطواف به عراة خشيت قريش على نفسها الفقر بانقطاع المشركين عن أسواقها فعوضها الله بغزوة تبوك إذ كانت نتيجتها الغنائم وأخذ الجزية من الإمارات الواقعة شمال الجزيرة العربية .

قال ابن كثير رحمه الله : [روى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك وغيرهم : أنه لما أمر الله تعالى أن يمنع المشركين من قربان المسجد الحرام فى الحج وغيره ، قالت قريش : لتنقطعن عنا المتاجر والأسواق أيام الحج وليذهبن ماكنا نصيب منها ، فعوضهم الله عن ذلك بالأمر بقتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

قلت : فعزم رسول الله ـ ﷺ ـ على قتال الروم ؛ لأنهم أقرب الناس إليه وأولى الناس بالدعوة الى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله ، وقد قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾(2) ، (3)

أقول : ليس هناك مايمنع أن تجتمع هذه الأسباب كلها لغزوة تبوك أو غزوة العسرة ، فمن المقبول أن تكون غزوة تبوك أمراً ربانياً امتثل له رسول الله ـ ﷺ ـ ونفذه رداً على حشود الروم الحاقدين الذين يتربصون بالدولة الإسلامية الدوائر ، وفى نفس الوقت تكون الغزوة تحدياً لليهود وإثباتاً لهم بأن رسول الله ـ ﷺ ـ لايجبن عن لقاء عدو ولو عظم كالروم ، فيسير إليهم ويغزوهم فى عقر دارهم ، وكان فى هذا الأمر الربانى تعويضاً لقريش وأهل مكة عما افتقدوه من هجران المشركين لأسواقهم وتجاراتهم بسبب منعهم من المسجد الحرام فى الحج وغيره .

(1) الآية 41 من سورة التوبة .

(2) الآية 123 من سورة التوبة .

(3) السيرة النبوية لابن كثير 4/ 3 تفسير ابن كثير 3/ 382 وسبل الهدى والرشاد 5/ 627 وتفسير القرطبى 8/ 106 والسيرة النبوية والآثار المحمدية 2/ 125 .

• مايستفاد من ذلك:

من دراستنا لما سبق نستنبط الأمور التالية :

أولاً : حقد أهل الصليبية على الإسلام : لقد أثبت الواقع والوقائع الكثيرة أن الصليبيين حاقدون على الإسلام وأهله ، قلوبهم تتميز غيظاً ، ونفوسهم تضمر شراً، ظهر ذلك فى علاقة النصارى بكل من اعتنق الإسلام فى بلاد الشام ، وظهر أيضاً فى قتل سفير رسول الله ـ ﷺ ـ إلى ملك غسان الحارث بن عمير الأزدى ـ رضى الله عنه ـ وظهر ذلك فى موقعة مؤتة ، حيث تمالأمائتا ألف صليبى على ثلاثة آلاف مقاتل من المسلمين لاستئصال شأفتهم وإبادة خضرائهم .

وفى هذه الغزوة نرى كيف تعد الجيوش للإغارة على الدولة الإسلامية وتقويض أركانها .

هذا ولم يتوقف الحقد الصليبى عند هذا الحد ، وعند هذه الغزوة ، وظل هذا الحقد يستعر على طول فترات التاريخ ، وكان يظهر على حقيقته فى فترات الضعف الذى أصابت الأمة كالحروب الصليبية وغزو التتار والحرب العالمية الأولى .

أقول : ينبغى أن يدرك كل مسؤول فى بلاد المسلمين الخطر الذى يتهددهم من الصليبيين الحاقدين المتآمرين مع اليهود ، ضد كل مصالح المسلمين ومستقبلهم وأن العالم الغربى وأمريكا والدول الشرقية جميعاً يجتمعون مع اليهود ضد المسلمين ويدعمون دولة اليهود بشرياً بالهجرة اليهودية إلى فلسطين ومادياً بتزويد دولة اليهود بالمال والسلاح .

وعلى هذا فينبغى أن نحذر كل الحذر من هذه الدولة المتحالفة مع دولة اليهود فى فلسطين لتقويتها وتثبيت أركانها وتوسعها على حساب الأرض الإسلامية فى فلسطين وسائر الأراضى العربية ، كما يجب أن نرفض جميع الحلول الاستسلامية التى يقدمونها بحجة الحرص على حل القضية ليسود السلام فى المنطقة .

ثانياً: يقظة المسلمين وحذرهم : لقد كان المسلمون يراقبون تحركات أعدائهم ويرصدونها من خلال وجود عيون لهم فى جبهة الأعداء ، وفى غزوة تبوك تذكر الأخبار أن الروم يستعدون ويعدون العدة لغزو دولة الإسلام فى الجزيرة العربية ، وكان هذا الخبر وصل عن طريق التجار القادمين من بلاد الشام إلى المدينة المنورة حاضرة الدولة

الإسلامية النبوية .

وهذا درس يجب أن يستفيد منه الدعاة والدول والتنظيمات الإسلامية ، نعم ينبغى أن يعرفوا ماعند غيرهم من توجيهات وأفكار وتحركات وخطط ؛ ليكونوا قادرين على اتخاذ المواقف المناسبة والقرارات الناجحة فى مواجهة تلك الخطط والتحركات ، وهذا الأمر من الواجبات فى هذا الدين وهو من فروض الكفاية ، وعلى المسلمين أن يهتموا بهذا الأمر ويعتنوا به عناية فائقة ، فتعرف له من الجهود البشرية والمالية والسياسية والعسكرية ماتتناسب مع أهميته وخطورته .

ثالثاً : أكثر مايغيظ النصارى واليهود وسائر أعداء الإسلام فى كل زمان ومكان أن يقوم للمسلمين دولة ترعى شؤونهم ، وتوحد صفوفهم ؛ حتى يكونوا صخرة صلدة قوية تتحطم عليها كل محاولات التآمر والاعتداء والشغب .

ومن هنا فلا نعجب إذا رأينا اليهود والنصارى والمشركين يتآمرون على هذه الدولة ويسعون لتقويض أركانها وهدم بنيانها .

والمسلمون اليوم بدون دولة إسلامية تنظم شؤونهم وتسوس أمرهم أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام ، وعليهم أن يعملوا ليل نهار لإقامة هذه الدولة وبنائها وتمتين أركانها ؛ حتى يستظلوا بظلها ، ويتنسموا نسمات الحرية فيها .

وليعلموا أن دول العالم اليوم شرقية وغربية ، يهودية واشتراكية ، وثنية ورأسمالية تستميت فى الحيلولة دون قيام هذه الدولة ، وتبذل من الأموال الطائلة وتجند عملاءها لتشويه صورة العاملين لها ، والصدام معهم صداماً عنيفاً شرساً لاهوادة فيه .

ومما يقضى منه العجب أن يقوم من أبناء الأمة الإسلامية فى غياب الوعى الإسلامى من يتكلمون بلغتها وينتسبون إليها ، ينادون بما تنادى به الأمم والدول المعادية للإسلام ، من إقصاء الإسلام عن واقع الحياة ، وإبعاد الأحكام والقوانين الإسلامية من المجتمعات فى بلاد المسلمين ، والإصرار على استيراد قوانين أعدائنا النابعة من ثقافة كافرة أو ملحدة أو منحرفة ، وتناقض ديننا وعاداتنا القيمة وأخلاقنا الحميدة كما تصم المنادين بتطبيق الشريعة الإسلامية بالنقص والتخلف والأصولية .

ومن الغريب أنهم يرددون كالببغاوات مايردده أعداء هذه الأمة الذين حاربوها

وأذلوها واستعبدوها واستعمروها عقوداً من الزمن .

إن الاستقلال الحقيقى للأمة أن تستقل فى حكمها وفى إدارتها وفى سياستها وأن تستقل فى فكرها وثقافتها ، لاتستورد الثقافة والفكر كاستيراد التاجر للبضاعة ، علماً بأن التاجر الناجح يراجع ماعنده من بضاعة ، فإن كانت بضاعة رائجة مطلوبة حرص على بيعها والمتاجرة بها ، وإلا فلا .

والسؤال الذى يطرح نفسه : هل جرب حكامنا أن يحكموا الأمة بالإسلام ؟

لقد حكمت شعوب المنطقة بالاشتراكية والرأسمالية والعلمانية فلم تنقذ الناس من قلقهم واضطراب أمرهم ، ولم تغن الفقير ، بل عممت الفقر على الناس إن كانت اشتراكية ، وسرقت جهود العاملين المخلصين إن كانت رأسمالية ، وجعلت الناس يعيشون فى خواء عقدى وفكرى إن كانت علمانية .

رابعاً : السمة الجدية لهذا الدين : إن هذا الدين قوى فى كل شىء ، ويوجب على أتباعه أن يكونوا أقوياء كذلك فى كل شىء ، ينبغى أن يكونوا أقوياء فى فكرهم ومجاجهم ، وأقوياء فى مواجهة أعدائهم فى ساحات الصراع السياسى والعسكرى .

إن هذا الدين يوجب على أتباعه أن يواجهوا أعداءهم بالفكرة السليمة والحجة الدامغة القوية ولكنه لايقف عند هذا ، بل يوجب على أتباعه أن يواجهوا القوة بالقوة والسلاح بالسلاح ، بل يتعدى إلى أكثر من ذلك إنه يوجب على أتباعه أن يستخدموا القوة إذا غلب على ظنهم أن عدوهم يريد أن يستخدمها ، فعليهم أن يباغتوه ويفاجئوه بما يشل حركته ويكسر شوكته ، ألا ترى أن رسول الله ـ ﷺ ـ حينما سمع بحشود الروم فى بلاد الشام قد قرر على الفور أن يغزوهم وأن يجهز جيشاً ضخماً قوامه ثلاثون ألف مقاتل ويزيد ، مما أرهب جموع الروم وأتباعهم ، وجعلهم يجبنون عن لقاء هذا الجيش اللجب يقوده رسول الله ـ ﷺ ـ القائد العسكرى المرهوب منه والمرعوب منه مسيرة شهر .

خامساً : نفوس المسلمين مهيأة لقتال الروم : من المعلوم فى ذلك الوقت أن دولة الروم ومايتبعها من مستعمرات أقوى دولة فى العالم ، إذ خرجت منتصرة على دولة الفرس ، وكان العرب يهابون قتال الروم ، إلا أن الإسلام قد حرر معتنقيه من الخوف على الأجل والحياة ، وجرأهم على قتال كل جبار عنيد ، فلم يكن مفاجئاً لهم أن

يدعوهم رسول الله ـ ﷺ ـ لقتال الروم وقد قاتلوهم فى مؤتة ، بل إن نفوسهم كانت مهيئة ومتوقعة أن يخرجوا لقتال الروم .

تروى لنا كتب السيرة أن النبى ـ ﷺ ـ حينما أمر أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ أن تجهز رسول الله ـ ﷺ ـ لغزو مكة فدخل والدها أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ فسألها أسئلة عديدة منها ، أيريد رسول الله ـ ﷺ ـ غزو بنى الأصفر ؟ وكرر نفس السؤال على الرسول ـ ﷺ ـ : أتُريد يارسول الله غزو بنى الأصفر ؟

وهذا يدل على الروح المعنوية العالية التى كان يتمتع بها المسلمون وهم سائرون إلى قتال الروم ، أضف إلى هذا أن الحشد الهائل الذى احتشد لقتال الروم يدل على قوة الروح المعنوية فى القتال .

سادساً : من أهداف الغزو أن يتجرأ المسلمون على الروم : ويلوح لى ـ والله أعلم ـ أن الرسول ـ ﷺ ـ قرر أن يخوض معركة مع الروم وأن يغزوهم فى عقر دارهم ليتجرأ المسلمون على الروم ، وتزول هيبة أكبر دولة فى العالم فى نفوس أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ .

وهذا لايتعارض مع الروح المعنوية العالية عند المسلمين بل يزيدها ويؤجج أوارنارها ، لاسيما والوسيلة عملية تأخذ صفة التحدى والصراع الدامى وبذل الأموال والأنفس ، ومن المتوقع أن يسقط فى المعركة شهداء وجرحى ، وتسيل دماء .

وهذا الذى ينبغى أن يسعى إليه القائد باستمرار ، أن ينمى كفاءات الجند وأن يضعف هيبة العدو فى نفوسهم ؛ ويقوى الروح المعنوية ويجعلها تتصاعد فى علو على وجه الدوام والاستمرار ؛ حتى يكون الجند قادرين على إحراز النصر فى أى معركة من المعارك .

سابعاً : مشروعية التورية فى الكلام ، وبخاصة فى الأمور الحربية والسياسات العسكرية ؛ حفاظاً على الأسرار ؛ حتى لاتصل ليد عدو فيسعى ليحول دون تحقيق أهداف المسلمين ومصالحهم ، وكان هذا هو الأسلوب الغالب فى غزوات الرسول ـ ﷺ ـ .

ثامناً : إعلان الرسول ـ ﷺ ـ أنه يريد غزو الروم على غير عادته فى تحركاته

العسكرية كان له أكثر من فائدة :[1]

1ـ لقد أشعر المسلمين أنهم مقبلون على قتال عدو كثير العدد والعدة ، متمرس فى الحرب ، فعليهم أن يبذلوا قصارى جهودهم فى الإعداد والاستعداد ، وأن يحشدوا أكثر عدد ممكن من الرجال والسلاح والمال لقتال هذا العدو والتغلب عليه .

2ـ هذا التصريح جاء مميزاً المؤمنين من المنافقين ، إذ المنافق جبان بخيل ، يضن بماله ونفسه عن قتال الروم وأتباعهم ، والمؤمن شجاع رابط الجأش لاتخيفه كثرة العدو ولاعدته ، لأنه يقاتل لينال إحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة ، فكانت النتيجة أن تخلف المنافقون عن الغزوة ، وهرع المسلمون إلى الغزوة باذلين أموالهم وأنفسهم فى سبيل هذا الشرف .

3ـ هذا الصدام له مابعده ، فهو فى غاية الأهمية من حيث الأثر على النفوس ، فلابد من الاستماتة فى القتال والإصرار على دحر العدو وهزيمته .

تاسعاً : مكانة الجهاد فى قلوب المسلمين : مامن شك أن الجهاد فيه آلام تكرهها النفس كما قال تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [2]

نعم إنه طريق مضن مؤلم ومع هذا فهم حريصون على هذا الطريق والمشاركة فى هذا الشرف وإن كان يؤدىً إلى الهلاك والآلام ، إنه شرف تهون دونه الآلام والجروح والنصب والتعب ، إنه عز الدنيا والآخرة .

وعلى الدعاة اليوم أن يدركوا قيمة الجهاد وضرورته لإنقاذ هذه الأمة من الذل والهوان والغزو الفكرى والعسكرى ، ويؤهلوا أنفسهم وإخوانهم وتلامذتهم تأهيلاً جهادياً ، حتى تحين ساعة الجهاد الحق لتحرير البلاد والعباد .

(1) انظر كتاب السيرة النبوية للمؤلف مع آخرين ص 387

(2) البقرة : 216 .

الإعداد للغزوة

الإعداد للغزوة

الرسول يستنفر المسلمين

لقد قرر رسول الله ـ ﷺ ـ أن يغزو الروم ، فأرسل سفراءه إلى أهل مكة والقبائل العربية التى اعتنقت الإسلام ، يستنفرهم لقتال الروم ، فبعث إلى أسلم بريد بن الحصيب وأمره أن يبلغ الفرع ، وبعث أبارهم الغفارى إلى قومه أن يطلبهم ببلادهم ، وخرج أبوواقد الليثى فى قومه ، وخرج أبو الجعد الضمرى فى قومه بالساحل وبعث رافع بن مكيث وجندب بن مكيث فى جهينة ، وبعث نعيم بن مسعود فى أشجع ، وبعث فى بنى كعب بن عمرو بديل بن ورقاء ، وعمرو بن سالم ، وبشر بن سفيان ، وبعث فى سليم عدة منهم العباس بن مرداس .(1)

لقد استطاع رسول الله ـ ﷺ ـ أن يحشد ثلاثين ألف مقاتل (2) من المهاجرين والأنصار وأهل مكة والقبائل العربية الأخرى ، وبعض الروايات تذكر أن العدد قد وصل إلى سبعين ألف مقاتل (3) . ولقد أعلن رسول الله ـ ﷺ ـ على غير عادته فى غزواته هدفه ووجهته فى القتال ، إذ أعلن صراحة أنه يريد قتال بنى الأصفر (الروم) ، علماً بأن هديه فى معظم غزواته أن يورى (4) فيها ، ولايصرح بهدفه ووجهته وقصده حفاظاً على سرية الحركة ومباغتة العدو .

ولكن تصريحه هنا لايخلو من حكمة ، وهى أن العدو الذى سيقاتله المسلمون كثير العدد والعدة والمسافة بينه وبين المسلمين بعيدة ، أضف إلى ذلك شدة الحر فلابد أن يهيئ المسلمون أنفسهم لقتال عدوهم معنوياً ومادياً وإيمانياً ، كما ينبغى أن يستعدوا لقطع هذه

---

(1) انظر : المغازى للواقدى 3 / 990 والسيرة النبوية والآثار المحمدية لزينى دحلان 2 / 126 والجامع فى السنن والآداب والمغازى والتاريخ 295 وتاريخ الخميس 2 / 123 .

(2)انظر : سبل الهدى والرشاد 5 / 638 .

(3) انظر : سبل الهدى والرشاد 5 / 638 .

(4) التورية فى الكلام : أن يقصد المتحدث معنى ويفهم السامع من الكلام معنى آخر ، والمعنى الآخر هو المعنى المتبادر للذهن ، كأن يسأل عن طريق مكان معين ، وهو يريد السير إلى غيره فيفهم الناس أنه يريد التوجه إلى المكان الذى سأل عنه ، وكقول الرسول ـ ﷺ ـ للذى سأله عنهم فى بدر ممن هم ؟ فقال : «*نحن من ماء*» .

المسافة الطويلة ويوطنوا أنفسهم على تحمل الحر الشديد والعطش الشديد .[1]

ومما يجدر ذكره هنا أن الرسول - ﷺ - حين استنفر المسلمين حثهم على الإكثار من النعال فقال : « *إن الرجل لا يزال راكباً مادام منتعلاً* »[2]

ونهى - ﷺ - عن خروج الضعفاء والذين لايجدون الزاد والراحلة ولايعانون على ذلك .[3]

• دليل الرسول فى هذه الغزوة :

كان رسول الله - ﷺ - يحرص على الاستعانة بأصحاب الخبرة والكفاءة ومن هؤلاء أدلاء الطرق الذين يعرفون الطرق بدقة ، فقد استأجر رسول الله - ﷺ - فى هجرته رجلاً مشركاً اسمه عبد الله بن أريقط ليكون دليلاً له فى هجرته ، وكان رجلاً ماهراً فى معرفة الطريق ، واستعان بالأدلاء فى غزوة أحد وغزوة الحديبية وغيرهما .

وفى غزوة تبوك اختار رسول الله - ﷺ - دليلاً له فى غزوته هذه هو علقمة بن الفغواء الخزاعى .[4]

• تعبئة الجيش الإسلامى :

وماأن سمع المسلمون بأمر رسول الله - ﷺ - حتى هرعوا إلى المدينة ثم تجمعوا فى ثنية الوداع بقيادة رسول الله - ﷺ - وكانوا أكثر من ثلاثين ألف مقاتل ، منهم عشرة آلاف فارس ، فاختار الأمراء والقادة وعقد الألوية والرايات لهم ، فأعطى لواءه الأعظم إلى أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - ، ورايته العظمى إلى الزبير بن العوام - رضى الله عنه - ودفع راية الأوس إلى أسيد بن حضير ، وراية الخزرج إلى أبى دجانة ، وأمر كل بطن من الأنصار أن يتخذ لواءً .[5]

---

(1) انظر : المغازى للواقدى 3 / 990 وجوامع السيرة لابن حزم 197 ومسند بن أبى شيبة 14 / 539 والطبقات الكبرى لابن سعد 2 / 167 والسيرة النبوية لابن كثير 4 / 5 .

(2) انظر : سبل الهدى والرشاد 5 / 638 .

(3) انظر : إمتاع الأسماع 1 / 449 .

(4) انظر : إمتاع الأسماع 1 / 451 وشرح المواهب اللدنية 3 / 72 .

(5) انظر : سبل الهدى والرشاد 5 / 639 والطبقات الكبرى لابن سعد 2 / 166 وإمتاع الأسماع 1 / 450 والسيرة الحلبية 3 / 102 وشرح المواهب اللدنية 3 / 72 والسيرة النبوية والآثار المحمدية 2 / 127 .

واستعمل رسول الله ـ ﷺ ـ على حرسه بتبوك من يوم قدم إلى أن رحل منها عباد بن بشر ، فكان ـ رضى الله عنه ـ يطوف فى أصحابه على العسكر (1) .

• مايستفاد من ذلك :

أولاً : سرعة استجابة المؤمنين لدعوة الرسول ـ ﷺ ـ للنفير العام : حقاً لقد كان صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ خير القرون فى كل شيء فى إيمانهم وفى جهادهم وفى بذلهم وفى تضحيتهم ، ويدلك على هذا ذلك الحشد الهائل من الجنود فى غضون زمن قصير جداً نسبياً هذا الحشد الذى بلغ ثلاثين ألفاً وبعض الروايات تذكر عدداً ضعفى هذا العدد ونيفاً .

ثانياً : الإيمان أساس الرجولة والشجاعة : هذه الجماهير المؤمنة من الآلاف المؤلفة التى هبت بسرعة فائقة تستجيب لنداء رسول الله ـ ﷺ ـ وتتطوع فى الجيش الإسلامى الذى سيصطدم مع أعتى قوة عالمية ، وقد تتعرض للقتل والإبادة .

من الذى حركها ودفعها لتندفع للقتال ؟

إن الذى دفع هؤلاء المجاهدين لتحمل المشاق والتعرض للأذى هو العقيدة التى يحملونها فى قلوبهم ، هذه العقيدة التى تقرر أن الأجل بيد الله وأن الرزق بيد الله وأن الجرأة والشجاعة والإقدام فى قتال الأعداء لاتنقص من الأجل لحظة واحدة ، وأن الجبن والتقاعس عن لقاء العدو لايزيد فى الأجل ثانية واحدة ، تجعل صاحبها لايعرف الخوف إلى قلبه سبيلاً ، ولااليأس إلى نفسه طريقاً .

هذه هى العقيدة هى التى توجه أصحابها لاقتحام الحروب واقتحام الحدود وتحرير الناس من استبداد طواغيت الأرض .

ثالثاً : التطور السريع لعدد المقاتلين بشكل عام ولسلاح الفرسان بشكل خاص : إن الذى يدرس تاريخ الحركة الإسلامية ، ونشوء الدولة الإسلامية ومؤسساتها العامة ، وفى مقدمة هذه المؤسسات الجيش الإسلامى القوة الضاربة للدولة الإسلامية ، يلاحظ أن هناك تطوراً سريعاً جداً فى مجال القوة العسكرية إذ بلغ عدد المقاتلين فى غزوة بدر

(1) سبل الهدى والرشاد 5 / 652 .

الكبرى ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلاً ، وفى غزوة أحد بلغ العدد سبعمائة مقاتل تقريباً وفى غزوة الأحزاب ثلاثة آلاف مقاتل ، وفى غزوة فتح مكة عشرة آلاف ، وفى غزوة حنين بلغ العدد اثنى عشر ألف مقاتل وأخيراً بلغ عدد المقاتلين فى تبوك ثلاثين ألف مقاتل أو يزيد .

وإن الدارس يلاحظ هذا التطور السريع الملفت للنظر فى مجال سلاح الفرسان ، ففى غزوة بدر كان عددالفرسان فارسين ، وفى غزوة أحد لم يتجاوز عدد الفرسان ماكان فى بدر ويقفز العدد بعد ست سنوات فقط إلى عشرة آلاف فارس ، وهذا يعود إلى انتشار الإسلام فى الجزيرة العربية وبخاصة فى البادية ؛ ذلك لأن أهلها يهتمون باقتناء الخيول وتربيتها أكثر من أبناء المدن .

رابعاً : لم اختار الرسول ـ ﷺ ـ قيادة هذه الوقعة ؟

إن الذى يقرأ السيرة النبوية بوجه العموم والوقائع العسكرية فى العهد النبوى يجد أن هناك سرايا وبعوثاً ومعارك لم يقدها رسول الله ـ ﷺ ـ بل اختارلها الأمراء وزودهم بالوصايا والتوجيهات العسكرية والإنسانية وآداب القتال .

ونجده فى هذه الغزوة قد اختار لنفسه أن يقود هذه المعركة ، كما اختار لنفسه أن يقود معركة بدر وأحد والخندق وبنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع وخيبر وفتح مكة وحنين ؛ ذلك لأن الرسول ـ ﷺ ـ كان يختار لنفسه قيادة المعارك الصعبة ، وتبوك من هذه المعارك ؛ لأنها صدام مع دولة ذات خبرة بالحروب والقتال ، وذات قوة فى العدد والعدة ، وتملك قادة عسكريين تمرسوا فى الحروب ، فلابد أن يواجههم قائد محنك شجاع مجرب ذو قدرة فائقة على التخطيط ومواجهة الأمور المستجدة الصعبة .

إن ممالاشك فيه أن الفارق بين قوةالروم وقوة المسلمين فرق بين واضح ، فهم أضعاف أضعاف المسلمين فى العدد والسلاح ، ومن هنا قامت الحاجة الملحة لتعوض هذا البون الشاسع بين القوتين ، ولايعوض ذلك إلاقيادة حكيمة راشدة حاسمة حازمة تتمثل فى رسول الله ـ ﷺ ـ .

خامساً : وسائل الاتصال العسكرى شاملة وسريعة : لقد لاحظنا أن النبى ـ ﷺ ـ كقائد قد كانت له وسائل شاملة وسريعة فى الاتصال بالقبائل والبلاد عند اتخاذ قراره

العسكرى بالتوجه للصدام مع أكبر دولة فى العالم ، فقد ظهرلنا أن له رسلاً أرسلهم إلى القبائل والبلاد لتنفيذ أمره العسكرى بالنفير والاستنفار والتجمع فى مكان محدد ثم السير إلى تبوك ، فتم ذلك فى وقت سريع .

أقول : إن قنوات الاتصال بين القائد والفرق وسائر الكوادر فى الجيوش المقاتلة ينبغى أن تكون سريعة ميسرة ، حتى تصل المعلومات والأوامر من القيادة إلى القاعدة العسكرية وحتى تصل ملاحظات الذين فى الصفوف الأولى فى القتال إلى القيادة ، وتطورات الموقف فى القتال ، حتى يتسنى للقيادة أن تتخذ القرار المناسب ، وإن أى بطء فى الاتصال أو تأخير فى المعلومات والأوامر من وإلى القيادة أو القاعدة العسكرية قد يفوت عليها كثيراً من الفوائد ويجر عليها كثيراً من متاعب جمة ومصاعب لاطاقة لها بها .

إن كثيراً من الهزائم فى القديم والحديث وكثيراً من الحركات العسكرية كتب لها الفشل فى عالمنا المعاصر بسبب نوعية طريقة الاتصال ومدى سرعتها أو بطئها .

سادساً : الاهتمام براحة الجند : نلاحظ أن الرسول ـ ﷺ ـ كان يهتم براحة الجند ، فيسعى لتوفير وسيلة النقل المناسبة ، كما يرشدهم إلى ضرورة الإكثار من لبس النعال ، ويحذرهم من الحفاء ؛ لأن لبس النعل يجنب القدمين كثيراً من الآلام التى تعيق السير وتضعف القدرة على الحركة ، تأمل قول رسول الله ـ ﷺ ـ : «*إن الرجل لا يزال راكباً مادام منتعلاً* » .

سابعاً : منع الضعفاء من الخروج للقتال عاقبته سليمة : لقد كان فريق من الضعفاء يحرص على الخروج للمشاركة فى شرف الجهاد الى تبوك ، ولكن رسول الله ـ ﷺ ـ نهى هؤلاء الضعفاء والذين لايجدون الزاد والراحلة عن الخروج ، ولم يسمح لهم بذلك ، وهذا ولاشك فى مصلحة الجيش الغازى ؛ لأن هؤلاء الضعفاء والذين لايجدون وسيلة نقل تنقلهم إذا خرجوا سيكونون عبئاً على الجيش ومعوقاً لسيره ، مما يشغله عن هدفه الأسمى وهو لقاء العدو والاستعداد له قبل اللقاء ، أما عند اللقاء إن بقى أحد من هؤلاء الضعفاء فسيوجه العدو ضربته إليه وهو صيد ثمين ، وحصول هذا يوهن قوة المسلمين ويضعف معنوياتهم إن رأوا الضربات المميتة توجه إلى إخوانهم العزل ، وتصيب منهم

مقتلاً ، لهذه الحكمة ولغيرها يلوح لنا أن رسول الله - ﷺ - منع أولئك من السير إلى تبوك .

ثامناً : حملة الألوية والرايات شجعان أكفاء : من الملاحظ أن النبى - ﷺ - قد اختار فى غزوة تبوك حملة الألوية والرايات التالية أسماؤهم : أبو بكر الصديق والزبير بن العوام وأسيد بن حضير وأبو دجانة ، ولو قرأنا سير هؤلاء الصحابة لوجدناها مليئة بالشجاعة والثبات والتضحية والبذل والإخلاص ، وهذه صفات ضرورية لحامل اللواء أو الراية ؛ لأن سهام الأعداء ستتوجه إليه ؛ ولأن ثباته وصبره وشجاعته ترفع الروح المعنوية عند سائر الجند ، وضعفه وجبنه يؤثران تأثيراً سلبياً على معنويات الجند فى القتال ، أضف إلى ذلك فهم أيضاً أصحاب مكانة فى المسلمين وأصحاب رأى سديد وتجربة رائدة فى الإدارة وفنون الحرب والقتال .

تاسعاً : التوفيق فى اختيار المسؤول عن الحرس : لقد كان اختيار رسول الله - ﷺ - فى تبوك موفقاً ، ويدل هذا الاختيار أيضاً على معرفة الرسول - ﷺ - بمعاد ن الرجال وأنه يضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ويكلفه بالمهمة التى يتقنها ، لقد اختار رسول الله - ﷺ - عباد بن بشر قائداً للحرس فى تبوك ، وعباد - رضى الله عنه - قد اختاره - ﷺ - ليحرس الجيش فى غزوة ذات الرقاع ، وهو أحد الذين أرسلهم رسول الله - ﷺ - لقتل كعب بن الأشرف ، ففعلوا ، وهو من أوائل الذين استجابوا لنداء رسول الله - ﷺ - فى غزوة ذى قرد حين اعتدى المشركون على إبل المدينة ، وهرع ليلحق بابن الأكوع ويساعده ضد المشركين اللصوص الغاصبين .

أقول : إن المسؤول ينبغى أن تكون لديه القدرة العقلية على تقويم الرجال وتقدير كفاءاتهم ، كما ينبغى عليه أن تكون لديه معلومات واسعة ومفصلة عن صفاتهم وخصائصهم حتى يحكم لهم أو عليهم ، وعليه أيضاً أن يختار للمسؤولية من يحقق المصلحة العامة للرعية دون محاباة لمحب أو ظلم لمبغض .

وأقول أيضاً:

إن ماتعانيه الشعوب الإسلامية فى أزمات اقتصادية وتربوية وسياسية ، ومن ذهاب للأوطان وعدم الاهتمام بالصالح العام يعود إلى أن هذه الأمة ، وبخاصة الذين يتسلمون دفة المسؤولية لايعرفون معادن الرجال ، وليس لديهم الخبرة الواسعة والمعلومات المفصلة

عمن سيختارونه لتولى منصب من المناصب الخطيرة الشأن .

إن النقص فى المعلومات والخبرة وسداد الرأى والنزاهة فى الحكم على الأشخاص يسبب أزمة تهون بعدها وأمامها كل الأزمات، إذ يوضع الرجل المناسب فى المكان غير المناسب ويوضع الرجل غير المناسب فى المكان الذى لايستحقه ، ولايقوم بأعبائه، ونتيجة لهذا فإن نجم الأمة يبدأ بالأفول ، وشخصيتها تضعف وقوتها تضمحل حتى تصير نهباً لكل معتد ، وغنيمة مستساغة لكل من يغزو.

عاشراً : ـ التدريب الشاق : لقد كان من فوائد هذه الغزوة أن قطع المجاهدون مسافات طويلة فى جو شديد الحر ، قليل الماء، وهذا تدريب يفيد الجند ، ويكسبهم المنعة والقوة والقدرة على تحمل المشاق فى المستقبل.

والجيوش المعاصرة تعنى بهذا الجانب ، وهو تدريب جنودها على القيام بأفعال شاقة، والحياة فى ظروف صعبة قاسية ، حتى إذا ماجابهوا مثل هذه الظروف الصعبة تجاوزوها دون أن تؤثر على الروح المعنوية فى القتال ، أوعلى قدرتهم الجسمية فتضعف من قدرتهم على التصدى والنزال .

وفى هذا الدرس يقول الأستاذ محمود شيت خطاب :

تعمل الجيوش الحديثة على تدريب جنودها تدريباً عنيفاً كاجتياز موانع وعراقيل صعبة جداً ، وقطع مسافات طويلة فى ظروف جوية مختلفة ، وحرمان من الطعام والماء بعض الوقت ، وذلك لإعداد هؤلاء الجنود لتحمل أصعب المواقف المحتمل مصادفتها فى الحرب . .

لقد تحمل جيش العسرة مشقات لاتقل صعوبة عن مشقات هذا التدريب العنيف ، إن لم تكن أصعب منها بكثير ، لقد تركوا المدينة فى موسم نضج ثمارها، وقطعوا مسافات طويلة شاقة فى صحراء الجزيرة العربية صيفاً ، وتحملوا الجوع والعطش مدة طويلة، يقول عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : (خرجنا إلى تبوك فى قيظ شديد ، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشربه ، ثم يجعل مابقى من الماء على كبده).

إن غزوة تبوك تدريب عنيف للمسلمين ، كان غرض الرسول ـ ﷺ ـ منه إعدادهم لتحمل رسالة حماية حرية نشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية، وتكوين

الإمبراطورية[1] الإسلامية المترامية الأطراف ، فقد كانت هذه الغزوة آخر غزوات الرسول ـ ﷺ ـ فلابد من الاطمئنان إلى كفاءة جنوده قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى .[2]

حادى عشر : ـ الكشف عن معادن الناس وكفاءاتهم ومستوياتهم الإيمانية :

لقد اتخذ رسول الله ـ ﷺ ـ قراره بالسير إلى تبوك والصدام مع أكبر دولة فى العالم آن ذاك ، وغزوها فى عقر دارها ، ويقطع تلك المسافات الطويلة ؛ ليختبر معادن الرجال الذين معه ، وقدراتهم وكفاءاتهم ومستوياتهم الإيمانية ؛ لأن الشدائد محك الرجال ؛ ولأن الظروف الصعبة القاسية تفرز الناس فرزاً دقيقاً .

وللأستاذ الشهيد حسن البنا ـ رحمه الله تعالى ـ كلام جميل مفيد فى هذا الشأن قال ـ رحمه الله ـ : (فلما أحس رسول الله ـ ﷺ ـ دنو أجله المبارك ، جعل من غزوة تبوك ، تلك الغزوة التى تخلف فيها هؤلاء الثلاثة ؛ لتكون اختباراً وكشفاً عن قلوب المؤمنين والمنافقين والمترددين والضعفاء ، فأذن المسلمين بالغزو فى ساعة العسرة ، فى الوقت الذى اشتد فيه القيظ ، وقربت الثمار أن تنضج ، وطلب ـ ﷺ ـ إليهم أن يخرجوا لملاقاة الروم ومن شايعهم من العرب ، وكان للعشرة من المسلمين البعير الواحد ، وزادهم التمر والشعير ، وربما اقتسم الاثنان التمرة الواحدة .

دعا رسول الله ـ ﷺ ـ أصحابه واستنفرهم على أعدائهم فى هذه الظروف الدقيقة ، وكان طبيعياً أن يتأخر المنافقون ، ويتردد الضعفاء فليتمسون المعاذير ، ومنهم من تخلف ، ولم يخرج معه إلا الخلص الأقوياء الثابتون من أصحابه ـ ﷺ ـ [3]

---

(1) إن النظام الإمبراطورى والدولة الإمبراطورية تختلف عن الدولة الإسلامية ، فالأولى تقوم على نظام وضعى ديكتاتورى والثانية تعتمد على نظام ربانى شورى يحارب الاستبداد الفردى والطبقى وكل أنواع الاستبداد .

والمؤلف كاتب إسلامى معروف بنقاء تصوره الإسلامى ، وصفاء فكره وسداد رأيه فلم يقصد أن يصف الدولة الإسلامية فى عهد الرسول ـ ﷺ ـ ولابعده بالإمبراطورية بالمفهوم الإصطلاحى وإنما قصد أن تتسع رقعة الدولة الإسلامية اتساع الدولة الإمبراطورية ليس إلا ، هذا ماأردنا التنويه إليه وتوضيحه .

(2) الرسول القائد 281 ـ 282 .

(3) نظرات فى السيرة النبوية للإمام الشهيد حسن البنا ص 102 .

• بذل المسلمين

لقد كانت استجابة المؤمنين لأمر رسول الله ـ ﷺ ـ القاضى بغزو بنى الأصفر قوية وشاملة ، فقد تطوع الغنى والفقير للانخراط فى سلك الجيش الإسلامى الغازى، إلا أن الظروف بشكل عام كانت عسرة ، وبخاصة مايتعلق بتجهيز المقاتلين ونقلهم إلى أرض المعركة ، فالمال قليل والظهر قليل ، فما كان من رسول الله ـ ﷺ ـ إلا أن حض الناس على البذل والإنفاق كلا حسب طاقته ومكنته وقدرته ، فتقدم العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ـ ﷺ ـ وطلحة بن عبيد الله وسعد بن عبادة بأموال كثيرة ، كما قدم عبد الرحمن بن عوف مائتى أوقية وتصدق عاصم بن عدى بسبعين وسقاً من تمر . [1]

وشارك النساء فى هذا الشرف ، فبذلن من أموالهن وحليهن تجهيز المقاتلين فى جيش العسرة ، قال فى تاريخ الخميس : (وبعثت النساء كل ماقدرن عليه من مسك[2] ومعاضد[3] وخلاخل [4] وقرط[5] وخواتم)[6]

أما أبو بكر وعمر وعثمان ـ رضى الله عنهم ـ وعن صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ أجمعين فقد بذلوا من أموالهم مايستحق الذكر المفصل لكى نقتدى ونتأثر .

• بذل أبى بكر وعمر :

روى الحاكم ـ رحمه الله ـ فى مستدركه بإسناده إلى زيد بن أسلم عن أبيه قال : (سمعت عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يقول : أمرنا رسول الله ـ ﷺ ـ يوماً أن نتصدق فوافق ذلك مالاً عندى ، فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً فجئت بنصف مالى ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : ما أبقيت لأهلك ؟ فقلت : مثله وأتى أبو بكر بكل

---

(1) انظر تاريخ الخميس 2 / 123 وحياة سيد العرب 4 / 60 وسبل الهدى والرشاد 5 / 628 والأنساب 1 / 368 والسيرة الحلبية 3 / 101 وإمتاع الأسماع 14 / 446ـ447

(2) المسك : أساور اليد

(3) المعاضد : مايوضع فى العضد من حلى كالأساور

(4) الخلاخل : جمع خلخال وهو مايوضع فى الساق من حلى

(5) قرط : مايوضع فى الأذن من حلى كالحلق وغيره .

(6) تاريخ الخميس 2 / 123

ماعنده فقال : ياأبا بكر ماأبقيت لأهلك ؟ فقال : أبقيت لهم الله ورسوله ، فقلت : لاأسابقك إلى شىء أبداً)[1]

قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم .[2]

هذا وقد وافقه الحافظ الذهبى على ذلك فى التلخيص المطبوع بحاشية المستدرك

قلت : ورواه أيضاً الدارمى ـ رحمه الله ـ فى سننه 1 / 329 وقال فى حاشية سنن الدارمى 1 / 329 . ورواه أيضاً أبو داود والترمذى .

- **بذل عثمان بن عفان :**

لقد بذل عثمان ـ رضى الله عنه ـ فى هذه الغزوة ماأثار إعجاب المؤمنين جميعاً وحاز ثقة رسول الله ـ ﷺ ـ ورضاه ، بل أعلن رسول الله ـ ﷺ ـ أمام المؤمنين أن هذا البذل يشفع له عند ربه وينزله المنزلة الرفيعة . فلقد كان ـ رضى الله عنه ـ أكثر صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ بذلاً ، إذ بلغ مجموع ماتبرع به ما يعدل تجهيز ثلث جيش العسرة البالغ ثلاثين ألف مقاتل ، والأخبار التى تتحدث عن بذله كثيرة ولكننا نسوق منها مايلى :

روى الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ فى مسنده بإسناده إلى عبد الرحمن بن خباب السلمى قال : « *خرج رسول الله ـ ﷺ ـ فحث على جيش العسرة ، فقال عثمان ابن عفان : علىّ مائة بعير بأحلاسها [3] وأقتابها [4] قال : ثم حث فقال عثمان : علىّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها ، قال : ثم نزل مرقاة [5] من المنبر ، ثم حث فقال عثمان بن عفان : علىّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها ، قال : فرأيت النبى ـ ﷺ ـ يقول بيده : هكذا ، يحركها ، وأخرج عبد الصمد يده كالمتعجب ، ماعلى عثمان ماعمل بعد هذا*[6] ».

---

(1) المستدرك على الصحيحين 1 / 414 .

(2) تلخيص الحافظ بحاشية المستدرك 1 / 414 .

(3) الأحلاس : جمع حلس وهو الكساء الذى يلى ظهر البعير تحت القتب .

(4) الأقتاب : جمع قتب وهو مايوضع على ظهر البعير كالإكاف للحمار والسرج للفرس .

(5) المرقاة من المنبر الدرجة منه .

(6) الفتح الربانى 21 / 193 .

وروى الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ ايضاً في مسنده بإسناده إلى عبد الرحمن بن سمرة قال : « *جاء عثمان بن عفان إلى النبي ـ ﷺ ـ بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ـ ﷺ ـ جيش العسرة ، قال : فصبها في حجر النبي ـ ﷺ ـ ، فجعل النبي ـ ﷺ ـ يقلبها بيده ويقول : ماضر* [1] *ابن عفان ماعمل بعد اليوم يرددها مراراً* »[2]

وروى الترمذي ـ رحمه الله ـ في سننه بإسناده إلى عبد الرحمن بن خباب قال : « *شهدت النبي ـ ﷺ ـ وهو يحث العسرة فقال عثمان بن عفان : يارسول الله عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، ثم حضَّ على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال : يارسول الله عليَّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، ثم حضَّ على الجيش فقال عثمان بن عفان : يارسول الله عليَّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، فأنا رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ ينزل عن المنبر وهو يقول : ماعلى عثمان ماعمل بعد هذه ، ماعلى عثمان ماعمل بعد هذه ، ماعلى عثمان ماعمل بعد هذه* »[3]

وقال في الدرر : وأنفق عثمان ـ رضي الله عنه ـ نفقة عظيمة جهز بها جماعة من المعسرين في تلك الغزوة ، وروى أنه حملهم في تلك الغزوة على تسعمائة بعير ومائة فرس، وجهزهم حتى لم يفقدوا عقالاً ولا شكالاً[4] ، وروى أنه أنفق فيها ألف دينار[5] .

وعن الأحنف بن قيس قال : سمعت عثمان بن عفان يقول لسعد بن أبي وقاص وعلي والزبير وطلحة : أنشدكم بالله هل تعلمون أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : من جهز جيش العسرة غفر الله له ، فجهزتهم حتى مايفقدون خطاماً[6] ولا عقالاً[7] ؟ قالوا :

---

(1) قال في مختصر بلوغ الأماني 21 / 193 : يحتمل أن نفي الضر لعدم وقوع زلة ، فهو إشارة إلى أن الله منعه منها ببركة إنفاقه في سبيل الله ، وأنه صالح لأن يغفر له ماعسا، أن يكون ذنباً إن وقع ولايلزم من الصلاحية وجوده ، وقد أظهر الله صدق رسوله فإنه لم يزل على أعمال أهل الجنة حتى فارق الدنيا .

(2) الفتح الرباني 21 / 193 .

(3) سنن الترمذي 5 / 625 .

(4) الشكال : حبل تربط به قوائم الدابة .

(5) الدرر ص 178 وانظر جوامع السيرة لابن حزم 197 .

(6) الخطام : الزمام

(7) العقال : الرباط .

اللهم نعم.[1]

وذكر الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه قول النبي ـ ﷺ ـ : «*من جهز جيش العسرة فله الجنة ، فجهزه عثمان* »[2]

قال في سبل الهدى والرشاد : (وجهز عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ ثلث ذلك الجيش حتى أنه كان يقال : مابقيت لهم حاجة ، حتى كفاهم شُنُق[3] أسقيتهم)[4]

- **مايستفاد من ذلك:**

أولاً : ـ بذل المال جهاد : إن الجهاد في الإسلام أربع مراتب هي جهاد النفس، وجهاد الشيطان وجهاد الكفار والمنافقين ، وجهاد الظالمين.

وجهاد الكافرين أربع مراتب بالقلب واللسان والمال والنفس ، وفي غزوة تبوك تحققت المراتب الأربع فكان كل مسلم خرج في الغزوة أو بقي معذوراً يكره الكفار وينكر عليهم بلسانه ويقاومهم كذلك والذين خرجوا لتبوك إنما هم مجاهدون بأنفسهم ، وهناك نفر من المؤمنين جاهدوا في سبيل الله بأموالهم ، فإن الذي يجهز الغزاة أو يساعد في ذلك فقد عده الإسلام غازياً ، قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «*من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازياً في أهله في سبيل الله فقد غزا* »وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾وبعض الناس قد تقوم ظروف تحول بينهم وبين الخروج للقتال كالنساء مثلاً ، فلا يفوتهم المشاركة بالجهاد ببذل الأموال.

أقول : إن الجهاد بالمال من أعلى مراتب الجهاد ؛ ذلك لأن المال محبوب عند الإنسان قال تعالى : ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ ، وقال سبحانه عن الإنسان: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ فإذا خالف هذا الحد وتهذب طبعه وغالب هواه فبذل ماله فهو مجاهد بحق ، أضف إلى ذلك أهمية المال بالنسبة إلى المجاهدين ، فبالمال يشترى السلاح ، ويزود

(1) السيرة النبوية لابن كثير 4/ 7 .

(2) صحيح البخارى متن فتح البارى 8/ 54 .

(3) شنق : ماتربط بها الأسقية .

(4) سبل الهدى والرشاد 5/ 629 .

الرجال ، وينفق على الجيوش .

ثانياً : ـ التنافس فى البذل مشروع : نستنبط هذا من تنافس عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ مع أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ ، فقد كان عمر يغلب على ظنه فى هذه المرة أنه سيتفوق على أبى بكر فى البذل حين يتبرع بنصف ماله من الدراهم ، ووصل ذلك إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فأقر عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ولم ينكر عليه ذلك .

ولكننى هنا أريد أن أقول : إن التنافس فى البذل لايؤخذ على إطلاقه فى المشروعية بل أقيده على ألا يكون الباعث على ذلك الفخر والعجب ، كمالايبعث التبرع فى النفس الرياء ؛ لأن ذلك يبطل العمل ويهلك صاحبه ، فإن الرياء شرك ؛ والعجب والغرور مكروهان عند الله تعالى للعبد المؤمن

ثالثاً :ـ منقبة من مناقب عثمان : لقد كان عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ ذا مناقب عديدة وخصال حميدة مجيدة تعرضت لها وعرضتها كتب السنة وغيرها ، ومن هذه المناقب الجليلة بذله بشكل عام وكرمه ، وبذله فى غزوة تبوك وتجهيز جيش العسرة بشكل خاص فقد فاق بذله كل توقع ، ولهذا قال رسول الله ـ ﷺ ـ وقد رأى مابذل عثمان من ذهب وإبل : ماعلى عثمان ماعمل بعد هذه ثلاث مرات .

رابعاً : حث المسلمين على البذل وتكراره مستحب : هذا مادل عليه فعل رسول الله ـ ﷺ ـ وقوله . فقد تكرر حث النبى ـ ﷺ ـ على البذل ثلاث مرات ، وكان عثمان ـ رضى الله عنه ـ يزيد فى البذل كل مرة .

إن الحث على البذل وتكرار ذلك له أثره فى نفوس المخاطبين ، إذ يدفعهم لمزيد من البذل والعطاء ، فهو وسيلة ناجحة لاستثارة الهمم وتصعيد للتفاعل مع الذى يحث الناس ويدعوهم إلى البذل ، وفى نفس الوقت نرى أن هذا الأسلوب يجعل الإنسان يدرك الحاجة الملحة إلى البذل .

خامساً : جواز ثناء الإنسان على نفسه على ألا يخالط ذلك رياء أو طلب سمعة :

هذا مانستنبطه من قول عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ لسعد بن أبى وقاص وعلى ابن أبى طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله : أنشدكم بالله هل تعلمون أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : من جهز جيش العسرة غفر الله له ، فجهزتهم حتى مايفقدون

خطاماً ولاعقالاً ؟ قالوا : اللهم نعم .

وعثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ ماقال ذلك لطلب جاه أورياء ، وإنما أراد أن يبصر المخاطبين بخطورة مايقدم عليه أهل الفتنة حين يعتدون على أمير المؤمنين وله هذه المنزلة السابقة فى دين الله وعند الله وعند رسوله

• قصة البكائين: (1)

وعلى كثرة مابذل المسلمون أغنياء وفقراء فى هذه الغزوة فقد بقى أناس من صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ يتوقون للجهاد مع رسول الله ـ ﷺ ـ ولكنهم لم يملكوا الزاد والراحلة ولم يستطع أن يوفر لهم رسول الله ـ ﷺ ـ ذلك واعتذر لهم أنه لايجد من الظهر مايحملهم عليه ، فتولوا يبكون لفوات شرف الجهاد مع رسول الله ـ ﷺ ـ عنهم .

قال فى سبل الهدى والرشاد : ولما خرج البكاء ون من عند رسول الله ـ ﷺ ـ وقد أعلمهم أنه لايجد مايحملهم عليه لقى يامين بن عمرو النضرى أبا ليلى وعبد الله بن مغفل وهما يبكيان فقال : مايبكيكما ؟ قالا : جئنا رسول الله ـ ﷺ ـ ليحملنا ، فلم نجد عنده مايحملنا عليه ، وليس عندنا مانتقوى به على الخروج ، ونحن نكره أن تفوتنا غزوة مع رسول الله ـ ﷺ ـ فأعطاهما ناضحاً له ، وزود كل واحد منهما بصاع من التمر ، وحمل العباس بن عبد المطلب ـ رضى الله عنه ـ رجلين منهم ، وحمل عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ ثلاثة نفر (2) مجاهدين لارواحل لهم :

روى الإمام البخارى ـ رحمه الله ـ فى صحيحه بإسناده إلى أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ قال : أرسلنى أصحابى إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ، أسأله الحملان لهم إذ هم معه فى جيش العسرة ، وهى غزوة تبوك ، فقلت : يانبى الله إن أصحابى أرسلونى إليك لتحملهم ، فقال : والله لاأحملكم على شىء ، ووافقته وهو غضبان ولاأشعر ،

(1) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد 2 / 165 والسيرة النبوية لابن هشام 2 / 518 وتاريخ الطبرى 3 / 143 والسيرة النبوية لابن كثير 4 / 8 ـ 9 والمغازى للواقدى 3 / 993 ـ 994 وسبل الهدى والرشاد 5 / 633 ـ 634 والسيرة الحلبية 3 / 102 وعيون الأثر 2 / 216 والوفا بأحوال المصطفى 2 / 707 وفتح البارى 9 / 175 .

(2) سبل الهدى والرشاد 5 / 635 وانظر تاريخ الخميس 2 / 124 والمغازى للواقدى 3 / 993 ـ 994 وإمتاع الأسماع 1 / 448 وشرح المواهب اللدنية 3 / 67 .

ورجعت حزيناً من منع النبى ـ ﷺ ـ ومن مخافة أن يكون النبى ـ ﷺ ـ وجد فى نفسه على فرجعت إلى أصحابى فأخبرتهم الذى قال النبى ـ ﷺ ـ فلم ألبث إلا سويعة إذ سمعت بلالاً ينادى : أى عبد الله بن قيس ، فأجبته ، فقال : أجب رسول الله ـ ﷺ ـ يدعوك ، فلما أتيته قال : خذ هذين القرينين وهذين القرينين لستةأبعرة ابتاعهن حيئذ من سعد ، فانطلق بهن إلى أصحابك فقل : إن الله ،أوقال : إن رسول الله ـ ﷺ ـ يحملكم على هؤلاء فاركبوهن ، فانطلقت إليهم بهن فقلت : إن النبى ـ ﷺ ـ يحملكم على هؤلاء ولكنى والله لا أدعكم حتى ينطلق معى بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ـ ﷺ ـ لاتظنوا أنى حدثتكم شيئاً لم يقله رسول الله ـ ﷺ ـ فقالوا لى : إنك عندنا لمصدق ، ولنفعلن ماأحببت ، فانطلق أبو موسى بنفر منهم حتى أتوا الذين سمعوا قول رسول الله ـ ﷺ ـ منعه إياهم ثم إعطاءهم بعد ، فحدثوهم بمثل ماحدثهم به أبو موسى (1)

● المتصدق بعرضه: (2)

كان علبة بن زيد ـ رضى الله عنه ـ تواقاً لمصاحبة رسول الله ـ ﷺ ـ فى غزوة تبوك مجاهداً أعداء الله ورسوله ـ ﷺ ـ ولكنه لايملك من الإبل مايحمله إلى أرض المعركة ، ولم يجد رسول الله ـ ﷺ ـ مايحمله عليه ، فاعتذر له ، فخرج من عند رسول الله ـ ﷺ ـ يبكى لفوات ذلك عليه ، ولما جن عليه الليل توضأ ثم صلى فى جوف الليل ماشاء الله له أن يصلى ثم بكى ، وانهمرت دموعه الغزيرة على وجنتيه ، وقال بقلب مخلص ، ونفس صافية ، ولسان ضارع إلى الله : اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ، ورغبت فيه ، ثم لم تجعل عندى ماأتقوى به مع رسولك ولم تجعل فى يد رسولك ـ ﷺ ـ مايحملنى عليه ، وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى فيها فى مال أو جسد أو عرض ، وأتصدق بعرضى على كل من آذانى أو شتمنى أو لمزنى فهو له حل ، ثم أصبح مع الناس ، فقال ـ ﷺ ـ أين المتصدق بهذه الليلة؟ فلم يقم أحد ، ثم قال : أين المتصدق هذه الليلة فليقم ، فقام علبة بن زيد فأخبر رسول الله ـ ﷺ ـ بماصنع وماقال فى تلك الليلة ، فقال رسول الله

---

(1) صحيح البخارى متن فتح البارى 9/ 175 .

(2) انظر الروض الأنف 4/ 197 وزاد المعاد 3/ 529 والإصابة 2/ 500 والسيرة النبوية لابن كثير 4/ 9وشرح المواهب اللدنية 3/ 68 ـ 69 والإصابة 2/ 500 .

ـ ﷺ ـ : « أبشر فو الذى نفس محمد بيده لقد كتبت صدقتك فى الزكاة المتقبلة »[1]

• **غير سهمك أردنا :**

عن واثلة بن الأسقع ـ رضى الله عنه ـ قال : نادى رسول الله ـ ﷺ ـ فى غزوة تبوك ، فخرجت إلى أهلى ، فأقبلت وقد خرج أول صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ فطفقت فى المدينة أنادى : ألا من يحمل رجلاً له سهمه ، فإذا شيخ من الأنصار ، فقال : لنا سهمه على أن نحمله عقبه [2] وطعامه معنا ؟ فقلت : نعم ، قال : فسر على بركة الله ، فخرجت مع غير صاحب ، حتى أفاء الله علينا ، فأصابنى قلائص [3] ، فسقتهن حتى أتيته ، فخرج فقعد على حقيبة من حقائب إبله ، ثم قال : سقهن مدبرات ، ثم قال : سقهن مقبلات ، فقال : ماأرى قلائصك إلا كراماً ، قلت : إنما هى غنيمتك التى شرطت لك ، قال : خذ قلائصك ياابن أخى ، فغير سهمك أردنا [4] . أخرجه أبو داود [5]

• **تخلف المنافقين وزمرة من الأعراب:**

لما سمع المنافقون قرار رسول الله ـ ﷺ ـ بالإعداد لغزو الروم كرهوا لقاء الروم ، ولكنهم تظاهروا بالانصياع لأمره ـ ﷺ ـ ، فخرجوا بقيادة عبد الله بن أبى بن سلول مع الجيش الإسلامى ورابطوا معه فى ثنية الوداع ، ولما قرر الرسول ـ ﷺ ـ المسير إلى تبوك وعزم عليه تثاقل المنافقون وقرروا الرجوع إلى المدينة ، وأعلن رأس النفاق حقده وكشف عن حقيقته فقال : يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى مالا طاقة له به ، يحسب أن قتالهم معه اللعب ، والله لكأنى أنظر إلى أصحابه مقرنين

---

(1) قال فى الإصابة 2 / 500 وقد ورد مسنداً موصولاً من حديث مجمع بن حارثة ومن حديث عمرو ابن عوف وأبى عبس بن جبر ، ومن حديث علبة بن زيد وقتية .

(2) عقبه : قال ابن الأثير فى جامع الأصول : عقبه ، حملت فلا نأعقبه : إذا أركبته وقتاً ، وأنزلته وقتاً ، فهو يعقب غيره فى الركوب ، أى يجىء بعده .

(3) قلائص : مفردها قلوص والقلوص الناقة .

(4) جامع الأصول فى أحاديث الرسول 8 / 429 رقم الخبر 6188 .

(5) جامع الأصول فى أحاديث الرسول 8 / 429 .

بالحبال[1]

وهناك نفر من المنافقين يناهز عددهم ثمانين رجلاً جاءوا يستأذنون رسول الله ـ ﷺ ـ فى التخلف عن الغزو والبقاء فى المدينة ، ولاعذر لهم فى الحقيقة يقهرهم ويمنعهم من الخروج ، بل كانوا مصممين على التخلف سواء استجاب رسول الله ـ ﷺ ـ لرغبتهم أو لم يستجب .

واستأذن نفر من الأعراب يقرب عددهم من ثمانين رجلاً رسول الله ـ ﷺ ـ فى البقاء فى أماكنهم وعدم الخروج إلى قتال الروم فلم يأذن لهم رسول ـ ﷺ ـ .[2]

قال تعالى : ﴿ ما كانَ لأهْلِ الْمَدينةِ ومنْ حوْلَهُم مّنَ الأعْرَابِ أن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذلك بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمأٌ وَلا نَصبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ ولا ينالُونَ منْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نفقةً صغيرةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[3]

• مايستفاد من ذلك :

أولاً : الشدة محك للمنافقين تظهر زيف ادعائهم : إن المنافق يتظاهر بالإسلام وأنه مع المسلمين ضد أعدائهم ، ولكن هذا الادعاء يظهر واضحاً وجلياً فى وقت الشدائد على حقيقته ، أن المنافق ليس مع المؤمنين ولا من زمرة المسلمين ، بل يتخلى عنهم فى أحلك ساعات الشدة .

ألا ترى كيف شغب المنافقون بقيادة عبد الله بن أبى بن سلول على خروج المسلمين إلى تبوك وقرروا الرجوع إلى المدينة ويخذلون رسول الله ـ ﷺ ـ والذين آمنوا معه .

---

(1) انظر : شرح المواهب اللدنية 3 / 72 وإمتاع الأسماع 1 / 453 ومغازى الواقدى 3 / 995 ـ 996 وحياة سيد العرب 4 / 70 وسبل الهدى والرشاد 5 / 639 والسيرة النبوية والآثار المحمدية 2 / 127 وتاريخ الخميس 2 / 125 والسيرة النبوية لابن هشام 2 / 525 .

(2) الطبقات الكبرى لابن سعد 2 / 165 .

(3) التوبة : 120 ، 121 .

ثانياً : الرسول لم يعاقبهم مع أنهم يستحقون العقوبة الصارمة : إن ماوقع من المنافقين يستحق عقوبة هى القتل ؛ لأنهم ارتكبوا جريمتين عظيمتين كل واحدة منهما تستوجب القتل .

الأولى : تمرد هؤلاء على القيادة العليا وعدم تنفيذ الأوامر العسكرية الموجهة إليهم ، وخذلان المسلمين فى ساعة الشدة مما يجعل العدو يطمع فى المسلمين وفى نفس الوقت يؤثر تأثيراً سلبياً على الروح المعنوية عند المقاتلين المسلمين .

الثانية : شن الحرب النفسية ضد المسلمين : فهم لم يكتفوا بالتمرد على أمر القيادة المسلمة ، بل تجاوز ذلك إلى إظهار العداء والحقد والكره للمسلمين ، وحاولوا التشكيك فى قدرتهم على قتال الروم ، بل قطعوا أن المسلمين سينهزمون أمام الروم ويقعون أسرى فى قبضتهم ، تأمل قول رئيس المنافقين : يغزو محمد بنى الأصفر ، مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى مالا طاقة له به أيحسب أن قتالهم معه اللعب ، والله لكأنى أنظر إلى أصحابه مقرنين بالحبال.

ثالثاً : علاج الرسول لانسحاب المنافقين كان فى غاية التوفيق : إن ممالاشك فيه ولاريب أن المنافقين يستحقون العقوبة الصارمة الحازمة ، ولكن رسول الله ـ ﷺ ـ لم يعاقبهم ولم يحاربهم ، وهذا هو عين الحكمة فى التصرف وعين السداد والصواب الذى يناسب الظرف ويحقق المصلحة ويدرأ المفسدة ؛ ذلك لأن الأسلوب الآخر يضر بالمسلمين فيفوت المصلحة العامة لهم ، ويجلب مفاسد عظيمة لاطاقة لهم بها .

فالاحتمال أن يستخدم رسول ـ ﷺ ـ إجبارهم على الخروج وقتل من يرفض منهم ولو أدى ذلك إلى حرب ضروس بين المسلمين والمنافقين .

وهذا الاحتمال له عواقب وخيمة وسيئة حتى لو خرج المسلمون منتصرين على المنافقين ؛ لأن المسلمين سينشغلون بهذه الفتنة الداخلية وآثارها التى ستنتشر فى كل بيت

وقبيلة عن لقاء الأعداء ، أضف إلى ذلك أن قتل عدد من الفريقين يضعف المسلمين ، ويخرجهم منهكين نتيجة هذه الحرب الأهلية ، ولهذا كان النبى - ﷺ - يرفض باستمرار أن يعاقب المنافقين فى الغزو وفى غيره قائلاً : كيف يحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه .

ولو سلمنا جدلاً أن المنافقين خرجوا مكرهين إلى القتال ، فهل هذا هو فى صالح المسلمين فى هذا الظرف؟

إن الجواب السليم يقول : إن وجود المنافقين فى صف المسلمين وهم يضمرون الحقد والكره نحو المسلمين ، ويتمنون لهم الهزيمة أمام الأعداء ، لن يحقق مصلحة ولانصراً لهم ، بل على العكس تماماً ، سيجعل هؤلاء المنافقين يستغلون أية فرصة سانحة لطعن المسلمين من الخلف وتوهين قواهم ومساندة أهوائهم .

نعم إن انسحاب المنافقين من الجيش الإسلامى ورجوعهم إلى المدينة قد حقق أكثر من فائدة ودفع أكثر من مفسدة

فقد أظهر المنافقين على حقيقتهم أنهم معادون للإسلام ولايطمأن لهم ، وكشف أناساً بأعيانهم لتحذرهم الأمة فى مستقبل أيامها ، وأنهم سيخذلون المسلمين فى القتال عند التقاء الصفوف ، بل قد ينضمون إلى صفوف الأعداء مقاتلين معهم أو على الأقل سيكونون معول هدم فى بناء الصف المسلم وجبهته الداخلية فى أحلك الظروف ، قال تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾(1)

رابعاً : الاختباء وراء الشرعية : إن المنافقين لايحرصون على المواجهة والمجابهة

(1) التوبة : 47 .

كالكافرين ، بل يتظاهرون بحب المصلحة ، ويحاولون جاهدين أن يصبغوا تصرفاتهم بالصبغة الشرعية ، فهم لايحبون الخروج لقتال الروم ولايريدونه ، ولكنهم لايصرحون به ، وفى نفس الوقت يأتون رسول الله ـ ﷺ ـ بأعذار كاذبة ليأذن لهم بالقعود وعدم الخروج ، مع أنهم مصرون على عدم الخروج أذن لهم أم لم يأذن لهم رسول الله ـ ﷺ ـ . وهكذا استطاعوا أن يأخذوا إذناً من رسول الله ـ ﷺ ـ بالتخلف عن الغزوة وعدم الخروج ، قال تعالى موضحاً حقيقة موقفهم لرسوله ـ ﷺ ـ : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾[2]

خامساً : من قراءة سيرة المنافقين فى عهد النبوة نجد أنهم قد خذلوا المسلمين فى ساعات الشدة أكثر من مرة ، ففى هذه الغزوة انسحبوا بعد خروجهم ، وفى غزوة أحد نجد عبد الله بن أبى بن سلول ينسحب بثلث الجيش ليفت فى عضد المسلمين ويوهن عزائمهم .

سادساً : يلاحظ القارىء لسورة التوبة من القرآن الكريم حملة شديدة على الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، مع أنه لم يحدث فيها قتال بين المسلمين والصليبيين بل عاد رسول الله ـ ﷺ ـ والذين معه سالمين غانمين ، والسؤال الذى يطرح نفسه : لم هذه الحملة الشديدة على أولئك المتخلفين؟

ويجيب الأستاذ دويدار على هذا التساؤل فيقول :

(يبدو أن الأمر فى شأن الجهاد ليس أمر قتال يقع أو لايقع ، إنما هو أمر واجب المسلمين فى حماية أمتهم من كل عدو يريد أن ينال منها ، سواء أكان ذلك بالفعل أم بالنية ، فواجب كل فرد فى أمة الإسلام أن يقوم بنصيبه فى حمايتها ، إلا أن يكون له عذر قاهر يحول بينه وبين أداء واجبه . . .

ومن هنا كان تخلف الذين تخلفوا عن غزوة تبوك بغير عذر ، نكولاً عن أداء الواجب المفروض على كل قادر فى الأمة ، وتقاعداً عن نصرة الجماعة التى ينتسبون

(1) التوبة : 43 .
(2) التوبة : 46 .

إليها ، وخوراً وتميعاً فى الساعة الحرجة والوقت العصيب ، فكان لابد أن يكشف أمرهم للجماعة حتى لاتنخدع بهم بعد ذلك ، وكان لابد أن يؤدبوا الأدب الذى يردعهم ويردع أمثالهم حتى يرعووا ، فإما أن يتوبوا ويرجعوا إلى صفوف الجماعة ، إن كانت فيهم صلاحية للبقاء ، وإما أن تفرغ الجماعة من أمرهم وتنبذهم نبذ الغثاء ، فلاهم منها ، ولاهى منهم ، فالذين يضعفون ويتخلفون يجب نبذهم بعيداً عن الصف ، وقاية له من التخلخل والهزيمة ، والتسامح مع الذين يتخلفون عن الصف فى ساعة الشدة ثم يعودون إليه فى ساعة الرخاء جناية على الصف كله ، وعلى الدعوة التى يكافح فى سبيلها كفاحه المرير .

من أجل ذلك حمل القرآن الكريم على الذين تخلفوا فى هذه الغزوة حملة شديدة ، وقسا عليهم قسوة بالغة ، فلامهم ووبخهم وقرعهم أشد التقريع وفضحهم أشد الفضيحة ، وطعنهم فى أعز مايعتز به الرجال ذوو الكرامة والحسيس . .

وصفهم بالخسة وسقوط الهمة وتفاهة الغرض وأنهم لاينشطون إلا للمنافع العاجلة والأغراض الزائلة ، وأما جلائل الأعمال وعظائم الأمور فليسوا من أهلها ولاطلابها ، فقال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

وعيرهم بالجبن والخور والعجز والخمول وأنهم ليسوا من ذوى الغناء عند الشدة ، ولامن أولى النجدة عند الخطر ، يشفقون من المتاعب ، وينفرون من الجهد ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم ، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز . . .)[1]

ويستمر فى الحديث عن هذا الأمر فيقول :

هكذا كان شأن القرآن مع المنافقين وطلاب المنفعة ، من المتخلفين عن صفوف الجماعة . . حقرهم وهون من شأنهم ، ووضعهم حيث وضعوا أنفسهم مع الخوالف من النساء والصغار والعجزة والضعفاء ، وكشف أمرهم للجماعة ، وحذرها من

(1) صور من حياة الرسول 568 ـ 569 .

أخاديعهم ، وأمرها بالإعراض عنهم ، فلما جاءوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أعرض عن عتابهم ، وقبل منهم ظاهر عذرهم ، ووكل سرائرهم إلى الله ـ سبحانه ـ .

أما الذين ركنوا إلى التراخى واستناموا إلى الفتور ، كسلاً وميلاً إلى الدعة ، واسترواحاً للظلال فى حر الهجير ، لم يدفعهم إلى ذلك شك ولا ارتياب ، ولم يدعهم إليه كيد ولانفاق ، فهؤلاء قبل الله توبتهم ، وأذن لرسوله ـ ﷺ ـ فى العفو عنهم ، وأمره أن يتقبل منهم بعض أموالهم ، تطهيراً لنفوسهم ، وإيذاناً بقبولهم فى صفوف الجماعة)(1)

(1) صور من حياة الرسول ص 570 .

• وكر المؤامرات ومركز الإشاعات المضللة :

روى ابن هشام في السيرة النبوية بإسناده إلى عبد الله بن حارثة قال : بلغ رسول الله ـ ﷺ ـ أن ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي ـ وكان بيته عند جاسوم ـ يثبطون الناس عن رسول الله ـ ﷺ ـ في غزوة تبوك ، فبعث إليهم طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه ، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ، ففعل طلحة ، فاقتحم الضحاك بن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجله ، واقتحم أصحابه فأفلتوا ، فقال الضحاك في ذلك :

كادت وبيت الله نار محمد ❖ يشيط [1] بها الضحاك وابن أبيرق
وظلت وقد طبقت [2] كبس سويلم [3] ❖ أنوء [4] على رجل كسيراً ومرفق
سلام عليكم لا أعود لمثلها ❖ أخاف ومن تشمل به النار يحرق [5]

مايستفاد من ذلك :

أولاً : الصلة وثيقة بين المنافقين واليهود ، وهذا يعود إلى وحدة الهدف عند الفريقين ، فهما يعملان لتقويض دولة الإسلام في الجزيرة العربية ، وهذا الهدف مجمعهما دائماً . ويجعلهما يبتكران الوسائل المتنوعة لتحقيقه .

ثانياً : اليهود يتعاطفون مع النصارى الصليبيين ضد المسلمين ، ألا ترى أن رسول الله ـ ﷺ ـ قد صرح للمسلمين بأنه يريد غزو الصليبيين وترى اليهودي سويلم يجمع المنافقين في بيته ليحرضهم وليحرضوا المسلمين على التمرد على أمر الرسول ـ ﷺ ـ الذي أمر المسلمين بالاستنفار .

---

(1) يشيط : يحترق .

(2) طبقت : علوت .

(3) كبس سويلم : البيت الصغير الذي يملكه وفي الغالب يكون من الطين .

(4)أنوء : أتثاقل أو أمشي بصعوبة بسبب كسر فيها .

(5) انظر السيرة النبوية لابن هشام 2 / 517 والسيرة النبوية لابن كثير 4 / 5 ـ 6 وسبل الهدى والرشاد 5 / 632 والسيرة الحلبية 3 / 102 ـ 103 وشرح المواهب اللدنية 3 / 66 .

ولكن الوسيلة فى غاية الخبث والسوء ، فهو لايحرضهم بشكل مباشر على مخالفة أمر الرسول ـ ﷺ ـ بل يأتى بأسباب فى ظاهرها لمصلحتهم تقنعهم بعدم الخروج لقتال الروم.

وهذا التعاطف بين اليهود والمنافقين والصليبيين منبثق عن تصور يجمع المنافقين واليهود والصليبيين فى موقف واحد من الإسلام والمسلمين ، وهذا الهدف هو عداوة الإسلام وأهله ، والسعى لإبطال كل مخططات المسلمين والحيلولة دون تحقيق أهدافهم النبيلة فى إسعاد الناس وتحريرهم من أهوائهم واستبداد الطواغيت الذى أفسد عليهم حياتهم .

ثالثاً : اليهود والمنافقون لم يتعظوا من الدروس الكثيرة التى مرت بهم وبغيرهم ، ورأوا بأم أعينهم ماذا حدث لإخوانهم من التشتت والضياع والفشل والهلاك وهم يقفون فى وجه رسول الله ـ ﷺ ـ والذين آمنوا معه .

إن دروس بنى قينقاع وبنى النضير ، وبنى قريظة ويهود خيبر كافية لإقناعهم ـ إن كان عندهم أثارة من عقل ـ أن يكفوا عن معاداة الإسلام وأهله ، وكافية لإقناعهم أن هذا الإسلام سيل جارف ، كل من يقف فى طريقه يجرفه ويجتثه من أصوله .

ولقد جنى المنافقون الصاب والعلقم من مواقفهم مع اليهود ، وتعاطفهم معهم ومع هذا لم يتعظوا ولم يعتبروا .

رابعاً : المدينة لم تطهر من اليهود تماماً ، بل بقيت هذه الجرثومة اليهودية فى المدينة على الرغم من الحملات المتتابعة عليها ، إذ كانت هذه الجراثيم اليهودية تسكن عند اشتداد مطاردتها والتضييق عليها ، وعند اتخاذ الحزم .فى معالجة الذين يقفون مواقف عدائية علنية تجاه هذا الدين وأهله .

نعم لقد طهر رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة من رجس يهود بنى النضير وبنى قينقاع وبنى قريظة ، ولكن بقيت فئات يهودية ضعيفة تحمل الحقد فى قلوبها أوتغتنم الفرص السانحة لها حتى تعمل فى الخفاء على توهين عرى الإسلام وكيانه السياسى المتمثل فى هذه الدولة الإسلامية الفتية بمؤسساتها وطموحاتها وفتوحاتها ومنجزاتها المتعددة .

خامساً : مراقبة المسلمين الدقيقة ومعرفتهم بأحوال المنافقين واليهود : من الملاحظ

أن عيون المسلمين لم تغفل لحظة واحدة عن مراقبة هؤلاء المنافقين واليهود واجتماعاتهم في أوكارهم ، بل كانوا يطلعون على أدق أسرارهم واجتماعاتهم ومايدور فيها من حبك المؤامرات وابتكار أساليب التثبيط واختلاق الأسباب الكاذبة لإقناع الناس بعدم الخروج للقتال ، وإضعاف الروح المعنوية عندهم وفى النهاية تراجع المسلمين أمام أعدائهم ، وانهزامهم فى ساحات الوغى ، وهذا الذى ينشدونه ويسعون إلى تحقيقه .

سادساً : العلاج الحازم لدعاة الفتنة وأوكارها : لقد كان العلاج النبوى لدعاة الفتنة وأوكارها حازماً حاسماً ، إذ أمر بحرق البيت على من فيه من المنافقين ، وأرسل من الصحابةمن ينفذ هذا الأمر النبوى ، فنفذه بحزم .

وهذا درس لكل مسؤول فى كل زمان ومكان ، يتعلم منه كيف يقف من دعاة الفتنة وأوكارها ، إذ السكوت عن هذه الأوكار ورجالها مفسدة المفاسد وأعظم الموبقات التى تلحق الضرر بالأفراد والمجتمعات والدول ، وتقوض أركانها ، وتهدم بنيانها .

فلابد من العلاج الحازم الحاسم السريع الذى يستأصل الشر وأهله ، دون تردد أو تباطؤ ، وإن الشواهد والأحداث تنبئنا أن التردد فى مثل هذه الأمور ، والتلكؤ فيها يعرض الأمن والأمان إلى الخطر ، وينذر بزوالها .

سابعاً : دم صاحب الفتنة مهدور وماله كذلك : يؤخذ هذا من الأمر النبوى الواضح بحرق بيت سويلم اليهودى على من فيه ، وقد تم ذلك فكسرت رجل الضحاك بن خليفة أحد المنافقين ، وأحرق بيت اليهودى ، ولم ينقل أن النبى ـ ﷺ ـ عوض على الضحاك للكسر الذى أصابه ، كما لم ينقل أن الرسول ـ ﷺ ـ قد عوض على سويلم اليهودى لحرق بيته .

حقاً إن أوكار الفتنة والمؤامرة ينبغى أن تهدم على رؤوس أصحابها ومن فيها جزاءً وفاقاً لما يحاولون من تهديم المجتمع وتقويض أركانه .

• استخلاف علىٍّ على المدينة: (1)

وكان من عادة رسول الله ـ ﷺ ـ إذا قاد غزوة من الغزوات خارج المدينة اختار عليها

(1) انظر السيرة النبوية لابن كثير 4 / 12 تاريخ الطبرى 3 / 143 ـ 144 ومسند ابن أبى شيبة 14 / 545 وتاريخ الخميس2/ 155 وشرح الزرقانى على المواهب 3 / 70 والهجرة النبوية والآثار المحمدية 2 / 126 وسبل الهدى والرشاد 5 / 637 ـ 638 .

أميراً يدير شؤونها ، وفى غزوة تبوك اختار رسول الله ـ ﷺ ـ على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ أميراً على المدينة وأميراً على أهله ـ ﷺ ـ فلم يرتح المنافقون ـ لعنهم الله ـ لصنيع رسول الله ـ ﷺ ـ ، فانتقدوه وأخذوا يشككون فيه ، ويطعنون فى إمارة على ـ رضى الله عنه ـ ، ويقولون : ماخلفه الرسول ـ ﷺ ـ إلا استثقالاً له ، وتخففاً منه ، فلما سمع على ابن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ غضب وأخذ سلاحه ثم خرج حتى لحق برسول الله ـ ﷺ ـ وهو نازل بالجرف فأخبره بما قالوا ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « *كذبوا ولكنى خلفتك لما تركت ورائى ، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك ، أفلا ترضى ياعلى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبى بعدى* » ، فرجع على بن أبى طالب ومضى رسول الله ـ ﷺ ـ إلى سفره .

روى الإمام البخارى ـ رحمه الله ـ فى صحيحه بإسناده إلى مصعب بن سعد عن أبيه أن رسول الله ـ ﷺ ـ خرج إلى تبوك واستخلف علياً فقال : « أتخلفنى فى الصبيان والنساء ؟ قال : ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبى بعدى »(1)

● أمر لابد من توضيحه :

إن الشيعة الإمامية الإثنى عشرية يستدلون بقول النبى ـ ﷺ ـ لعلى بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ : « *أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبى بعدى* » على أن الخلافة لم تترك لاختيار الناس ، وإنما هى وحى من الله ولامكان لاجتهاد الناس فيها ، إذ لااجتهاد فى مورد النص ، وهم يقولون : إن هذا الحديث نص صريح فى إمامة على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ ، وبطلان خلافة غيره وإمامته كأبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ .

وخلاصة قولهم : إن الرسول ـ ﷺ ـ قد أوصى بالخلافة من بعده لعلى بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ احتجاجاً بهذا الحديث .

---

(1) صحيح البخارى متن فتح البارى 9 / 176 .

• المناقشة :

إن قول النبي ـ ﷺ ـ لعلي ـ رضي الله عنه : «*أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبي بعدي* » ليس معناه : أني أعهد إليك لتكون إماما من بعدي، بل معناه إني أستخلفك على أهلي وعلى المدينة إذا توجهت إلى غزوة تبوك قال ماقال : لما جعله الرسول ـ ﷺ ـ أميراً على أهله وعلى المدينة أرجف المنافقون في المدينة ، وأشاعوا أن الرسول ـ ﷺ ـ جفا علي بن أبي طالب وأبغضه ، فلحق علي بن أبي طالب بالنبي ـ ﷺ ـ فقال : يارسول الله أتتركني مع الأخلاف ؟ فقال : «*أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبي بعدي* »أي أني لم أخلفك في المدينة بغضاً مني كما أن موسى لم يخلف أخاه هارون في بني إسرائيل لما توجه لكلام ربه بغضاً ومقتاً له) (1) .

قال الباقلاني ـ رحمه الله ـ : (ومما يدل على أن هذا المعنى هو الذي قصده بقوله ، ـ ﷺ ـ علمنا بأنه كان لهارون من موسى منازل :

منها أنه كان أخاه .

ومنها أنه كان شريكاً له في النبوة .

ومنها أنه خلفه في قومه لما توجه لكلام ربه .

وليس منها أنه خلفه بعد موته ؛ لأن هارون مات قبل موسى بسنين كثيرة ! وإنما خلف موسى بعد موته يوشع بن نون ، فلا يجوز أن يكون النبي ـ ﷺ ـ عني بقوله : « *أنت مني بمنزله هارون من موسى* » ، أي أنه إنك أخي لأبي وأمي ، ولاأنك تخلفني بعد موتي ؛ لأن هذه المنزلة لم تكن لهارون من موسى ، فثبت أنه أراد أنك خليفتي على أهلي وعلى المدينة عند توجهي إلى هذه الغزوة ، كما خلف موسى أخاه هارون في قومه عند توجهه لكلام ربه .

فإن قالوا : فما معنى قوله ـ ﷺ ـ : « *إلا أنه لانبي بعدي*» ، وكيف يجوز أن يقول : أما ترضى أن تخلفني في قومي ، وفي أيام حياتي إلا أنه لانبي بعدي ؟ قيل لهم : لم يرد بقوله : «**بعدي** » بعد وفاتي ، وإنما أراد لانبوة بعد نبوتي ولامعي ولابعدي ، وهذا كما

(1) انظر التمهيد لأبي بكر الباقلاني 173 ، 174

يقول القائل : لاناصر لك بدون فلان [1]

قال ابن حزم ـ رحمه الله ـ : وهذا حديث « أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبى بعدى » لايوجب له فضلاً على من سواه ولا استحقاق الإمامة بعده ـ عليه السلام ـ ، لأن هارون لم يل أمر بنى إسرائيل بعد موسى ـ عليهما السلام ـ وإنما ولى الأمر بعد موسى ـ عليه السلام ـ يوشع بن نون ، كما ولى الأمر بعد رسول الله ـ ﷺ ـ صاحبه فى الغار [2] .

---

(1) التمهيد للباقلانى ص 174 .

(2) الفصل فى الملل والأهواء والنحل 4 / 94 .

أحداث أثناء السير

أحداث أثناء السير

أحداث أثناء السير

وبعد أن اختار الرسول ـ ﷺ ـ الأمراء والقادة وأعطاهم الألوية والرايات توجه إلى تبوك ، ولم ينتظر أحداً قد تأخر ، وقد تأخر نفر من المسلمين يظن فيهم خيراً ، وكلما ذكر له اسم رجل تأخر من هؤلاء قال ـ ﷺ ـ : « *دعوه إن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه* » (1)

قصة أبى ذر الغفارى : (2)

قال ابن إسحاق : ثم مضى رسول الله ـ ﷺ ـ سائراً ، فجعل يتخلف عنه الرجل ، فيقولون : يا رسول الله ، تخلف فلان ، فيقول : دعوه ، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه ، حتى قيل : يا رسول الله ، قد تخلف أبو ذر ، وأبطأ به بعيره .

فقال : دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه ؛ وتلوَّم (3) أبوذر على بعيره ، فلما أبطأ عليه ، أخذ متاعه فحمله على ظهره ، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ـ ﷺ ـ ماشياً ، ونزل رسول الله فى بعض منازله ، فنظر ناظرٌ من المسلمين فقال : يا رسول الله ، إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده ؛ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : كن أبا ذرّ (4) . فلما تأمَّله القومُ قالوا : يا رسول الله ، هو والله أبو ذر ؛ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : «*رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويُبعث وحده*» .

وقال ابن إسحاق : فحدثنى بُرَيْدَةَ بن سفيان الأسلمى ، عن محمد بن كعب القُرظى ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : لما نفى عثمان أبا ذر إلى الرَّبَذَة (5) ، وأصابه بها

---

(1) انظر السيرة النبوية لابن هشام 2/ 523 ـ 524 والسيرة النبوية لابن كثير 4/ 15 وإمتاع الأسماع 1/ 451 .

(2) انظر السيرة النبوية لابن هشام 2/ 523 ـ 525 .

(3) تلوَّم على بعيره : تمهل .

(4) كن أبا ذر : لفظه لفظ الأمر ، ومعناه الدعاء ، أى أرجو الله أن تكون أبا ذر .

(5) الربذة : موضع قرب المدينة .

قدره ، لم يكن معه أحدٌ إلا امرأته وغلامه ، فأوصاهما أن اغسلانى وكفنانى ، ثم ضعانى على قارعة الطَّريق ، فأول ركب يمر بكم فقولوا : هذا أبو ذر صاحبُ رسول الله ـ ﷺ ـ ، فأعينونا على دفنه . فلما مات فعلا ذلك به ، ثم وضعاه على قارعة الطريق ؛ وأقبل عبد الله بن مسعود فى رَهط من أهل العراق عُمَّار ، فلم يَسرُعْهم إلا بالجنازة على ظهر الطَّريق ، قد كادت الإبل تطؤُها ، وقام إليهم الغلام . فقال : هذا أبو ذرّ صاحب رسول الله ـ ﷺ ـ ، فأعينونا على دفنه . قال : فاستهل عبد الله بن مسعود يبكى ويقول : صدق رسول الله ـ ﷺ ـ ، تمشى وحدك ، وتموت وحدك ، وتُبْعَث وحدك . ثم نزل هو وأصحابه فواروه ، ثم حدثهم عبد الله بن مسعود حديثه ، وما قال له رسول الله ـ ﷺ ـ فى مسيره إلى تبَوك .

ما يستفاد من قصة أبى ذر الغفارى :

أولاً : أبو ذر ليس من المتخلفين : ذلك لأن أبا ذر ـ رضى الله عنه ـ خرج مع الرسول ـ ﷺ ـ ، ولكن البعير الذى كان يحمله كان بطىء السير ، مما جعل أبا ذر يتخلف عن الركب .

ثانيا : حزم الرسول : لقد قرر رسول الله ـ ﷺ ـ السير إلى تبوك وعدم انتظار أحد بعد الموعد الذى ضربه ، ومن هنا انطلق الرسول ـ ﷺ ـ يقود الجيش إلى تبوك حفاظاً على الوقت ، ودفعاً لأى تردد فى الغزوة ، وكان كلما ذكر أحد المسلمين ممن تخلف عن الغزوة فى حضرة الرسول ـ ﷺ ـ كان جوابه ـ ﷺ ـ حازماً : « *دعوه إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه* » .

وبنفس هذا الحزم كان موقفه من أبى ذر حين تأخر به جمله ، فلم ينتظره بل قال مقالته السابقة .

ثالثاً : أبو ذر قوى العزيمة : إن أبا ذر ـ رضى الله عنه ـ لما أبطأ به جمله وأخره عن متابعة الجيش الإسلامى واللحاق به لم يعد ذلك عذراً للتخلف عن الغزوة ، بل حمل متاعه على ظهره وخرج ماشياً ليلحق برسول الله ـ ﷺ ـ .

وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على صدق أبى ذر وقوة عزيمته ومدى تعلقه بالجهاد مع رسول الله ـ ﷺ ـ ، وكذلك يدل على مدى تحمله لتلك المصاعب ، كل ذلك تحمله

واستهان به لأجل أن ينال شرف الجهاد مع رسول الله ـ ﷺ ـ .

رابعاً : معرفة الرسول بمعادن الرجال : لقد نزل المسلمون فى مكان يستريحون فيه ، فنظر ناظر من المسلمين فقال : يا رسول الله ، إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : كن أبا ذر ، فلما تأمله القوم قالوا : يا رسول الله ، هو والله أبو ذر إن رسول الله ـ ﷺ ـ يعرف أصحابه ومعادنهم ومن ثم فهو يعرف أبا ذر أنه مجاهد لا يثنيه شىء عن الجهاد ومن ثم قال : كن أبا ذر .

وهذا يدل أيضاً على منزلة أبى ذر عند رسول الله ـ ﷺ ـ وظنه الخير فيه ، وأنه هو الفارس القادم فى هذا السفر المضنى الذى يتحمل المشاق فى سبيل نصرة دينه ، فلا غرو أن نسمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول فى أبى ذر : « *ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق لهجة من أبى ذر* » (1)

خامساً : قول الرسول ـ ﷺ ـ : « *رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ويبعث وحده* » وتحقق ذلك كما أخبر ـ ﷺ ـ دلالة واضحة وضوح الشمس فى رابعة النهار على صدق نبوة الرسول ـ ﷺ ـ إذ الإخبار بأمور لم تقع ثم تقع بعد الإخبار يدل على معجزة وتكريم من الله لهذا الرسول ـ ﷺ ـ وهذه الوسيلة من إثبات النبوة كثيرة فى السيرة النبوية الشريفة فلقد أخبر الرسول ـ ﷺ ـ بفتح فارس والشام واليمن كما أخبر بفتح القسطنطينية ففتحها المسلمون بعد قرون عديدة من وفاة رسول الله ـ ﷺ ـ .

قصة أبى خيثمة (2) :

قال ابن إسحاق : (ومضى رسول الله ـ ﷺ ـ على سفره ، ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله ـ ﷺ ـ أياماً إلى أهله فى يوم حار ، فوجد امرأتين له فى عريشين لهما فى حائطه ، قد رشت كل واحدة منهما عريشها ، وبرّدت له فيه ماءً ، وهيأت له فيه طعاماً .

(1) سنن ابن ماجه 1/ 55 .

(2) انظر : السيرة النبوية لابن هشام 2/ 520 ـ 521 والسيرة النبوية لابن كثير 4/ 13 ـ 14 ومختصر صحيح مسلم 2/ 267 رقم 1918 .

فلما دخل ، قام على باب العريش ، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له ، فقال : رسول الله ـ ﷺ ـ فى الضِّحّ[1] والريحّ والحرّ ، وأبو خيثمة فى ظل بارد ، وطعام مهيأ ، وامرأة حسناء ، فى ماله مقيم ، ما هذا بالنَّصف ! ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ـ ﷺ ـ ، فهيئا لى زاداً ففعلتا ، ثم قدَّم ناضحه فارتحله ، ثم خرج فى طلب رسول الله ـ ﷺ ـ حتى أدركه حين نزل تبوك ، وقد كان أدرك أبا خيثمة عُمَيْر ابن وهب الجُمحى فى الطريق ، يطلب رسول الله ـ ﷺ ـ فترافقا ، حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خيثمة لعمير بن وهب : إن لى ذنباً ، فلا عليك أن تخلَّفَ عنى حتى آتى رسول الله ـ ﷺ ـ ففعل حتى إذا دنا من رسول الله ـ ﷺ ـ وهو نازل بتبوك ، قال الناس : هذا راكب على الطريق مُقبل ؛ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : كن أبا خيثمة ؛ فقالوا : يا رسول الله هو والله أبو خيثمة ، فلما أناخ أقبل فسلَّم على رسول الله ـ ﷺ ـ فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ : أولى لك[2] يا أبا خيثمة . ثم أخبر رسول الله ـ ﷺ ـ الخبر ؛ فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ خيراً ودعا له بخير .

قال ابن هشام : وقال أبو خيثمة فى ذلك شعراً ، واسمه مالك بن قيس :

لَما رأيتُ النَّاس فى الدين نافقوا ❖ أتيت التى كانَتْ أعَفَّ وأكْرما
وبايعت باليمنى يدى لمحمَّد ❖ فلم أكتسب إثماً ولم أغش محرما
تركت خضيباً[3] فى العريش و صرمة[4] ❖ صفايا [5] كراما بُسْرُها قد تحمَّما [6]
وكنت إذا شك المنافق أسَمحتْ[7] ❖ إلى الدين نفسى شطره حيثُ يَمما

ما يستفاد من القصة :

أولاً : الدنيا تطغى وتلهى عن الطاعة والجهاد : لقد أخبرتنا كتب السيرة أن النبى

(1) الضِّح : الشمس .
(2) أولى لك : كلمة فيها معنى التهديد ، وهى اسم سمى به الفعل ، ومعناها : دنوت من الهلكة .
(3) خضيباً : مخضوبة وهى المرأة .
(4) صرمة : جماعة النخل .
(5) صفايا : كثيرة الثمر .
(6) تحمما : أخذ فى الإرطاب فاسود .
(7) أسمحت : انقادت .

ـ ﷺ ـ قد استنفر المسلمين فى المدينة وخارجها ليتوجهوا إلى غزو الروم تحت قيادته ـ ﷺ ـ وكان الجو لا يشجع على الخروج ، حيث شدة الحر وبعد المسافة ، وكثرة العدو وقوته ، وبدو صلاح الثمار .

وأبو خيثمة ـ رضى الله عنه ـ سمع رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يحرض المؤمنين على الإعداد والاستعداد للخروج ، ورأى رسول الله ـ ﷺ ـ أو علم بخروجه مع المؤمنين إلى تبوك ، ولم يخرج معهم ، بل بقى يعيش مع زوجتيه فى بستان وارف الظلال ، بارد الماء مستطاب الطعام ، هذا الحال قد جعله يتخلف عن مصاحبته ـ ﷺ ـ فى الجهاد والغزو .

حقاً إن الدنيا قد تلهى عن الطاعة ، وقد تشغل عن الجهاد ، فعلى الدعاة إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يحذروها وألا يطمئنوا لها ، فإنها تخدع وتغر ، والسعيد من زهد فيها وأهملها ، ورغب فيما عند الله ـ عز وجل ـ من الثواب الجزيل .

ثانياً: عناية الزوجة بزوجها وتوفير أسباب الراحة والسعادة له : هذا ما نلمسه ونحسه من قصة أبى خيثمة ـ رضى الله عنه ـ مع زوجته ، حيث كانتا تتنافسان على توفير أسباب الراحة والهناءة له .

فالمرأة الصالحة مطلوب منها أن تعمل على سعادة زوجها ، وخدمته فى كل ما يلزمه ، ولها فى الأجر والمثوبة عند الله ـ تبارك وتعالى ـ الشىء الجزيل ، فخير النساء من إذا نظر إليها الزوج سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإن غاب عنها حفظته فى ماله ونفسها .

ثالثاً : الصحابة بشر يخطئون ويصيبون ويحسنون ويسيئون ويطيعون ويعصون فليسوا معصومين : فعلى الرغم من قوة إيمانهم وجهادهم فإن ساعات ضعف تمر بهم يتراجعون ويترددون ولا تنشط نفوسهم كعادتها للطاعة أو الجهاد .

وهذا يدل على أن الكمال لله وحده ، والعصمة لرسله وملائكته ، وما سواهم خطاءون وخير الخطائين التوابون .

إنه مما لا شك فيه أن تخلف أبا خيثمة ـ رضى الله عنه ـ عن المسير مع رسول الله ـ ﷺ ـ أمر ينكر عليه ، ولا يقبل منه ، ولهذا أنكر رسول الله ـ ﷺ ـ عليه وعلى غيره من المؤمنين الذين تأخروا عن الغزوة .

والدعاة اليوم مطلوب منهم أن ينظروا إلى الناس بهذا المنظار ، ويعاملونهم على أساسه ، أما إذا تصوروا أن الناس معصومون أو شبه معصومين وبدر منهم ما يخالف أحكام الشرع سلقوهم بألسنة حداد وبالغوا فى إيذائهم حتى يحرجوهم وفى النهاية يخرجونهم عن طورهم فيفارقونهم فراقاً غير وامق .

رابعاً : الإسلام يوجب على معتنقه ألا يميز نفسه على غيره ، بل ينبغى أن يشاركه فى السراء والضراء : إن القارئ لقصة أبى خيثمة ـ رضى الله عنه ـ يجد أن أبا خيثمة حينما دخل بستانه ووجد امرأتيه قد رشت كل منهما بالماء عريشها ، وبردت له فيه ماء ، وهيأت له فيه طعاماً ذكر حال رسول الله ـ ﷺ ـ وما يكابد من مشقة السفر وشدة الحر وقلة الماء ، فلم يطق أن يعيش هو حالة الرفاه ورسول الله ـ ﷺ ـ يعيش حياة المشقة فقال : رسول الله ـ ﷺ ـ فى الشمس الحارة ، والريح الحار ، وأبو خيثمة فى ظل بارد ، وطعام مهيأ ، وامرأة حسناء ، فى ماله مقيم ، ما هذا بالنصف ! ، ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ـ ﷺ ـ ، فهيئاً لى زاداً ، ففعلتا .

خامساً : المسلم صاحب ضمير حى : إن المسلم قد يقع فى المحظور الشرعى ، ولكن سرعان ما ينبهه إيمانه إلى ما وقع فيه ، فيستيقظ ضميره ، ويردعه عنه ، ويؤنبه على ما اقترف ، ويحضه على أن يتبع السيئة الحسنة تمحها ، كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «*اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن*» .

إن الفرق بين المسلم وغيره ، أن غير المسلم يستمرئ المعاصى وكلما ولغ فيها ازداد قسوة القلب ، وبعداً عن طاعة الرب ، أما المسلم فإنه صاحب ضمير يقظ حى يراقب نفسه وتصرفاته ، فإذا أوقع فى المعصية تاب وأناب إلى ربه ، وغير من سلوكه فغسل حوبته بالطاعات .

ألا ترى أن أبا خيثمة ـ رضى الله عنه ـ حين أدرك خطأه وزلته قد بادر من فوره إلى تصحيح سيره ، فصمم على أن يلحق برسول الله ـ ﷺ ـ ، ويهجر حياة الراحة والأنس بالزوج .

سادساً : موقف زوجى أبا خيثمة فى الاستجابة إلى طلبه وتهيئة الطعام له والراحة وعدم تثبيطه عن الخروج يدل على صلاحهما وحب الخير منهما لزوجهما ، فإن المرأة

الصالحة هى التى تعين زوجها على طاعة الله وابتغاء مرضاته فتيسر له أسباب ذلك وإن كانت نفسها تهوى غير ذلك وتميل إليه .

وهكذا ينبغى أن تكون المرأة المسلمة لزوجها الداعية ، تعينه على أعباء الدعوة ، وتتحمل معه المشقة ولأواء الطريق .

وهذا يستدعى من الرجل أن يختار الفتاة المسلمة الملتزمة حتى تكون له زوجة تشاطره أعباء الحياة الدعوية وغيرها ، تشد على يده وتشد عضده ، وهذا أمر فى غاية الأهمية بالنسبة للزوجين ، والله المستعان وعليه التكلان .

سابعاً : معرفة الرسول بأصحابه وبمعادنهم : إن قول الرسول ـ ﷺ ـ حينما قال له أصحابه : هذا راكب على الطريق مقبل : كن أبا خيثمة ، فلما اقترب وعرفوه قالوا : يا رسول الله هو والله أبو خيثمة ، يدل على معرفة رسول الله ـ ﷺ ـ بأصحابه وأنه أعرفهم بمعادن رجاله ، يعرف المستجيب من غيره ، ويعرف التائب النائب إلى ربه إذا زل قدمه بسرعة رجوعه .

ومعرفة خصال الرجال ومعادنهم تدل على معرفة واسعة ، وخبرة مستوعبة فاحصة نتيجة التعامل والاحتكاك فى ميادين الحياة المختلفة ، فقد كان يخالط الجميع ، يسمع منهم ويسمعهم ، ويسيرون معه ، ويجاهدون تحت رايته وقيادته والقائد أخبر الناس بجنده وكفاءاتهم ، فيختار منهم ما يناسب فى الوقت المناسب للمكان المناسب .

ثامناً : جلد أبى خيثمة وصبره وقوة عزيمته : تأمل هذا القرار الذى اتخذه أبو خيثمة ـ رضى الله عنه ـ أن يلحق برسول الله ـ ﷺ ـ وحده ، فى هذه الرحلة المضنية ، فى هذه الصحراء قليلة الماء ، ذات الحر اللافح .

لقد اتخذ هذا القرار الحازم ونفذه بدقة ، فدل على قوة عزيمته وعنفوان إرادته وعلى جلده وصبره .

تاسعاً : حب أبى خيثمة لرسول الله ـ ﷺ ـ : جعله لا يقوى على فراقه ولا يرضى ببقائه عند زوجيه بعيداً عن رسول الله ـ ﷺ ـ كيف لا ، وحب رسول الله ـ ﷺ ـ من الإيمان وعبادة يتقرب بها إلى الله ـ عز وجل ـ ، فإنه لا يؤمن الرجل حتى يكون رسول

الله ـ ﷺ ـ أحب له من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين .

عاشراً : يقظة المسلمين وحذرهم : يؤخذ هذا من مراقبة المسلمين لكل حركة قريبة أو بعيدة فى الصحراء ، لأنهم فى حالة حرب ، وقد يباغتهم عدوهم بشىء يكرهونه ولا يطيقونه ، فما عليهم إلا أن ينتبهوا لذلك أشد الانتباه ، ويحذروا أشد الحذر .

ألا ترى وتلاحظ أن الصحابة قد رأوا من بعيد راكباً على بعيره يشق الصحراء ، فأخبروا رسول الله ـ ﷺ ـ بذلك ، واستمروا فى مراقبته ، حتى اقترب منهم ، فعرفوه ، واطمأنوا له ، وأخبروا رسول الله ـ ﷺ ـ بأنه أبو خيثمة ـ رضى الله عنه ـ كما توقع رسول الله ـ ﷺ ـ والذى يلفت النظر أنهم استمروا فى متابعة سير الراكب ومراقبته حتى أدركوا هويته على الرغم من إخبار رسول الله ـ ﷺ ـ إياهم بأنه أبو خيثمة .

حادى عشر : عتاب القائد للجندى له أثره : لقد جاء أبو خيثمة ـ رضى الله عنه ـ معترفاً بذنبه ، يطرح السلام على رسول الله ـ ﷺ ـ ، فعاتبه ـ ﷺ ـ معاتبة تحمل فى طياتها اللوم والتأنيب والتهديد إذ قال له رسول الله ـ ﷺ ـ : «*أولى لك يا أبا خيثمة*» ، فهى كلمة فيها معنى التهديد ، ومعناها دنوت من الهلكة .

إنه مما لا شك فيه أن هذا الكلام كان له وقعه فى نفس الجندى ، إذ أوقفه على حقيقة ما ارتكب من الذنب ، وخطورة هذا الذنب على مقترفه ، ومن ثم فما على أبى خيثمة إلا أن يتجنب مثل هذه المخاطر وهذه المهالك .

إن القائد المحب لجنده لا يسكت عن أخطائهم ، لأن ذلك يضرهم ، ويلحق الضرر بغيرهم ، بل عليه أن يسارع إلى تصويب الخطأ ، ومحاسبة مرتكبه وتقويمه ، فيكون له معلماً ومرشداً ومربياً ، وإهمال القائد فى هذا الأمر ومجاملته جنده له من الآثار السلبية عليه وعلى مستقبل الأجيال ما ينذر بأخطاء فادحة ومصائب جليلة ، وهزائم عظيمة .

ومما يلفت النظر أن رسول الله ـ ﷺ ـ بعد أن عاتب أبا خيثمة ـ رضى الله عنه ـ وحاسبه دعا له بخير ، وفى هذا من الإيناس وإزالة الوحشة التى دخلت قلب أبى خيثمة من اللوم والتهديد ما يدل على طب النبى ـ ﷺ ـ وعلاجه للنفوس .

لقد كان هذا الدعاء بلسماً شافياً ومرهماً ذهب بكل آلام الجروح النفسية ، فغشيت السكينة والرحمة قلب أبى خيثمة ـ رضى الله عنه ـ .

• وصايا الرسول للجيش عند مروره بحجر ثمود :

روى الإمام البخارى - رحمه الله - بإسناده إلى ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : لما مر النبى - ﷺ - بالحجر قال : « *لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين ، ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادى* » (1)

وروى الإمام البخارى فى صحيحه بإسناده إلى ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - لأصحاب الحجر : « *لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم.* » (2)

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن أبى كبشة الأنصارى - رضى الله عنه - قال : « *لما كان فى غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم ، فبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فنادى فى الناس : الصلاة جامعة ، قال : فأتيت رسول الله - ﷺ - وهو ممسك بعيره ، وهو يقول : ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم ، فناداه رجل منهم : نعجب منهم يا رسول الله ، قال : أفلا أنذركم بأعجب من ذلك ؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم ، فاستقيموا وسددوا ، فإن الله - عز وجل - لا يعبأ بعذابكم شيئاً ، وسيأتى قوم لا يدفعون عن أنفسهم بشىء* »(3)

وروى الإمام أحمد فى مسنده بإسناده إلى ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : لما نزل رسول الله - ﷺ - بالناس عام تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من الآبار التى كان يشرب منها ثمود ، فعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم ، فأمرهم رسول الله - ﷺ - فأهراقوا القدور وعلفوا العجين الإبل ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا ، قال - ﷺ - : « *فإنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم* » (4)

وذكر ابن هشام فى السيرة أن رسول الله - ﷺ - قال لما مر الجيش الإسلامى بالحجر :

---

(1) صحيح البخارى متن فتح البارى 9/ 189 .

(2) صحيح البخارى متن فتح البارى 9/ 189 .

(3) الفتح الربانى 21/ 195 .

(4) الفتح الربانى 20/ 46.

« *لا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له* »[1]

عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ قال : لما مر النبى ـ ﷺ ـ بالحجر قال : « *لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح ، فكانت ترد هذا الفج . وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها ، وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً ، فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله مَن تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان فى حرم الله* »[2]

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ بعد سرده الحديث : إسناده صحيح ولم يخرجوه .[3]

● قصة أبى رهم الغفارى :

روى الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ فى المسند عن أبى رهم الغفارى قال : غزوت مع النبى ـ ﷺ ـ تبوك فلما فصل ، سرى ليلة فسرت قريباً منه ، وألقى على النعاس فطفقت أستيقظ ، وقد دنت راحلتى من راحلته ، فيفزعنى دنوها خشيت أن أصيب رجله فى الغرز [4] فأؤخر راحلتى حتى غلبتنى عينى نصف الليل فركبت راحلتى راحلته .[5] ورجل النبى ـ ﷺ ـ فى الغرز فأصابت رجله فلم أستيقظ إلا بقوله : حس [6] ، فرفعت رأسى فقلت : استغفر لى يا رسول الله ، فقال : سر ، فطفق يسألنى عمن تخلف من بنى غفار فأخبره ، فإذا هو يسألنى ما فعل النفر الحمر الطوال القطاط [7] أو قال : القصار . .

قال : فذكرتهم فى بنى غفار فلم أذكرهم حتى ذكرت رهطاً من أسلم فقلت : يا رسول الله ما يمنع أحد أولئك حين تخلف أن يحمل على بعير من إبله امرأً نشيطاً فى سبيل الله [8]

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام ـ تحقيق الدكتور همام وزميله 4/ 224 .

(2) السيرة النبوية لابن كثير 4/ 19 ـ 20 .

(3) السيرة النبوية لابن كثير 4/ 20 .

(4) الغرز : ما يستعين به الرجل حتى يركب ظهر الراحلة وهو كالركاب للسرج .

(5) فركبت راحلتى راحلته : أى زاحمتها .

(6) حس : كلمة تقولها العرب عند وجود الألم كالأنين الذى يخرجه المتألم نحو آه .

(7) القطاط : القصار .

(8) الفتح الربانى 21/ 205 .

• شعب المدينة أثناء الغزوة :

لقد كان شعب المدينة متعلقاً برسول الله ـ ﷺ ـ وبأصحابه الذين خرجوا لقتال الروم، يتابع حركات الجيش ، ويسأل عن أخباره ، وهذا يدل على تماسك الجبهة الداخلية وقوة بنائها والتحامها ، فقد روى الإمام البخارى ـ رحمه الله ـ فى صحيحه بإسناده إلى أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : رجع رسول الله ـ ﷺ ـ من غزوة تبوك فدنا من المدينة فقال : « *إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، قالوا : يا رسول الله : وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة ، حبسهم العذر* » (1)

هذا وقد كان أهل المدينة ينتظرون قدوم الجيش الإسلامى وعلى رأسه رسول الله ـ ﷺ ـ بشوق ، فما إن دنا رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه فى عودتهم من المدينة حتى خرج الناس وفى مقدمتهم الغلمان بقلوب تطير فرحاً يتلقون رسول الله ـ ﷺ ـ ويستقبلونه . (2)

واستأذن العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ـ ﷺ ـ فى مدح النبى ـ ﷺ ـ فأذن له فقال : قل لا يفضض الله فاك . (3)

---

(1) صحيح البخارى بفتح البارى 9/ 190 .

(2) صحيح البخارى بفتح البارى 9/ 193 .

(3) انظر زاد المعاد 3/ 551ـ552 .

من معجزات الرسول وكراماته في الغزوة ومايستفاد منها

من معجزات الرسول وكراماته في الغزوة وما يستفاد منها

من معجزات الرسول وكراماته

لقد أظهر الله - تبارك وتعالى - على يد رسوله - ﷺ - معجزات وكرامات تدل على صدق نبوته ورسالته وتدل على رفعة منزلته وتكريمه عند ربه ، ولقد وقع لرسول الله - ﷺ - كثير من المعجزات في السفر والحضر ، وفي الغزوات ، كغزوة بدر الكبرى وغزوة الخندق وغزوة الحديبية وغزوة فتح مكة وحنين ، وفي غزوة تبوك وقعت معجزات وكرامات لرسول الله - ﷺ - وهي :

1 - الإخبار بهبوب ريح شديدة والتحذير منها :

لقد أخبر رسول الله أصحابه في تبوك بأن ريحاً شديدة ستهب وأمرهم بأن يحتاطوا لأنفسهم ودوابهم فلا يخرجوا حتى لا تؤذيهم ، وليربطوا دوابهم حتى لا تؤذى ، وتحقق ما أخبر به رسول الله - ﷺ - فهبت الريح الشديدة وحملت من قام فيها إلى مكان بعيد .

فقد روى الإمام مسلم في صحيحه بإسناده إلى أبي حميد قال : وانطلقنا حتى قدمنا تبوك فقال رسول الله - ﷺ - : « *ستهب عليكم الليلة ريح شديدة ، فلا يقم فيها أحد منكم ، فمن كان له بعير فليشد عقاله ، فهبت ريح شديدة ، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبل طيئ* »(1)

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم معقباً على هذا الحديث : (هذا الحديث فيه هذه المعجزة الظاهرة من أخباره - ﷺ - بالمغيب ، وخوف الضرر من القيام وقت الريح)(2)

2 - تكثير ماء عين تبوك :

روى الإمام مسلم - رحمه الله - في صحيحه بإسناده إلى معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « *إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك وإنكم لن*

---

(1) صحيح مسلم بشرح النووي 15/ 42 ودلائل النبوة رقم 548 ومختصر صحيح مسلم رقم 1543 .

(2) شرح النووي على صحيح مسلم 15/ 42 .

تأتوها حتى يضحى النهار ، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتى» ، فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان ، والعين مثل الشراك[1] تبض[2] بشىء من مال ، فسألهما رسول الله ـ ﷺ ـ : هل مسستما من مائها شيئاً ؟ قالا : نعم ، فسبهما النبى ـ ﷺ ـ ، وقال لهما ما شاء الله أن يقول ، ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع فى شىء : وغسل رسول الله ـ ﷺ ـ فيه يديه ووجهه ، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء منهمر أوغزير حتى استقى الناس .[3]

3ـ الإخبار بما ستكون عليه تبوك من خصب وتحقق ما أخبر :

فقد جاء فى صحيح مسلم ـ رحمه الله ـ قول رسول الله ـ ﷺ ـ لمعاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ : « *يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ها هنا قد ملئ جناناً* » [4]

لقد كانت منطقة تبوك والوادى الذى كانت فيه العين منطقة جرداء لقلة الماء ولكن الله ـ عز وجل ـ أجرى على يد رسوله ـ ﷺ ـ بركة تكثير هذا الماء حتى أصبح يسيل بغزارة، ولم يكن هذا آتياً لسد حاجة الجيش ، بل أخبر رسول الله ـ ﷺ ـ بأنه سيستمر وستكون هناك جنان وبساتين مملوءة بالأشجار المثمرة .

ولقد تحقق ما أخبر به الرسول ـ ﷺ ـ بعد فرصة قليلة فى عمر الزمن ، ولا زالت تبوك حتى اليوم تمتاز بجنانها وبساتينها ونخيلها وتمورها ، تنطق بصدق نبوة الرسول ـ ﷺ ـ وتشهد بأن الرسول لا يتكلم إلا صدقاً ولا يخبر إلا حقاً ولا ينبئ بشىء إلا ويتحقق .

4ـ تكثير الطعام :

روى الإمام أحمد فى مسنده بإسناده إلى أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة ، فقالوا : يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا[5] فأكلنا وأدمنا ، فقال لهم رسول الله ـ ﷺ ـ : إفعلوا ، فجاء عمر فقال : يا

---

(1) الشراك : هو سير النعل ومعناه ماء قليل جداً .

(2) تبض : بفتح التاء وكسر الموحدة وتشديد الضاد المعجمة ومعناه تسيل .

(3) صحيح مسلم بشرح النووى 15/ 41 ومختصر مسلم رقم 1530 ودلائل النبوة رقم 450 .

(4) صحيح مسلم بشرح النووى 15/ 41 ، انظر الفتح الربانى 21/ 196 والخصائص 1/ 273ودلائل النبوة رقم 45 .

(5) نواضحنا : جمع ناضح وهى الإبل التى يسقى عليها .

رسول الله إنهم إن فعلوا قل الظهر [1] ، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ، ثم ادع لهم بالبركة ، لعل الله أن يجعل فى ذلك ، فدعا رسول الله ـ ﷺ ـ : بنطع [2] فبسطه ، ثم دعاهم بفضل أزوادهم فجعل الرجل يجيء بكف الذرة ، والآخر بكف التمر ، والآخر بالكسرة حتى اجتمع على النطع فى ذلك شيء يسير ، ثم دعا عليه بالبركة ، ثم قال لهم : خذوا فى أوعيتكم ، فأخذوا من أوعيتهم حتى ما تركوا من المعسكر وعاء إلا ملأوه ، وأكلوا حتى شبعوا ، وفضلت منه فضلة ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « *أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فتحجب عنه الجنة* »[3]

قال فى مختصر بلوغ الأمانى من أسرار الفتح الربانى فى تخريجه الحديث : (أورده الحافظ ابن كثير فى تاريخه وعزاه للإمام أحمد ، ثم قال : رواه مسلم عن أبى كريب عن أبى معاوية عن الأعمش به) [4]

5ـ خرص الرسول ثمار بستان المرأة وجاءت كما قدر تماماً :

روى الإمام مسلم فى صحيحه بإسناده إلى حميد ـ رضى الله عنه ـ قال : «*خرجنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ غزوة تبوك فأتينا وادى القرى على حديقة لامرأة فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : أخرصوها ، فخرصناها ، وخرصها رسول الله ـ ﷺ ـ عشرة أوسق*» [5] وقال : أحصيها حتى نرجع إليك إن شاء الله ، ثم أقبلنا على وادى القرى ، فسأل رسول الله ـ ﷺ ـ المرأة عن حديقتها ، كم بلغ ثمرها ، فقالت : عشرة أوسق [6]

6 ـ إنقاذ المؤمنين من عطش شديد :

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قيل لعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : حدثنا عن شأن ساعة العسرة ، فقال عمر : خرجنا إلى تبوك فى قيظ شديد ، فنزلنا منزلاً وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، حتى إن كان أحدنا ليذهب فيلتمس

---

(1) الظهر : ما يحمل عليه من الإبل .

(2) النطع : بساط من الجلد .

(3) الفتح الربانى 21/ 196 ـ 198 .

(4) مختصر بلوغ الأمانى من أسرار الفتح الربانى 21/ 196 .

(5) الوسق : ستون صاعاً والصاع $2\frac{1}{2}$ كغم .

(6) صحيح مسلم بشرح النووى 15/ 41 ـ 43 .

الرجل فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع ، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه ، فيشربه ، ثم يجعل ما بقى على كبده ، فقال أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ : يا رسول الله إن الله قد عودك فى الدعاء خيراً ، فادع الله لنا ، فقال : أو تحب ذلك ؟ قال : نعم ، قال : فرفع يديه نحو السماء فلم يرجعهما حتى قالت[1] السماء فأطلت[2] ، ثم سكبت فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر .[3]

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : إسناده جيد ولم يخرجوه من هذا الوجه .[4]

وذكره الهيثمى عن ابن عباس وقال : رواه البزار والطبرانى فى الأوسط ورجال البزار ثقات.[5]

وذكر ابن هشام عن ابن إسحق أن رجلاً كان معروفاً بالنفاق حينما استجاب الله دعاء الرسول ـ ﷺ ـ فأرسل السحابة التى أمطرت وأنقذت الجيش الإسلامى من العطش قال منكراً هذه المعجزة : سحابة مارة.[6]

7ـ بركة دعائه لدواب المسلمين :

روى الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ فى مسنده بإسناده إلى فضالة بن عبيد الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ قال : غزونا مع النبى ـ ﷺ ـ غزوة تبوك فجهد بالظهر جهداً شديداً ، فشكوا إلى النبى ـ ﷺ ـ ما بظهرهم من الجهد ، فتحين بهم مضيقاً ، فسار النبى ـ ﷺ ـ فقال : مروا باسم الله ، فمر الناس عليه بظهرهم ، فجعل ينفخ بظهرهم ، اللهم احمل عليها فى سبيلك إنك تحمل على القوى والضعيف ، وعلى الرطب واليابس فى البر والبحر ، قال : فما بلغنا المدينة حتى جعلت تنازعنا أزمتها ، قال فضالة : هذه دعوة النبى ـ ﷺ ـ على القوى والضعيف فما بال الرطب واليابس فلما قدمت الشام غزونا غزوة

---

(1) قالت السماء : تهيأت للمطر .

(2) أطلت : أمطرت مطراً خفيفاً .

(3) السيرة النبوية لابن كثير 4/ 16 .

(4) السيرة النبوية لابن كثير 4/ 16 .

(5) مجمع الزوائد 6/ 195 .

(6) انظر السيرة النبوية لابن هشام 2/ 522 .

قبرس فى البحر فلما رأيت السفن فى البحر ، وما يدخل فيها عرفت دعوة النبى ـ ﷺ [1]

قال الساعاتى فى مختصر بلوغ الأمانى عن سند الحديث : (سند الحديث جيد وليس فى رجاله علة) [2]

8 ـ خبر ناقة الرسول ـ ﷺ ـ :

جاء فى إعلام النبوة للماوردى ـ رحمه الله ـ : (ومن إعلامه ـ ﷺ ـ أن ناقة له ضلت فى توجهه إلى تبوك ، فتفرق الناس فى طلبها ، وكان عنده عمارة بن حزم ، وفى رحل عمارة زيد بن اللصيت ، وكان يهودياً قد أسلم ونافق ، فقال زيد فى رحل عمارة : يزعم محمد أنه نبى يخبركم خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « *إن منافقاً يقول : أليس محمد يزعم أنه نبى ويخبركم بخبر السماء ولا يدرى أين ناقته ، والله لا أعلم إلا ما علمنى ربى ، وقد أعلمنى أنها فى الوادى فى شعب كذا ، حبستها سمرة بزمامها* » ، فبادر الناس فوجدوها كذلك فأتوه بها ، فرجع عمارة بن حزم إلى رحله وقال : لقد عجبت مما ذكره رسول الله ـ ﷺ ـ فقال رجل كان فى رحله مع زيد بن اللصيت : إن زيداً قال هذا قبل أن تطلع علينا ، فوجأ عمارة زيداً فى عنقه ، وقال : إنك لداهية فى رحلى ، اخرج يا عدو الله منه) [3]

قال المحققان فى حاشية السيرة النبوية لابن هشام : الحديث صحيح [4]

9 ـ الرسول ينبئ عن فتح بلاد فارس والروم :

روى الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ فى مسنده بإسناده إلى أبى همام الشعبانى قال : حدثنى رجل من خثعم قال : كنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ فى تبوك ، فوقف ذات ليلة واجتمع عليه أصحابه فقال : إن الله أعطانى الليلة الكنزين فارس والروم ، وأمدنى بالملوك ، ملوك حمير الأحمرين ، لا ملك إلا الله . [5]

(1) الفتح الربانى 21/ 194 وانظر موارد الظمآن ص 418 رقم الخبر 1706 .

(2) مختصر بلوغ الأمانى 21/ 95 .

(3) أعلام النبوة ص 100 ـ 101 .

(4) السيرة النبوية لابن هشام ـ طبعة المنار الأردنية 4/ 227 .

(5) الفتح الربانى 21/ 201 .

وجاء فى أعلام النبوة : ولأجل ما لقيه فى غزوة تبوك من الجهد قال لأصحابه : « *ألا أسركم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : إن الله أعطانى الليلة الكنزين فارس والروم ، وأمدنى بالملوك ملوك حمير يجهادون فى سبيل الله ويأكلون فىء الله* » (1)

10 ـ أدرك القوم قد احترقوا : (2)

قال ابن إسحق : وقد كان رهط من المنافقين ، منهم وديعة بن ثابت أخو بنى عمرو ابن عوف ، ومنهم رجل من أشجع ، حليف لبنى سلمة ، يقال له : مخشن بن حمير يشيرون إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو منطلق إلى تبوك ، فقال بعضهم لبعض : أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ! والله لكأنا بكم غداً مقرنين فى الحبال ، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين ، فقال مخشن بن حمير : والله لوددت أنى أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة ، وأنا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه .

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ فيما بلغنى ـ لعمار بن ياسر : أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل : بلى ، قلتم كذا وكذا ، فانطلق إليهم عمار ، فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله ـ ﷺ ـ يعتذرون إليه ، فقال وديعة بن ثابت ورسول الله ـ ﷺ ـ واقف على ناقته ، فجعل يقول وهو آخذ بحقبها (3) : يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب.(4)

11 ـ صلاة الرسول على معاوية المزنى فى يوم مماته فى المدينة :

روى الطبرانى فى الكبير والأوسط وابن سعد والبيهقى عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : كنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ بتبوك ، فطلعت الشمس بضياء وشعاع ونور لم أرها طلعت بمثلهم فيما مضى ، فأتى جبريل ـ عليه السلام ـ رسول الله ـ ﷺ ـ فقال

---

(1) أعلام النبوة ص 101 .

(2) انظر السيرة النبوية لابن هشام طبع مكتبة المنار 4/ 229 ـ 230 .

(3) الحقب : الحبل الذى يشد على بطن البعير سوى الحزام الذى يشد فيه الرحل .

(4) روى الحديث ابن إسحق بلاغاً ، والبلاغ منقطع ، ورواه الطبرانى فى التفسير 10/ 172 من طرق عن زيد بن أسلم وقتادة وابن عمر ، ورواه الواحدى فى أسباب النزول ص 169 معلقاً عن زيد بن أسلم ومحمد بن وهب ، فيكون الحديث صحيحاً موقوفاً على ابن عمر ـ حاشية السيرة النبوية لابن هشام 4/ 230 .

رسولُ الله ـ ﷺ ـ : يا جبريل مالى أرى الشمس اليوم طلعت بضياء وشعاع ونور لم أرها طلعت بمثلهم فيما مضى . قال : ذاك معاوية بن معاوية المزنى مات بالمدينة اليوم فبعث الله سبعين ألف ملك يصلون عليه ، فهل لك فى الصلاة عليه ؟ قال : نعم

فخرج رسول الله ـ ﷺ ـ يمشى ، فقال جبريل بيده هكذا يفرج له عن الجبال والآكام ، ومع جبريل سبعون ألف ملك ، فصلى رسول الله ـ ﷺ ـ وصف الملائكة خلفه صفين ، فلما فرغ رسول الله ـ ﷺ ـ قال لجبريل : بم بلغ هذه المنزلة ؟

قال : بحبه : (**قل هو الله أحد**) يقرؤها قائماً أو قاعداً أو راكباً أو ماشياً وعلى كل حال (1)

والحديث علم من أعلام النبوة وله طرق يقوى بعضها بعضاً (2)

12 ـ قصة ذى البجادين (3) : جاء فى دلائل النبوة : إن عبد الله ذا البجادين من مزينة كان يتيماً لا مال له ، ثم مات أبوه فلم يورِّثه شيئاً ، وكان عمُّه مّيلاً فأخذه وكفله حتى كان قد أيسر ، وكانت له إبل وغنمٌ ورقيقٌ فلما قدم رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة جعلتْ نفسه تتوق إلى الإسلام ، ولا يقدر عليه من عمّه ، حَتى مضت السنون والمشاهدُ كلُّها ، فانصرف رسولُ الله ـ ﷺ ـ من فتح مكة راجعاً إلى المدينة ، فقال عبد الله ذو البجادين لعمه : يا عم إنى قد انتظرت إسلامك ، فلا أراك تريد محمداً ، فأذن لى فى الإسلام ، فقال : والله لئن اتبعت محمداً لا أتركُ بيدك شيئاً كنتُ أعطيتُك إلاَّ نزعته منك ، قال عبد العزى ـ وهو اسمه يومئذ ـ : فأنا والله متبع محمداً ، وتاركٌ عبادة الحجر ، هذا ما بيدى فخذه ، فأخذ كل ما كان أعطاه حتى جرّده من إزاره ، فأتى أمه فأعطته بجاداً لها [فشق بجاده] باثنين فاتزر بواحد ، واتَّشح بالآخر ، ثم أقبل المدينة ، فاضطجع فى المسجد فى السَّحر ، ثم صلى رسول الله ـ ﷺ ـ ، ثم جعل يتصفح الناس لما انصرف من صلاة الصبح ، فنظر إليه رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : من أنت ؟ قال : أنا عبد

(1) انظر سبل الهدى والرشاد 5/ 656 ـ 657 .

(2) قال الحافظ فى لسان الميزان : هذا الحديث علم من أعلام النبوة ، وله طرق يقوى بعضها ببعض ، وقال فى فتح البارى : فى باب الصفوف على الجنازة : إنه خبر قوى بالنظر إلى مجموع طرقه ، وقال فى اللسان فى ترجمة نوح ابن عمر : طريقه أقوى طرق الحديث ـ سبل الهدى والرشاد 5/ 657 .

(3) دلائل النبوة ص 524 ـ 526 رقم الخبر 454 .

العزى ، قال : أنت عبد الله ذو البجادين ، ثم قال : أنزل منى قريباً ، فكان يكون من أضيافه ـ ﷺ ـ ويعلمُه القرآن ، حتى قرأ قرآناً كثيراً ، والناس يتجهزون إلى تَبُوك ، وكان رجلاً صيتاً ، وكان يقوم فى المسجد فيرفُع صوتَه بالقراءة ، فقال عمر : يا رسول الله ألا تسمعُ إلى صوت هذا الأعرابى ، يرفع صوته بالقرآن ، قد منع الناس القراءة ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : دعه يا عمر فإنه خرج مهاجراً إلى الله ورسوله .

فلما خرجوا إلى تبوك قال : يا رسول الله ادعُ لى بالشهادة ، فقال : أبغنى لحاء شجرة ، فأبغاه لحاء شجرة ، فربطها رسول الله ـ ﷺ ـ على عضده وقال : اللهم إنى أحرمُ دمه على الكفار ، فقال : يا رسول الله ليس هذا أردت ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : إنك إذا خرجت غازياً فى سبيل الله فأخذَتْك حُمّى فقتلتك ، فأنت شهيد ، أو وقصَتْك دابتُك فأنت شهيد لا تبال بأيته كان ، فلما نزلوا تبوك أقاموا بها أياماً ، ثم توفى عبد الله ذو البجادين .

وكان بلالُ بن الحارث المزنى يقول : فحضرتُ رسولَالله ـ ﷺ ـ ، ومع بلال المؤذن شعلة نار عند القبر ، وإذا رسول الله ـ ﷺ ـ فى القبر ، وأبو بكر وعمر يُدَلّيانه إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يقول : أدليا إلىّ أخاكُما ، فلما هيأه لشقه فى اللّحد قال : اللهم إنى أمسيت عنه راضياً فارض عنه ، قال ، فقال ابن مسعود : يا ليتنى كنتُ صاحبَ اللحد .

13 ـ خبر أكيدر دومة :

لقد أخبر رسول الله ـ ﷺ ـ خالد بن الوليد حين أرسله فى سرية إلى أكيدر أنه سيجده يصيد البقر ، فوجده كذلك فأسره (1) .

14 ـ كن أبا ذر : فى غزوة تبوك خرج أبو ذر ليلحق بالجيش وحده ومعه متاعه على ظهره فنظر ناظر من المسلمين

فقال : يا رسول الله ، إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ كن أبا ذر ، فلما اقترب من المسلمين وتأملوه قالوا : هو والله أبو ذر . (2)

(1) انظر دلائل النبوة 2/ 526 رقم الخبر 455 .

(2) انظر الخصائص الكبرى 1/ 273 وتاريخ الطبرى 3/ 145 والسيرة النبوية لابن هشام 2/ 523 ـ 524 .

15 ـ كن أبا خيثمة : تأخر أبو خيثمة عن الخروج مع المسلمين فى تبوك ، ثم خرج ليلحق بالجيش الإسلامى ومن بعيد رآه نفر من المسلمين فقالوا : هذا راكب على الطريق مقبل ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : كن أبا خيثمة ، فقالوا : يا رسول الله هو والله أبو خيثمة[1] .

ما يستفاد من المعجزات والكرامات السابقة :

أولاً : يؤخذ من إخبار رسول الله ـ ﷺ ـ أصحابه بتبوك بهبوب ريح شديدة مايلى :

1 ـ **رحمة الرسول بالصحابة وحرصه على دفع أى مكروه عنهم :** فإنه ـ ﷺ ـ جاء رحمة للمؤمنين قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

2 ـ **إن الرسول ـ ﷺ ـ لا يأمر بشىء إلا وفيه مصلحة للمأمورين** ، ولا ينهى عن شىء إلا وفيه مفسدة ، فلقد نهى ـ ﷺ ـ الصحابة عن القيام عند هبوب الريح الشديدة وأمر بربط الإبل حتى لا تهيجها الريح وتهرب وتضل فيفقدها أهلها وهم فى أمَسِّ الحاجة إليها .

3 ـ **نتيجة مخالفة أمر الرسول ليست حميدة :** تأمل الذى لم يستجب لأمر الرسول ـ ﷺ ـ ماذا حدث له؟ إنه خرج فحملته الريح وألقته فى مكان بعيد هو جبل طيئ ، فأصابه ما أصابه من الذعر والخوف والوحشة .

نعم إن مخالفة أمر الرسول ـ ﷺ ـ معصية تستحق العقوبة ، ولكن رسول الله ـ ﷺ ـ يتجاوز فى كثير من الأحيان عن أصحابه رحمة بهم وتربية لهم .

4 ـ **الأخذ بالأسباب :** لقد أرشد الرسول ـ ﷺ ـ أصحاب الإبل أن يربطوا إبلهم حتى لا تتعرض لأذى الريح فتهرب وعليها طعامهم وشرابهم وهى وسائط نقلهم فى ظروف عسرة .

---

(1) انظر الخصائص الكبرى 1/ 273 وشرح المواهب 3/ 71 وتاريخ الخميس 2/ 125 .

ثانياً : يؤخذ من حديث تكثير ماء عين تبوك ما يلى :

1 ـ مخالفة أمر الرسول ـ ﷺ ـ تستوجب العقوبة بالسب والشتم والجزر ، ألا ترى أن الرسول ـ ﷺ ـ قد سب الذين سبقاه إلى عين تبوك لمخالفتهما أمره ـ ﷺ ـ .

2 ـ يد رسول الله ـ ﷺ ـ ووجهه مباركان والماء الذى يغسلهما مبارك أيضاً ، والدليل على هذا أن هذا الماء حين وضع فى عين تبوك التى كانت قليلة الماء أصبح ماؤها غزيراً وصار مسيلاً .

ثالثاً : يؤخذ من حديث تكثير الطعام ما يأتى :

1 ـ الانضباط العسكرى يقتضى الاستئذان قبل التصرف : تأمل صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ وقد عضهم الجوع بنابه ، وبلغ منهم مبلغه ، وبين أيديهم إبلهم يمكن أن ينحروها وأن يسدوا جوعتهم ، ولكنهم ما أقدموا على ذلك ، ولا فعلوه ، لأنه لا ينبغى للجندى فى القتال أن يتصرف بأمر له مساس بالمصلحة العامة والأمن العام إلا أن يستأذن القيادة ، ويأخذ الجواب .

ومن هنا قالوا : يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادهنا .

2 ـ يجوز الادهان بشحوم الإبل والانتفاع بها : فإن رسول الله ـ ﷺ ـ أذن لهم بذلك .

3 ـ جواز إبداء الرأى وجواز مخالفة رأى القائد : ألا ترى أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ لما سمع رسول الله ـ ﷺ ـ قد أذن لهم فى نحر إبلهم للأكل وللادهان قد أبدى رأياً يخالف ما رآه رسول الله ـ ﷺ ـ فى حضرة رسول الله ـ ﷺ ـ وأشار بعدم نحر الإبل .

4 ـ إسناد الرأى بالدليل يقويه ويجعل صاحب الأمر يأخذ به : نعم لقد أبدى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وجهة نظره التى خالفت وجهة نظر رسول الله ـ ﷺ ـ فى هذا الأمر الاجتهادى ، ولكنه شفع رأيه وأسنده إلى سبب مقنع ، وحجة قوية وهى مراعاة مصلحة المسلمين العامة فى الجيش ودفع المفسدة المتوقعة ، والحفاظ على الأمن العام بالمحافظة على وسائط النقل والقتال فى الجيش ، ألا ترى عمر يقول لرسول الله ـ ﷺ ـ : إنهم إن فعلوا ذلك قل الظهر ، وهذا أمر فى غاية الأهمية والخطورة يؤثر على حركة

وعُدَدَه المتوقعة .

5 ـ تقديم البديل : إن من كمال الرأى عند عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فى هذه المسألة أنه لم يكتف بإبداء رأيه ومخالفة رأى القائد وإقامة الحجة على رأيه ، بل قدم البديل المقدور لرسول الله ـ ﷺ ـ وهو جمع بقايا الطعام عند الجنود ودعاء الرسول ـ ﷺ ـ عليه .

وعلى أهل الرأى أن يستفيدوا من هذا النهج حين يزاولون الشورى ويبدون الآراء ما أمكن ، فإن إبراز الحلول وتقديمها أمر فى غاية الأهمية فى تحقيق الصالح العام ، وبناء المجتمع القوى المتماسك .

6 ـ قد يفطن الجندى إلى أمر مناسب وصالح لا يفطن إليه القائد نفسه ، فقد فطن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إلى جمع الطعام والدعاء عليه بالبركة وهذا أمر لم يفطن إليه رسول الله ـ ﷺ ـ وبمجرد ذكر عمر بن الخطاب له أخذ به واستحسنه .

7 ـ جواز عودة الآذن عن إذنه ، وتراجعه عن رأيه إن رأى رأى غيره هو الأصوب أو الأقرب إلى الصواب : وهذا ما فعله رسول الله ـ ﷺ ـ إذ ترك رأيه وتراجع عن إذنه ، وأخذ بمشورة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ لأنها تحقق المصلحة العامة ، وتدفع مفاسد متوقعة ، والإسلام قد جاء لجلب المنافع للناس ودفع المفاسد عنهم .

8 ـ يجوز للقائد أو المسئول أن يشرك الناس فى الزاد بأن يضم أزوادهم ويوزعها من جديد على من له زاد كثير أوقليل أو ليس له زاد وأن يأخذ كل واحد حاجته ، وهذا ما فعله رسول الله ـ ﷺ ـ .

9 ـ اعتقاد الصحابة ببركة دعوة الرسول ـ ﷺ ـ يدل على كمال إيمانهم وصفاء عقيدتهم ونقاء حياتهم الروحية .

10 ـ بركة دعوة الرسول كانت حلاً للمشكلة : ألا ترى أن رسول الله ـ ﷺ ـ بعد أن جمع بقايا الأزواد على النطع قد دعا الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يبارك فى هذا الطعام القليل ، فبارك فيه وكثَّره حتى ملأ الناس أوعيتهم وفاض عن حاجتهم بعد أن أكلوا حتى شبعوا .

ويستفاد من هذا : أن على الدعاة أن يكثروا من الدعاء والابتهال إلى الله ـ عز وجل ـ فى جميع أحيانهم وبخاصة فى أوقات الشدة والأزمات ، فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ يستجيب لهم ويرزقهم من أسباب النصر والإغاثة ما لم يخطر على بال كثير منهم أو كلهم .

11 ـ إن ما كان من دعاء واستجابة وتكثير للطعام والمباركة فيه يعود للإيمان وهذا من ثمراته الكثيرة ، وهو تكريم لرسول الله ـ ﷺ ـ لأنه إمام المؤمنين وأول المسلمين ، وهذا ما يشير إليه قوله ـ ﷺ ـ بعد أن رأى مارأى من البركة فى الطعام : أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فتحجب عنه الجنة .

12 ـ الإيمان شرط لدخول الجنة وقبول الأعمال الصالحة : هذا ما تدل عليه آخر عبارة فى الحديث ، وعليه فإن الإنسان لو عمل ما عمل من جلائل الأعمال ، وتحلى بجميل الخصال لم يكن ينفعه ذلك إذا فُقد أصل قبول الأعمال وهو الإيمان .

قال تعالى : ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (1)

وقال تعالى : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ (2) .

رابعاً : يؤخذ من حديث الرسول ـ ﷺ ـ مع المرأة فى شأن ثمار بستانها ما يلى :

1 ـ مشروعية الخرص : والخرص تقدير كمية الثمار على أشجارها ، فقد قدر رسول الله ـ ﷺ ـ ثمار البستان ، وطلب من أصحابه خرص ثمار البستان كذلك .

2ـ تدريب الرسول لأصحابه على الخرص : ألا ترى أن رسول الله ـ ﷺ ـ قد خرص الثمار وقال لأصحابه : اخرصوها ، فخرصوها ، ثم عاد إلى المرأة وعادوا معه فسألها عن كمية ثمارها التى جنتها حتى يقارن كل واحد ما خرصه بكمية الثمار المتحصلة فعلاً ، وهذا تدريب على الخرص .

وهذا التدريب له فائدته فى حياة المسلم وبخاصة فى عهد رسول الله ـ ﷺ ـ وبعدها فإن الرسول ـ ﷺ ـ كان يرسل رسله ليخرصوا ثمار الخيبر ليأخذوا حق المسلمين ويعطوا

(1) المائدة : 5 .

(2) الفرقان : 23 .

حق اليهود في الثمار والزرع ، فقد عامل رسول الله ـ ﷺ ـ أهل خيبر على النصف مما يخرج منها من ثمر أو زرع ، وأرسل عبد الله بن رواحة ليخرص الثمار فخرصها لعام ثم تقبله الله شهيداً في سرية مؤتة ، وأرسل رسول الله ـ ﷺ ـ رسله ليخرصوا ثمار خيبر بعد استشهاد عبد الله بن رواحة .

والخرص يحتاج إليه البائع والمشترى وصاحب البستان وغيره ، ولهذا فقد حرص رسول الله ـ ﷺ ـ على تدريب أصحابه على الخرص ليكسبهم دربة وخبرة يستفيدون منها في حياتهم .

3 ـ دقة الرسول في الخرص : لقد أمر رسول الله ـ ﷺ ـ المرأة أن تحصى ثمار بستانها وتخبره عند رجوعه من غزوته ، إذ قال لها ـ ﷺ ـ : أحصيها حتى نرجع إليك إن شاء الله ، ولما عاد رسول الله ـ ﷺ ـ وسألها عن كمية الثمار فأخبرته فكانت كما قدرها ـ ﷺ ـ : عشرة أوسق .

4 ـ الاهتمام بشئون الناس ومعرفة أحوالهم : ألا ترى أن رسول الله ـ ﷺ ـ حينما مر على بستان المرأة وهي فيه قد خرصه وأمر أصحابه بخرصه ثم طلب منها أن تحصى ثماره حتى يعود ويعود معه صحابته ، وهذا اهتمام منه ـ ﷺ ـ بالمرأة ، وقد يترتب على ذلك معرفة دخلها وهل يكفيها أو يزيد وهل تحتاج إلى مساعدة وما يجب في هذه الثمار من حقوق المسلمين ، أليس هذا اهتماماً بشئون الناس ؟

5 ـ ربط الأمور بالمشيئة : هذا ما نص عليه قول رسول الله ـ ﷺ ـ للمرأة : « *احصيها حتى نرجع إليك إن شاء الله* » ، وهذا نص الآية : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ .

وهذا درس للدعاة يجب ألا يغفلوا عنه لحظة : ربط كل ما يتوقعونه وما هم مزمعون على فعله بمشيئة الله ـ تبارك وتعالى ـ ، فإن الأسباب تنتج مسبباتها بتأثير من الله ـ عزوجل ـ فيجب أن نكل النتيجة على الله بعد أن نأخذ بالأسباب .

خامساً : يؤخذ من حادثة إنقاذ المؤمنين من العطش ما يلي :

1 ـ الشدة والضنك الذي لحق بالمسلمين في هذه الغزوة ، فقد تضمن الخبر شدة الحر وقلة الماء وشدة العطش الذي حل بالمسلمين حتى هددهم بالموت ، لولا تدارك رحمة الله

بهم .

2 ـ عظيم صبر الصحابة : لقد صبر صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ على هذه الظروف وتحملوا ذلك ، فشهد لهم التاريخ والأجيال بالصبر ، بل وعلموا الأجيال اللاحقة الصبر لأنهم كانوا قدوة لهم فى ذلك ، وقد أعانهم على تحمل العطش وبُعد الشقة ماضمت صدورهم وقلوبهم من إيمان راسخ رسوخ الجبال .

3 ـ عظيم أجر الصحابة : إنه مما لا شك فيه أن هدا الصبر الذى تحلوا به يكافئهم الله ـ تبارك وتعالى ـ بالثواب الجزيل والنعيم المقيم ، لأنهم حملوا النفس على ما تكره فى ذات الله ـ تبارك وتعالى ـ .

نعم لقد كانوا يتجاوزون كل هذه الصعاب رغبة فيما عند الله من الحياة الهانئة الراغدة قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (1)

أضف إلى ذلك أن الصبر طريق النصر والتمكين ، والتخاذل طريق الفشل والهزيمة والخذلان ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (2) وقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾(3)

4 ـ أهمية الدعاء فى تفريج الكرب : لقد علمت أن الكرب الشديد قد لحق بالمسلمين فى تبوك ، وكان دعاء الرسول ـ ﷺ ـ المفرج لهذا الكرب الشديد ، ومُفرج الكروب هو الله ـ عز وجل ـ ، فلجأ إليه رسول الله ـ ﷺ ـ بالدعاء والرجاء .

وهذا درس للدعاة عليهم أن يحفظوه ويحافظوا عليه ، أن يكثروا من الدعاء فى الشدائد والكروب .

5 ـ مؤانسة الصديق بحسن الحديث : تأمل هذه المؤانسة من رسول الله ـ ﷺ ـ لأبى بكر وقد جاء يطلب منه الدعاء فقال : أو تحب ذلك ؟ قال أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ : نعم ، فلبى طلب الصديق وحقق رغبته .

---

(1) الزمر : 10 .
(2) البقرة : 153 .
(3) آل عمران : 146 .

ألست معى أخى القارىء الكريم أن السرور قد ملأ أبا بكر من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه لهذه المؤانسة فى الحديث ، هدانى الله وإياك لحسن الخلق وحسن الحديث ومؤانسة الناس وإدخال السرور إلى قلوبهم ونفوسهم .

6 ـ تكريم الله لعباده المؤمنين : إن هذه المعجزة وغيرها من المعجزات عبارة عن تكريم من الله ـ تبارك وتعالى ـ لعباده المؤمنين المجاهدين ، وهذا التكريم يؤنس النفوس ويزيل الهموم ، هذه نعمة من نعم الله ـ تعالى ـ الكثيرة التى لا تعد ولا تحصى قال تعالى : ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا**﴾

7 ـ خطأ فادح وجهل واضح نحذر منه :

جاء فى كتاب السيرة العطرة حول هذا الخبر الصحيح ص 454 ما يلى : (وأصبح الناس ولا ماء معهم إلا ما كان فى البئر الذى نهى النبى ـ ﷺ ـ عنه ، فأرسل الله ـ تعالى ـ سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس ، واحتملوا حاجتهم من الماء فقال قائلهم : معجزة من معجزات رسول الله ـ ﷺ ـ ، ولكن النبى ـ ﷺ ـ الحريص على الإعتزاز بمعجزته الوحيدة : معجزة القرآن الكريم ، لم يرض عن قولهم ، وقال ـ ﷺ ـ : إنما هى سحابة مارة)

وجاء فى كتاب " حياة محمد " حول نفس الحادثة ص 461 ما يلى :

(فلما أصبح الناس ألفوا هذه الرمال قد طمت البئر فلم يبق بها ماء ، ففزعوا خيفة الظمأ ، وقدروا هول ما بقى من طول الطريق ، وإنهم لكذلك إذ مرت بهم سحابة أمطرتهم ، فارتووا ، وأصابوا من الماء ما شاءوا وزايلهم الفزع ، وطار أكثرهم سروراً ، وأقبل بعض منهم على بعض يقولون : إنها معجزة ، أما آخرون فقالوا : إنما هى سحابة مارة) .

أقول : لو تأملنا النص الأول من كتاب السيرة العطرة نلاحظ ما يلى :

1 ـ إن النص المذكور يوهم القارىء أن السحابة التى أمطرت على المؤمنين وأنقذهم الله بها من العطش لم تكن نتيجة دعاء الرسول ـ ﷺ ـ بل لم يومئ الكاتب ولو إيماءة لهذا الخبر الصحيح .

2 ـ إن النص نفى صراحة معجزات الرسول الأخرى غير معجزة القرآن الكريم فقد

جاء فيه العبارة التالية : ولكن النبى - ﷺ - الحريص على الاعتزاز بمعجزته الوحيدة : معجزة القرآن الكريم .

3 - نسب نفى المعجزات الأخرى زوراً للرسول - ﷺ - وهذا ما دلت عليه العبارة السابقة .

4 - نسب عبارة : إنما هى سحابة مارة إلى رسول الله - ﷺ - ، وهذا محض افتراء .

وعند دراسة النص الثانى تبرز الملاحظات التالية :

1 - إن النص يوهم أن السحابة لم تكن نتيجة دعاء رسول الله - ﷺ .

2 - إن الكلام يوهم أن الذين نفوا المعجزة مؤمنون كالذين أثبتوها وفى الحقيقة إن الذين نفوها منافقون .

3 - تضييق دائرة الغيبيات والمعجزات ملحوظ عند الكاتبين ويظهر بوضوح من كلام النص الأول .

المناقشة :

إننا لو تدبرنا الحادثة من مصادرها الصحيحة نجد أنها ترد على هذه المغالطات وتفند هذه المزاعم الخاطئة .

1 - لقد كانت السحابة من نعم الله التى منّ الله بها على رسوله والمؤمنين استجابة لدعاء رسول الله - ﷺ - بإشارة من أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - تأمل : فقال أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - : يا رسول الله إن الله قد عودك فى الدعاء خيراً فادع الله لنا ، فقال : أو تحب ذلك ؟ قال : نعم ، قال : فرفع يديه نحو السماء فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأطلت ثم سكبت ، فملأوا ما معهم .

2 - أما الزعم بأن رسول الله - ﷺ - ليس له إلا معجزة واحدة هى القرآن الكريم فهذا مجرد دعوى تحتاج إلى برهان ، بل البراهين الكثيرة والحجج الدامغة فى كتب السنة تدل على ذلك ، فقد ورد فى صحيح البخارى - رحمه الله - وغيره معجزات كثيرة غير القرآن ، كنبع الماء من بين أصابعه - ﷺ - ، وتكثير الطعام ، وانشقاق القمر ، ونطق الجماد ، وتسبيح الطعام وهو يؤكل ، وتسبيح الحصى وحنين الجذع إلى رسول الله

ـ ﷺ (1)

وقد روى الإمام البخارى ـ رحمه الله ـ فى صحيحه بإسناده إلى أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أن أهل مكة سألوا رسول الله ـ ﷺ ـ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر . (2)

وفى رواية أخرى عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : انشق القمر على عهد النبى ـ ﷺ ـ شقتين فقال النبى ـ ﷺ ـ : اشهدوا (3)

قال ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ : (إن كثيراً من المعجزات النبوية قد اشتهر وانتشر ورواه العدد الكثير والجم الغفير ، وأفاد الكثير منه القطع عند أهل العلم بالآثار ، والعناية بالسير والأخبار ، وإن لم يصل عند غيرهم إلى هذه الرتبة لعدم عنايتهم بذلك . (4)

(وذكر الإمام النووى فى مقدمة شرح مسلم أن معجزات النبى ـ ﷺ ـ تزيد على ألف ومائتين ، وقال البيهقى فى المدخل : بلغت ألفاً ، وقال الزاهدى من الحنفية : ظهر على يديه ألف معجزة وقيل ثلاثة آلاف ، وقد اعتنى بجمعها جماعة من الأئمة كأبى نعيم والبيهقى وغيرهما) (5)

3 ـ وما تقدم من شواهد يدحض قول صاحب كتاب السيرة العطرة : ولكن النبى ـ ﷺ ـ حريص على الاعتزاز بمعجزته الوحيدة : معجزة القرآن الكريم .

أقول : نعم إن أهم معجزة للرسول ـ ﷺ ـ هى القرآن الكريم ، ولكن لا يعنى هذا ألا يوجد معجزات أخرى ظهرت على يديه ـ ﷺ ـ ، بل إن الأخبار الصحيحة نقلت إلينا مئات المعجزات إضافة إلى القرآن الكريم .

4 ـ أما الخطأ الفادح الذى ارتكبه صاحب السيرة العطرة حين نسب قول أحد المنافقين إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ، إذ عبارة (إنما هى سحابة مارة) صدرت عن أحد المنافقين يشكك

---

(1) انظر صحيح البخارى طبعة الشعب 4 / 232 ـ 250 وفتح البارى 7/ 391 ـ 444 .

(2) صحيح البخارى متن فتح البارى 7/ 444 .

(3) صحيح البخارى متن فتح البارى 7/ 444 .

(4) فتح البارى 7/ 392 ـ 393 .

(5) فتح البارى 7/ 393 .

فى كونها معجزة ، بل ينكر دعاء الرسول واستجابة ربه لدعائه بإرسال السحابة التى أمطرت وأنقذهم الله بها من العطش .

قال ابن إسحق : فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد عن رجال من بنى عبد الأشهل قال : قلت لمحمود : هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم؟ قال : نعم والله إن كان الرجل ليعرفه من أخيه ومن أبيه ومن عمه ، وفى عشيرته ، ثم يلبس بعضهم بعضاً على ذلك ، ثم قال محمود : لقد أخبرنى رجال من قومى ، عن رجل من المنافقين معروف نفاقه كان يسير مع رسول الله ـ ﷺ ـ حيث سار ، فلما كان من أمر الناس بالحجر ما كان ، ودعا رسول الله ـ ﷺ ـ حين دعا ، فأرسل الله السحابة ، فأمطرت حتى ارتوى الناس ، قالوا : أقبلنا عليه نقول : ويحك هل بعد هذا شيء ؟ قال : سحابة مارة .[1]

وهذا الخبر يدحض ما ذكره محمد حسين هيكل إذ نسبه إلى فريق من المؤمنين مع أنه ينص صراحة على أنه جرى على لسان أحد المنافقين منكراً هذه المعجزة وقد وقعت أمام ناظريه وشاهدها بأم عينيه على سبيل المكابرة والعناد .

5 ـ ومما يجدر ذكره أن هناك مدرسة قامت فى العصر الحديث متأثرة بالغزو الفكرى الذى تعرضت إليه بلاد المسلمين ، ووجهت سهامه الحاقدة إلى هذا الدين يشكك فى الأمور الغيبية فقام نفر بحجة الدفاع عن الإسلام فأنكروا الكثير من المعجزات والكرامات، وفسروا القرآن الكريم تفسيراً تعسفياً وحمّلوا الألفاظ ما لا تحتملها ، ففسروا الطير الأبابيل بالجراثيم .

ولقد تأثر الأستاذ محمد حسين هيكل بهذه المدرسة ، بل كان من رجالاتها ، وتجد هذا واضحاً فى كتابه حياة محمد ـ ﷺ ـ ، إذ نراه هنا لا يشير إلى هذه المعجزة ، ولا يسوق الخبر بدقة فيدع القارئ يستوعب الحقيقة ، بل يعرض ما راق له بأسلوبه الذى يغير الحقائق ويلبس على القارئ .

ومما يجدر ذكره هنا أن الكاتب فى كتابه "حياة محمد ـ ﷺ ـ" يغفل الصلاة والسلام على رسول الله ـ ﷺ ـ كلما أورد اسم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكذلك لا يترضى على الصحابى إذا ذكره فى حادثة أو خبر ، وهذا أمر يؤسف له فإن

(1) السيرة النبوية لابن هشام 2/ 522 .

البخيل والشحيح من ذكر رسول الله ـ ﷺ ـ ولم يصل عليه ، ولا أدرى ما الحكمة من تجنب الصلاة على الرسول ـ ﷺ ـ والترضى على صحابته ـ رضوان الله عليهم ـ الغر الميامين أسد الشرى وأعلام الورى ؟ !

سادساً : يؤخذ من دعاء الرسول ـ ﷺ ـ لدواب المسلمين الأمور التالية :

1 ـ نفس رسول الله ـ ﷺ ـ مبارك : فقد جاء في الخبر أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : «مروا باسم الله ، فمر الناس بظهرهم ، فجعل ينفخ بظهرهم ، فكان لهذا النفخ مع الدعاء تأثير فى الدواب ، وتنشيطها فى السير بعد ضعف ملحوظ من المجاهدين ، شكوا منه إلى رسول الله ـ ﷺ ـ .

2 ـ لجوء المسلمون إلى الرسول القائد فى أية مشكلة تعترضهم إذا لم يجدوا لها حلاً ، ليساعدهم فى إيجاد الحل المناسب ، فإن القائد أقدر على حل المشاكل من جنده فكيف إذا كان هذا القائد هو رسول الله ـ ﷺ ـ ، المؤيد من ربه ، المستجاب الدعاء .

3 ـ بركة دعائه ـ ﷺ ـ إذ حَوَّل هذا الدعاء الضعف إلى قوة ، وبعث الحياة فى الدواب التى تحمل المسلمين ، تأمل قول فضالة بن عبيد الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ : فما بلغنا المدينة حتى جعلت الدواب تنازعنا أزمتها .

4ـ يتضمن الحديث إشارة إلى الغزو البحرى الذى سيقوم به المسلمين فى مستقبل الأيام ، فقد جاء فى الخبر أن النبى ـ ﷺ ـ دعا بقوله : « *اللهم احمل عليهم فى سبيلك ، إنك تحمل على القوى والضعيف ، وعلى الرطب واليابس فى البر والبحر* » . قال فضالة : هذه دعوة النبى ـ ﷺ ـ على القوى والضعيف ، فما بال الرطب واليابس ؟ فلما قدمنا الشام غزونا قبرس فى البحر ، فلما رأيت السفن فى البحر وما يدخل فيها عرفت دعوة النبى ـ ﷺ ـ .

أقول : إن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يهيئ نفوس أصحابه إلى نشر الإسلام فى كل مكان يصلون إليه ، وكان يهيئ هذه النفوس لتغزو كل جبار عنيد أينما كان وتركب البحر والبر لتزيل كل العقبات التى تقف حجر عثرة فى سبيل وصول هذا الدين للناس ، والإيمان به ، وتطبيق أحكامه ، وإسعاد البشرية به فى الدنيا والآخرة .

إن إدراك طبيعة الطريق ، ومستقبل الدعوة ، والتخطيط لها ، وتهيئة نفوس المسلمين

لتنفيذ ذلك أمور فى غاية الأهمية وإن دلت على شىء فإنما تدل على بصيرة ثاقبة ، ورأى سديد ، ووعى عميق .

سابعاً : يؤخذ من خبر ناقة الرسول ـ ﷺ ـ وما تفوه به ذلك المنافق عند ضياعها الأمور التالية :

1 ـ الرسول لا يعلم الغيب : إن علم الغيب علم اختصه الله تبارك وتعالى لنفسه ، ولم يجعله لأحد من خلقه سواء كان ملكاً من الملائكة أو رسولاً من الرسل أو نبياً من الأنبياء ، أو لأحد من الناس سواء كان صالحاً تقياً أو فاسداً شريراً ، فعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو سبحانه ، قال تعالى : ﴿وعِندَهُ مفاتحُ الْغيْب لا يعْلمُها إلاَّ هُو ويعْلمُ مَا في الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقةٍ إلاَّ يَعْلَمُهَا ولا حبَّةٍ في ظُلُمَاتِ الأرْض وَلا رطْبٍ ولا يابسٍ إلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (1)

وكل الذى يمكن أن يحدث أن الله ـ عز وجل ـ قد يطلع عبداً من عباده كالرسول مثلاً على أمر من الأمور الغيبية فيخبر بها قبل وقوعها فتقع ، فتدل هذه على صدق نبوته وصحة رسالته .

ومن هذا القبيل خبر ناقته ـ ﷺ ـ حين ضاعت لم يكن ليعلم مكانها ولا أين هى ، فأخبره الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن طريق الوحى بمكانها فأخبر أصحابه بذلك ، كما أخبره بقول المنافق الذى يشكك فى صدق نبوة الرسول ورسالته بمغالطة غير مقبولة .

2 ـ ظاهرة النفاق لم تكن محصورة فى العرب بل كانت متفشية عند اليهود أيضاً إذ كانوا يسيرون فى صفوف المسلمين ويتظاهرون بالإسلام ويضمرون الكيد والحقد لكل مسلم وعلى رأس المسلمين رسول الله ـ ﷺ ـ .

بل إن النفاق قد استحكم فى قلوب اليهود وتغلغل فى نفوسهم ففاقوا المنافقين من أهل المدينة ، بل إن المنافقين من اليهود كانوا معلمين وموجهين لمنافقى المدينة من أوس وخزرج ، قال تعالى : ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمنّا وإذا خلوْا إلىٰ شياطينهمْ قالُوا إنَّا معَكُمْ

(1) الأنعام : 59 .

إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ (1)

والمقصود بشياطين المنافقين هنا هم اليهود .

3 ـ صور المنافقين فى الإيذاء كثيرة ، وفى هذه الحادثة نجد صورة الإيذاء تتمثل فى لمز الرسول ـ ﷺ ـ والتشكيك فى نبوته ورسالته ، ومحاولة تشويه صورته فى أذهان أتباعه أو الناس حتى ينفروا منه ، ويتركوه ويتخلوا عنه ، فيضعف ويقوى غيره من المنافقين الطامعين فى السيادة والحكم حتى يقيموا ملكهم على أنقاض حكمه ، وما علموا أن الله ـ عز وجل ـ مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير .

4 ـ نلاحظ من هذا الخبر أن رسول الله ـ ﷺ ـ لم يعاقب هذا المنافق اليهودى الذى شكك فى صدق نبوة الرسول ـ ﷺ ـ ورسالته ، فما الحكمة من ذلك ؟ يلوح لى والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم أن العقوبة تطهير للقلب وللنفس والبدن ، وإبراء من مرض الخطيئة والذنب ، ووسيلة لسقوط العقوبة الأخروية ، وهى علاج للمؤمنين ليأخذ بأيديهم إلى ما فيه خيرهم فى الدنيا والآخرة ، والمنافقون قد استفحل مرض النفاق فى قلوبهم ، فلا تنفع معه عقوبة تطهر النفوس والقلوب .

أضف إلى ذلك أن الرسول ـ ﷺ ـ لو عاقب هؤلاء سيشيع فى الناس أن محمداً يطارد أصحابه ، لأنهم فى الظاهر محسوبون عليه ، يعيشون معه ويشاركونه فى حله وترحاله .

5 ـ زجر المنافق ومفاصلته إذا قامت البينة على نفاقه : يؤخذ هذا من تصرف عمارة ابن حزم من زيد بن اللصيت المنافق ، إذ لما سمع بمقالته حول الرسول ـ ﷺ ـ لما ضلت ناقته ، فما كان منه إلا أن وجأ زيد بن اللصيت فى عنقه ، وقال : إنك لداهية فى رحلى ، اخرج يا عدو الله منه .

ألا ترى أخى القارئ الكريم أن عمارة قد زجره بالكلام وأدبه بيده وطرده من رحله .

وهكذا ينبغى أن يكون موقف كل داعية من كل مبتدع أو صاحب فتنة ، لا يرخى

(1) البقرة : 14 .

أذنيه لسماع مفترياته وبدعه ، ولا ينصت لأصحاب الفتن ، بل عليه أن يخرسهم ويمنعهم ويزجرهم ويقاطعهم إن هم أصروا على ما هم فيه من إيقاد نار الفتنة بين المؤمنين .

ثامناً : ويؤخذ من قصة ذى البجادين الدروس التالية :

1 ـ الطواغيت يصرون على الكفر ويمنعون الناس من الإيمان ، ويستخدمون وسائل متعددة لمنعهم من الإيمان ، ومن هذه الصور والوسائل ما لجأ إليه عم ذى البجادين بأن هدده بمصادرة أمواله ، والواقع أن هذا أسلوب متخلف ، وهو وسيلة من وسائل الإرهاب الفكرى حين يعجز أصحابه عن مقارعة الحجة بالحجة والدليل بالدليل ، وهذه الوسيلة لا تؤثر إلا فى ضعاف النفوس ، ضعاف الإرادة ، ضعاف الشخصية .

2 ـ المؤمن يضحى من أجل إيمانه وإسلامه : لقد خُيِّر ذو البجادين بين طريقين :

الأول : طريق الإيمان وإن أدى إلى مصادرة الأموال .

الثانى : طريق المال والغنى بلا إيمان .

فاختار ـ رضى الله عنه ـ الطريق الأول وضحى بماله جميعاً راغباً فيما عند الله من الثواب والمغفرة والرضوان ، تأمل موقفه من عمه حين هدده قائلاً : والله لئن اتبعت محمداً ، لا أترك بيدك شيئاً كنت أعطيتك إلا نزعته منك فقال له : فأنا والله متبع محمداً، وتارك عبادة الحجر ، هذا ما بيدى فخذه ، فأخذ كل ما كان أعطاه حتى جرده من إزاره ، فأتى أمه فأعطته بجاداً لها فشقه شقين فاتزر بواحد ، واتشح بالآخر ، ثم أقبل نحو المدينة .

حقاً إن نعمة الإيمان لا تعدلها نعمة ، ودين التوحيد لا يعدله دين إنه حياة للقلوب والنفوس ، فاختار ذو البجادين نور الهدى فاهتدى وتحرر من أوهاق المادة وإغرائها ، وضحى بالعرض الزائل رجاء الحصول على النعيم الخالد ، فالحمد لله أولاً وآخراً الذى هداه لذلك وما كان ليهتدى لذلك لولا أن هداه الله .

3 ـ أدب ذى البجادين مع عمه الكافر : لقد سرى الإيمان إلى قلب ذى البجادين ورجا أن يسلم عمه حتى يفتح الطريق أمامه ، ولكن التعصب الأعمى أعماه وأصمه عن الحق ، ومع هذا يستأذن عمه لتطيب نفسه فيقول : يا عم إنى قد انتظرت إسلامك ، فلا

أراك تريد محمداً ، فأذن لى فى الإسلام .

ولكن هذا الأدب لا يعنى أن يطيع عمه فى الضلال والكفر ويستجيب لهواه بل لا طاعة لمخلوق يصد المؤمن عن الإيمان ويصر عليه أن يبقى على الشرك ، وفى نفس الوقت يلاطفه فى الحديث من قبيل المصاحبة بالمعروف ، لعله يرق قلبه ، ويستميل نفسه للحق .

وأسلوب الملاطفة فى الحديث إذا لم يكن هناك تنازل عن المبادئ فهو ممدوح وليس مذموماً ، يحسن بكل مسلم أن يتحلى به ، حتى يصبح خصلة من خصاله الحميدة ومنقبة من مناقبه الجليلة .

4ـ جواز النوم فى المسجد لحاجة : فقد أقر رسول الله ـ ﷺ ـ ذا البجادين فى نومه فى المسجد ولم ينكر عليه .

5ـ تفقد الرسول القائد لأحوال الناس والعمل على مساعدتهم ، والتعرف على من لا يعرفه ، ويدخل الأنس إلى نفوسهم ، تأمل قول الرسول لذى البجادين : من أنت ؟ قال : أنا عبد العزى ، قال : أنت عبد الله ذو البجادين ، ثم قال لذى البجادين : " انزل منى قريباً " ، فعلمه القرآن وصار من أضياف رسول الله ـ ﷺ ـ ، يحوطه بالعناية والرعاية ويأمر الصحابة بملاطفته .

6ـ حب الشهادة وحرص ذى البجادين عليها : لقد كان رحمه الله ـ ورضى الله عنه ـ يتمنى أن يلقى ربه شهيداً ، وطلب من رسول الله ـ ﷺ ـ أن يدعو له بأن يرزقه الشهادة فى سبيل الله ، ولما دعا رسول الله ـ ﷺ ـ بقوله : اللهم إنى أحرم دمه على الكفار، قال : يا رسول الله ليس هذا أردت .

7ـ قتيل الحمى فى الغزو شهيد : هذا ما أخبر به رسول الله ـ ﷺ ـ ذا البجادين حين قال له : «*إنك إذا خرجت غازيا فى سبيل الله فأخذتك حمى فقتلتك فأنت شهيد ، أو وقصتك دابتك فأنت شهيد*» .

8ـ جواز الدفن فى الليل : فقد دفن رسول الله ـ ﷺ ـ ذا البجادين ليلاً ، والسنة أن يعجل فى دفن الميت كما أخبر الرسول ـ ﷺ ـ ، فإن ثلاثة أمور إذا حضرن لا يؤخرن منها صلاة الجنازة .

9 ـ الغبطة مشروعة : والغبطة أن تتمنى حصول الخير لك كما حصل لغيرك من إخوانك وهذا عكس الحسد ، إذ الحسد تمنى زوال النعمة عن غيرك ، والحسد كله شر كما ترى ، أما الغبطة فلا تكون إلا فى الخير .

تأمل قول عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ حينما سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول بحق ذى البجادين : « *اللهم إنى أمسيت عنه راضياً فارض عنه* » ، فقال ابن مسعود : يا ليتنى كنت صاحب اللحد .

المنافقون فى الغزوة

المنافقون فى الغزوة

المنافقون فى الغزوة

إن ظاهرة النفاق لم تبرز فى العهد المكى وإنما ظهرت فى المجتمع المدنى وبعد قيام الدولة الإسلامية ذات الكيان السياسى القوى ، ذلك لأن المسلمين فى المجتمع المكى ضعاف لا حول لهم ولاقوة ، ولا مصالح مادية ترتجى عندهم ، بل إن الذى يتعاطف معهم يتعرض للأذى والعنت والمشقة .

أما بعد الهجرة وقيام الدولة فقد أصبحت المصالح والمنافع موجهة وجهة إسلامية ، وأصحاب النفوذ والسلطان وجدوا أنفسهم غير قادرين على مواجهة الدولة بالقوة ، فما كان منهم إلا أن تظاهروا بالإسلام وأضمروا الحقد على الإسلام والمسلمين .

لقد كانت ظاهرة النفاق من أصعب العقبات الداخلية التى واجهت المجتمع الإسلامى المدنى ، إذ كانت تعرِّض المجتمع المدنى إلى هزات قوية من شأنها العمل على إضعاف الجبهة الداخلية وتمزقها لولا تدارك العناية الإلهية ورعايتها لهذا المجتمع الربانى .

إن هؤلاء المنافقين بعد أن عجزوا عن مواجهة الدولة بالقوة سلكوا أساليب ملتوية ووسائل خبيثة ، وطرقاً شريرة ليقوضوا أركان الدولة ، ويحطموا كيانها السياسى والاقتصادى والعسكرى والأخلاقى ، وتعاونوا مع كل عدو من أجل تحقيق هذا الهدف الخبيث ، وكانوا يغتنمون الظروف الحرجة التى تمر بالمسلمين ويستغلونها حتى ينفثوا سمومهم ، كغزوة أحد وغزوة الأحزاب ، وغزوة بنى النضير وغزوة بنى قريظة وغزوة خيبر .

وفى غزوة تبوك حدثت صور شريرة من النفاق تدل على حقيقتهم وتكشف زيف ادعائهم الإيمان .

ولقد تضمنت سورة التوبة كثيراً من هذه الصور ، كما تضمنت غزوة تبوك وما جرى فيها من أحداث وصور لتصرفات المنافقين وأساليبهم :

الصورة الأولى :

تبين هذه الصورة أن المنافقين كانوا يكرهون الخروج لحرب الروم ، ويجبنون عن قتالهم ، ويتثاقلون من السير إلى تبوك لطول المسافة ومشقة السفر والخوف من الهلاك لتوهمهم أن الروم لا يقهرون .

ولكنهم لم يظهروا هذه الأسباب الحقيقية التى تدور فى نفوسهم ، بل استطاعوا أن يغطوا حقيقة موقفهم هذا باستئذانهم الرسول ـ ﷺ ـ أن يتغيبوا عن الغزوة ، فأذن لهم علماً بأنهم فد تواطئوا على عدم الخروج سواء أذن لهم رسول الله ـ ﷺ ـ أو لم يأذن لهم والقرائن تفيد أنهم لا يريدون الخروج للغزو ، ذلك لأن الذى يريد الجهاد يستعد ويعد للأمر عدته ، بتوفير الزاد والراحلة والسلاح والعتاد .

وعن هذه الصورة تحدثت خمس آيات من سورة التوبة هى : قال تعالى : ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (1)

الصورة الثانية : إنهم أصحاب فتنة ومعول هدم وعامل فساد وإفساد حين يكونون مع المسلمين فى الغزو والقتال ، ولهذا من مصلحة المسلمين عدم خروجهم للقتال معهم ؛ لأن المسلمين فى ساعات القتال ينبغى أن يكونوا فى حالة من التماسك والاتحاد ، وأن تكون جبهتهم فى القتال صلبة قوية حتى تتحطم على صخرتها كل محاولات الأعداء ، فمن الخير كل الخير للمسلمين ألا يشاركهم المنافقون شرف الجهاد علماً بأنهم لا يرغبون فيه بل يريدون تصديع جبهة المسلمين وتمزيق شملهم .

---

(1) التوبة : 42 ـ 46 .

وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ (1)

قال القرطبى فى تفسيره : قوله تعالى : ﴿ وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ [لأسرعوا فيما بينكم من الإفساد ، والإيضاع : سرعة السير ، يقال وضع البعير إذا عدا ، يضع وضعاً ووضوعاً إذا أسرع السير . . والخلل الفرجة بين الشيئين ، والجمع الخلال : أى الفرج التى تكون بين الصفوف ، أى لأوضعوا خلالكم بالنميمة وإفساد ذات البنين](2)

الصورة الثالثة : الاعتذار بأعذار واهية أوهى من خيط العنكبوت ، وأقوال قبيحة أقبح من المخالفة نفسها ، ومن هذه الأعذار ما ذكره المفسرون وكتاب السير عن المنافق الجد بن قيس ، فقد جاء رسول الله ـ ﷺ ـ وهو فى المسجد معه نفر ، فقال : يا رسول الله ائذن لى فى القعود ، فإنى ذو ضبعة (3) وعلة فيها عذر لى ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : تجهز فإنك موسر ـ ثم اتفقوا ـ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : تجهز تجهز فإنك موسر ، لعلك تحقب من بنات بنى الأصفر ؟ قال الجد : أو تأذن لى ولا تفتنى ، فوالله لقد عرف قومى ما أحد أشد عجباً بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر عنهن ، فأعرض عنه رسول الله ـ ﷺ ـ وقال : قد أذنا لك . . . فجاءه ابنه عبد الله بن الجد فقال له : لم ترد على رسول الله ـ ﷺ ـ مقالته ، فوالله ما فى بنى سلمة أحد أكثر منك مالاً ، فلا تخرج ولا تحمل ؟ ! فقال : يا بنى ما للخروج فى الريح والحر الشديد والعسرة إلى بنى الأصفر ، فوالله ما آمن خوفاً من بنى الأصفر وأنا فى منزلى ، أفأذهب إليهم أغزوهم؟ ! إنى والله يا بنى عالم بالدوائر ، فأغلظ له ابنه وقال : لا والله ولكنه النفاق .

فرفع نعله فضرب به وجه ولده فانصرف ابنه ولم يكلمه (4) ، فأنزل الله فيه :

(1) التوبة : 47 ، 48 .

(2) الجامع لأحكام القرآن 8/ 157 .

(3) الضبعة : شدة شهوة الفحل للناقة .

(4) انظر سبل الهدى والرشاد 5/ 631 ـ 632 وتفسير ابن كثير 3/ 407 وتفسير الطبرى 10/ 148 ـ 149 وتفسير القرطبى 8/ 158 وأسباب النزول للواحدى 246 ـ 247 ، وتاريخ الطبرى 3/ 142 .

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ (1)

لقد أوضحت الآية الثانية فى هذه المجموعة من الآيات حقيقة نفر من المنافقين بأنهم يكرهون المسلمين ويتمنون لهم الشر والهزيمة ، فهم يستاءون أشد الاستياء إذا حصل للمسلمين أى نفع ، ويفرحون أشد الفرح ، بل ويشمتون بالمسلمين إذا أصابهم أمر يكرهونه كهزيمتهم أمام أعدائهم ، وإزاء هذا فقد حصن الله عباده المؤمنين ضد هذا المكر ، فقال ـ سبحانه ـ موجهاً رسوله ـ ﷺ ـ ومن معه من المؤمنين : ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ إلى آخر الآيات السابقة .

الصورة الرابعة : الرياء فى الإنفاق والعبادة : فالرياء شرك ، والشرك يبطل العمل ويحرم صاحبه من الثواب ، وفوق هذا الرياء المحبط للعمل لا ينشطون فى أداء العبادة كالصلاة بل يتكاسلون ويتثاقلون عن أدائها ، كما لا يخلصون ولا يقصدون إلا وجه الله فى إنفاقهم .

وفى هذه الصورة يقول الله تعالى : ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (2)

روى الطبرى ـ رحمه الله ـ فى تفسيره أن الجد بن قيس لما عرض عليه رسول الله ـ ﷺ ـ الخروج معه لغزو الروم قال : إنى إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أفتتن ولكن أعينك بما لى ، فنزل قوله تعالى : ﴿أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾

(1) التوبة : 50 ـ 52 .

(2) التوبة : 53 ـ 54 .

ويوجه الله ـ تبارك وتعالى ـ رسوله ـ ﷺ ـ والمؤمنين إلى أمر تربوى هام هو ألا يفتنوا ولا يعجبوا بكثرة أموال المنافقين الكافرين وأولادهم فهى أمور زائلة لا محالة ، بل جعلها الله ـ تبارك وتعالى ـ وسائل تعذيب لهم فى الدنيا حيث القلق النفسى والاضطراب والعقوق ، قال ـ سبحانه ـ : ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (1)

الصورة الخامسة : الكذب على المؤمنين ومخادعتهم .

وتتحدث عن هذه الصورة آيتان من سورة التوبة هما قوله تعالى : ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ (2)

تأمل كيف يكذبون على المؤمنين ويحاولون خداعهم بادعائهم أنهم منهم وهم ليسوا كذلك ، والذى دفعهم إلى هذا الخوف على أنفسهم من القتل إن هم أظهروا حقيقة ما فى قلوبهم من الكفر ولهذا فهم يتسترون بادعاء الإيمان وهم منه براء .

الصورة السادسة : الطعن فى عدل النبى فى توزيعه الصدقات :

وتتحدث سورة التوبة عن هذه الصورة فى قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ (3)

روى أن رسول الله ـ ﷺ ـ قد أعطى بعض ضعفاء الأعراب رعاء الغنم إعانة لهم من الصدقات ، وتأليفاً لقلوبهم فقال أحد المنافقين واسمه أبو الجواظ : ما هذا بالعدل أن يضع صدقاتكم فى رعاء الغنم ، وقد أمر أن يقسمها فى الفقراء والمساكين (4)

ولقد أظهرت الآية السابقة حقيقة هذا وأمثاله من المنافقين والدافع إلى كلامهم

(1) التوبة : 55 .

(2) التوبة : 56 ، 57 .

(3) التوبة : 58 ، 59 .

(4)تفسير التنوير والتحرير 10 / 232 .

واعتراضهم ، إذ لم يكن الاعتراض منبعثاً عن حرص على أموال الصدقات ، بل كان الباعث جشعهم وطمعهم فى أموال الصدقات ، بدليل أنهم سرعان ما يتوقفون عن الاحتجاج إذا أعطوا من أموال الصدقات على الرغم من عدم حاجتهم واستحقاقهم لها .

ومما يجدر ذكره هنا أن مصارف الزكاة لم يتركها الله ـ تبارك وتعالى ـ لقسم النبى ولا غيره بل حددها المولى ـ تبارك وتعالى ـ بثمانية مصارف لا يزاد عليها [1] ، قال تعالى : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [2]

الصورة السابعة : النيل من النبى ـ ﷺ ـ : لقد وقف المنافقون يتهمون رسول الله ـ ﷺ ـ ويعيبونه بقولهم إنه أذن سامعة ، يسمع من كل أحد ما يقول ، فيقبل كلامه ويصدقه دون روية أو تمحيص ، وهذه الصورة وردت فى سورة التوبة فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [3]

قيل فى أسباب النزول : [4]

(نزلت فى جماعة من المنافقين كانوا يؤذون الرسول ـ ﷺ ـ ويقولون فيه مالا ينبغى ، فقال بعضهم : لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا ، فقال الجلاس بن سويد : نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول ، فإنما محمد أذن سامعة ، فأنزل الله هذه الآية) .

وقال محمد بن إسحق : نزلت فى رجل من المنافقين يقال له : نبتل بن الحارث ، وكان رجلاً أدلم أحمر العينين ، أسقع الخدين ، مشوه الخلقة ، وهو الذى قال فيه النبى ـ ﷺ ـ : «*من أراد أن ينظر الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث*» ، وكان ينم بحديث النبى

---

(1) روى أبو داود فى سننه بإسناد صالح أن رجلاً أتى النبى ـ ﷺ ـ فقال : أعطنى من الصدقة . فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن الله تعالى لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات حتى حكم فيها هو ، فجزأها ثمانية أجزاء ، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك » . سنن أبى داود 2/ 378 ـ 379 وانظر السنن الكبرى 1/ 173 ـ 174 .

(2) التوبة : 60 .

(3) التوبة : 61 .

(4) أسباب النزول ص 248 ـ 249 والمحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز 6/ 547 .

ـ ﷺ ـ إلى المنافقين ، فقيل له : لا تفعل ، فقال : إنما محمد أذن من حدثه شيئاً صدقه ، نقول ما شئنا ثم نأتيه فنحلف له فيصدقنا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقال السدى : اجتمع ناس من المنافقين ، فيهم جلاس بن سويد بن الصامت ، ووديعة بن ثابت ، فأرادوا أن يقعوا فى النبى ـ ﷺ ـ ، وعندهم غلام من الأنصار يدعى عامر بن قيس ، فحقروه فتكلموا ، وقالوا : والله إن كان ما يقوله محمد حقاً لنحن شر من الحمير ، فغضب الغلام فقال : والله إن ما يقول محمد حق ، وإنكم لشر من الحمير ، ثم أتى النبى ـ ﷺ ـ فأخبره ، فدعاهم فسألهم ، فحلفوا أن عامراً كذاب ، وحلف عامر أنهم كذبة ، وقال : اللهم لا تفرق بيننا حتى تبين صدق الصادق من كذب الكاذب ، فنزلت فيهم : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ ﴾

الصورة الثامنة : اتخاذ الأيمان الكاذبة وسيلة للدفاع والإقناع وكسب رضا المؤمنين ، وفى الوقت ذاته فإنهم قبحهم الله تعالى لا يحرصون على إرضاء الله وإرضاء رسوله ـ ﷺ ـ . قال تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ (1)

الصورة التاسعة : إيذاء المؤمنين بالسباب والشتائم والطعن فى وعد رسول الله ـ ﷺ ـ والتشكيك فيه ، والاستهزاء بالله وآياته ورسوله ثم ينكرون ذلك إذا ما وجهوا به وعوتبوا .

قال تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ (2)

قال فى أسباب النزول :

(قال قتادة : بينما رسول الله ـ ﷺ ـ فى غزوة تبوك ، وبين يديه ناس من المنافقين ،

(1) التوبة : 62 ، 63 .

(2) التوبة : 65 ، 66 .

إذ قالوا : أيرجوا هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها ، هيهات ، هيهات له ذلك ، فأطلع الله نبيه على ذلك فقال نبى الله ـ ﷺ ـ : احبسوا على الركب ، فأتاهم فقال : قلتم كذا وكذا ، فقالوا : يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقال زيد بن أسلم ومحمد بن كعب : قال رجل من المنافقين فى غزوة تبوك : ما رأيت مثل قراءنا هؤلاء أرغب بطوناً ، ولا أكذب ألسناً ، ولا أجبن عند اللقاء ـ يعنى رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه ـ فقال له عوف بن مالك : كذبت ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله ـ ﷺ ـ فذهب عوف ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه ، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول الله : إنما كنا نخوض ونلعب ونتحدث بحديث الركب نقطع به عنا الطريق) (1) .

الصورة العاشرة : اجتماع نفر من المنافقين على إيذاء الرسول ـ ﷺ ـ والمؤمنين والطعن فى الدين ثم اتفاقهم على كتمان ذلك ، فأعلم الله ـ تبارك وتعالى ـ رسوله ـ ﷺ ـ عن طريق أحد المؤمنين الذين سمعوا أقوالهم ، فأنكروا ما صدر عنهم من كلام مؤكدين ذلك بحلف الأيمان الكاذبة .

قال تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ (2)

قال فى أسباب النزول :

(قال الضحاك : خرج المنافقون مع رسول الله ـ ﷺ ـ إلى تبوك ، فكانوا إذا خلا بعضهم إلى بعض سبوا رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه وطعنوا فى الدين ، فنقل ما قالوا حذيفة إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ، فقال لهم رسول الله ـ ﷺ ـ : يا أهل النفاق ما هذا الذى بلغنى عنكم ؟ فحلفوا ما قالوا شيئاً من ذلك ، فأنزل الله هذه الآية إكذاباً لهم) (3)

---

(1) أسباب النزول للواحدى 250 وانظر التحرير والتنوير 10/ 269 والمحرر الوجيز 6/ 550 .

(2) التوبة : 74 .

(3) أسباب النزول للواحدى ص 251 .

الصورة الحادية عشر : معاهدة الله على طاعته والإنفاق في سبيله ثم نكث العهد من بعد ذلك قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (1) .

تأمل كيف كانت هذه العقوبة الحاسمة الجازمة لهؤلاء المنافقين ، إذ عاقبهم بالانتكاس والارتكاس في حمأة النفاق ومستنقع الكفر النتن والاستمرار في ذلك حتى الموت والحساب .

الصورة الثانية عشرة : لمز المؤمنين عند تبرعهم : ومن هذه الصور القبيحة للمنافقين موقفهم من المؤمنين الذين يبذلون في سبيل هذا الدين ونشره والجهاد في سبيل إعلاء كلمته ، ذلك الموقف الذي يتسم بنقد كل شيء يصدر عن المؤمنين بمهاجمته أو التهوين من شأنه ، فإذا تبرع غني من أغنياء المسلمين كعبد الرحمن بن عوف بمبلغ ضخم من المال هاجموه واتهموه بالرياء ، وإذا تبرع مقل بقليل من المال احتقروه واستهانوا بتبرعه واتهموه بالرياء أيضاً .

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (2)

فقد ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله ـ ﷺ ـ حث على الصدقة ، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم ، وقال : يا رسول الله مالي ثمانية آلاف جئتك بنصفها فاجعلها في سبيل الله ، وأمسكت نصفها لعيالي ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : «*بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت* » . . . وتصدق يومئذ عاصم بن عدي بن العجلان بمائة وسق من تمر ، وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع من تمر ، وقال : يا رسول الله بت ليلتي أجر بالجرير (3) الماء حتى نلت صاعين من تمر ، فأمسكت أحدهما لأهلي

(1) التوبة : 75 ـ 78 .

(2) التوبة : 79 .

(3) الجرير : الحبل .

وأتيتك بالآخر ، فأمره رسول الله ـ ﷺ ـ أن ينثره في الصدقات ، فلمزهم المنافقون وقالوا : ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياءً ، وإن كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل ، ولكنه أحب أن يذكر نفسه ، فأنزل الله ـ تبارك وتعالى ـ هذه الآية .[1]

الصورة الثالثة عشرة : تثبيط المؤمنين عن القتال بعد أن تخلفوا عنه وفرحوا بذلك ، قال تعالى : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ۝٨١ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[2]

قال في تفسير التحرير والتنوير : (فالمخلفون هم الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، استأذنوا النبي ـ ﷺ ـ فأذن لهم وكانوا من المنافقين فلذلك أطلق عليهم في الآية وصف المخلفين بصيغة اسم المفعول لأن النبي خلفهم ، وفيه إيماء إلى أنه ما أذن لهم في التخلف إلا لعلمه بفساد قلوبهم وأنهم لا يغنون عن المسلمين شيئاً كما قال : لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا) وذكر فرحهم دلالة على نفاقهم لأنهم لو كانوا مؤمنين لكان التخلف نكداً عليهم ، وتغصاً كما وقع للثلاثة الذين خلفوا فتاب الله عليهم . . .

وكراهيتهم الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله خصلة أخرى من خصال النفاق ، لأن الله أمر بذلك في الآية المتقدمة . . .

وكون نار جهنم أشد حراً من حر القيظ أمر معلوم لا يتعلق الغرض بالإخبار عنه ، فتعين أن الخبر مستعمل في التذكير بما هو معلوم تعريضاً بتجهيلهم لأنهم حذروا من حر قليل وأقحموا أنفسهم فيما يصير بهم إلى حر أشد ، فيكون هذا التذكير كناية عن كونهم واقعين في نار جهنم لأجل قعودهم عن الغزو في الحر)[3]

وكان هؤلاء المثبطون يجتمعون في بيت لرجل يهودي اسمه سويلم ، فبعث رسول الله ـ ﷺ ـ طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه ، وأمروا أن يحرق عليهم بيت

---

(1) انظر أسباب النزول للواحدي ص 255 وتفسير القرطبي 8/ 215 وتفسير ابن كثير 3/ 429 ـ 431 وتفسير الطبري 10/ 194 والتحرير والتنوير 10/ 274 ـ 275 والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز 6/ 578 .

(2) التوبة : 81 ، 82 .

(3) انظر تفسير التحرير والتنوير 10/ 280 ـ 281 .

سويلم ، فنفذ ـ رضى الله عنه ـ أمر رسول الله ـ ﷺ ـ ، ففر المنافقون الذين فى البيت وأفلتوا من العقوبة إلا الضحاك بن خليفة فقد اقتحم من ظهر البيت فانكسرت رجله فقال الآبيات التالية :

كـادت وبيـت الله نـار محمـد ❖ يشيـط بها الضحـاك وابن أبيرق

وظَلْتُ وقد طبقت كبـس سويلم ❖ أنـوء على رجلى كسيراً ومر فقى

سـلام عليـك لا أعـود لمثلها ❖ أخـاف ومن تشمل به النار يحرق

رواه ابن هشام فى السيرة النبوية (1) .

الصورة الرابعة عشرة : إقدامهم على جريمة نكراء وهى محاولة اغتيال رسول الله ـ ﷺ ـ ، ولكن الله تبارك وتعالى نجاه من مكرهم فقال تعالى : ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾

روى الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ فى مسنده بإسناده إلى أبى الطفيل قال :

لما أقبلَ رسول الله ـ ﷺ ـ من غزوة تبوك أمر منادياً فنادى: إن رسول الله ـ ﷺ ـ أخذ االعقبة (2) فلا يأخذها أحد ، فبينما رسول الله ـ ﷺ ـ يقوده حذيفة ويسوق به عمار إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل غشوا (3) عماراً وهو يسوق برسول الله ـ ﷺ ـ ، وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لحذيفة : قد قد (4) حتى هبط رسول الله ـ ﷺ ـ ، فلما هبط رسول الله ـ ﷺ ـ نزل ورجع عمار فقال : يا عمار هل عرفت القوم ؟ فقال : قد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون ، قال : هل تدرى ما أرادوا ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال : أرادوا أن ينفروا برسول الله ـ ﷺ ـ فيطرحوه ،

---

(1) انظر السيرة النبوية ـ لابن هشام 2/ 517 وسبل الهدى 5/ 632 وسيرة ابن كثير 4/ 605 والسيرة الحلبية 3/ 102 ـ 103 .

(2) الطريق العالى فى الجبل .

(3) ازدحموا عليه .

(4) اسم فعل بمعنى كفى أو يكفى ضرباً وتكرارها لتأكيد الأمر ويقول المتكلم : قدنى أى حسبى وللمخاطب : قدك أى حسبك .

قال : فسارَّ عمار رجلاً من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : نشدتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة [1] ؟ فقال : أربعة عشر ، فقال : إن كنت فيهم فقد كانوا خمسة عشر ، فعدد رسول الله ـ ﷺ ـ منهم ثلاثة قالوا : والله ما سمعنا منادى رسول الله ـ ﷺ ـ ، وما علمنا ما أراد القوم ، فقال عمار : أشهد أن الإثنى عشر الباقين حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) [2]

---

(1) جاء فى مختصر بلوغ الأمانى 21/ 202 : قال النووى : وهذه العقبة ليست العقبة المشهورة بمنى التى كانت بها بيعة الأنصار ـ رضى الله عنهم ـ ، وإنما هذه عقبة على طريق تبوك ، اجتمع المنافقون فيها للغدر برسول الله ـ ﷺ ـ فى غزوة تبوك ، فعصمه الله منهم .

(2) الفتح الربانى 21/ 201 ـ 202 وقال الساعاتى فى تخريج الحديث : رواه البيهقى فى الدلائل ومعناه عند مسلم من حديث حذيفة ، قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره : ويشهد لهذه القصة بالصحة ما رواه مسلم ، فذكر حديث مسلم بمعناه ، قلت : وحديث الباب رجاله ثقات .

وانظر : هذا الحديث أيضاً فى مغازى عروة 221 ومجمع الزوائد 6/ 195 وزاد المعاد 3/ 545 ـ 547 .

مسجد الضرار (1)

ذكر أهل السير والمفسرون أن رجلاً من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب قد تنصر قبل الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة ، وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان فيه عبادة فى الجاهلية ، وله شرف كبير فى الخزرج ، فلما قدم رسول الله ـ ﷺ ـ مهاجراً إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه ، وصارت للإسلام كلمة عالية ، وأظهرهم الله يوم بدر ، غضب أبو عامر لانتصار المسلمين وهزيمة المشركين ، وأظهر عداوته لله ولرسوله ، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركى قريش ، يمالئهم على حرب رسول الله ـ ﷺ ـ ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وحاربوا المسلمين فى أحد بعد أن حاول أن يوجد شرخاً فى وحدة الأنصار والمهاجرين .

هذا وقد دعاه رسول الله ـ ﷺ ـ إلى الإسلام قبل فراره وقرأ عليه القرآن فأبى أن يسلم وتمرد ، فدعا عليه رسول الله ـ ﷺ ـ أن يموت بعيداً طريداً فنالته هذه الدعوة ، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ، ورأى أمر رسول الله ـ ﷺ ـ .

ما يستفاد من قصة مسجد الضرار :

أولا : الكفر ملة واحدة : لقد ظهر هذا جلياً فى موقف أبى عامر الراهب من الإسلام ومن بنى الإسلام ومن المسلمين إذ غضب غضباً شديداً وتألم لهزيمة المشركين فى بدر على أيدى المسلمين ، فأعلن عداءه للرسول ـ ﷺ ـ وتوجه إلى أعتى قلاع الشرك ـ مكة آنذاك ـ يؤلب أهلها على قتال المسلمين ، بل خرج مقاتلاً معهم فى غزوة أحد ، وحاول جاهداً أن يوجد شرخاً فى وحدة المسلمين من مهاجرين وأنصار ولكنهم لم يستجيبوا له ، وسبوه وشتموه قائلين : لا مرحباً بك أيها الفاسق .

لقد اجتمعت الصليبية مع الشرك لمحاربة الإسلام وعداء أهله ، وصدق الله العظيم

---

(1) انظر تفسير ابن كثير 3/ 451 ـ 453 وأسباب النزول 260 ـ 262 والسيرة النبوية لابن هشام 2/ 529 ـ 530 وزاد المعاد 3/ 547 ـ 550 والسيرة النبوية لابن كثير 4/ 38 وما بعدها وسبل الهدى والرشاد 5/ 674 ـ 677 والدرر ص 181 .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (1)

ثانياً : التعصب والعناد يحرمان صاحبهما من التفكير السليم ومن ثم الاهتداء إلى الحق والإيمان به ، فهذا هو أبو عامر الراهب قد قرأ علم أهل الكتاب وعلم ببشارة قرب ظهور رسول الله ـ ﷺ ـ ، والتقى به ، وسمع منه القرآن الكريم فقامت الحجج الدامغة والبراهين الساطعة على صدق رسالة الرسول ـ ﷺ ـ .

هذه الأدلة تلزم من قامت عنده الإيمان بها والالتزام بها والدعوة إليها إن كان صاحبها خالياً من الهوى ، وبعيداً عن التعصب والعناد والمكابرة ولكن أبا عامر الفاسق كان على النقيض من ذلك قد استبد به الهوى فأعماه وأصمه عن إبصار الحق واتباعه .

ثالثاً : فكرة بناء المسجد فى الظاهر خيره ، وفى حقيقتها غير ذلك : لم يرد أبو عامر ومن معه من المنافقين أن يبنوا المسجد لنشر الخير فى الناس بل كانوا يريدون الشر كل الشر لكل من آمن بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ـ ﷺ ـ نبياً ورسولاً .

لقد أسسوا هذا البناء ليكون وكراً للمؤامرات الخبيثة على الإسلام وأهله يضعون الخطط الكيدية ، ويرسمون وسائل تنفيذها فى مكان آمن ، لا يفطن إلى هدفهم أحد ، ولا يرتاب فيهم مرتاب .

وأسسوا هذا البناء لإشاعة الكفر والدعاية له وتقوية أهله بالتعاون معهم لهدم بنيان الإسلام ، وتقويض أركان الدولة الإسلامية .

وأسسوا هذا البناء وأقاموه لتمزيق وحدة المسلمين حتى يسهل القضاء عليهم بإشاعة نار الفرقة بينهم ، بالحملات الكاذبة ، والإشاعات المغرضة .

وهذا البناء أرادوا له أن يكون مركزاً لرصد حركات المسلمين ، وجمع المعلومات عنهم ، ومركز تجمع للمنافقين .

ولقد فضح الله المنافقين وأبا عامر الراهب ، فكشف حقيقة أغراضهم الخبيثة من بناء هذا البناء ليتخذوه مسجداً فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ

(1) الأنفال : 73 .

﴿الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ .

رابعاً : حاول المنافقون أن يضفوا الشرعية على هذا البناء ، وأنه مسجد بنوه لأسباب مقنعة فى الظاهر ، ولكن لا حقيقة لها فى نفوس أصحابها .

جاءوا يطلبون من الرسول - ﷺ - الصلاة فى هذا البناء ليكون مسجداً قد باركه رسول الله - ﷺ - بالصلاة فيه ، فإذا حدث هذا فقد استقر قرارهم فى تحقيق أهدافهم .

وهذا أسلوب ماكر خبيث قد ينطلى على كثير من الناس ، وخاصة أن النوايا لا يعلمها إلا الله ولا تظهر آثارها فى الواقع إلا بعد مدة من الزمن .

خامساً : رعاية الله وحمايته لرسوله : إن المرء ليلاحظ مدى العناية الإلهية بهذا الرسول الكريم - ﷺ - ، يطلعه على أسرار هؤلاء المنافقين وما أرادوه من بناء هذا البناء ، ليدرك حقيقة البناء والأهداف التى سيؤديها إن هو قام كما أرادوه ، ولولا إدراك الله رسوله - ﷺ - برعايته وعنايته لما أدرك رسول الله - ﷺ - حقيقة نواياهم ، ولصلى فى البناء فأضفى عليه الشرعية وأقبل الناس يصلون فيه لأن رسول الله - ﷺ - صلى فيه ، فيحتك بهم المنافقون فيأخذون بعض ما عندهم من أسرار وقد يؤثرون على ضعاف الإيمان فى السماع لمفترياتهم ونشر إشاعاتهم .

سادساً : العلاج الحاسم : لقد كان رسول الله - ﷺ - حازماً فى معالجة هذه المشكلة ، وكان الحل حاسماً سريعاً ، لأنه لا يصبر على وسائل الفتنة والفساد فى الصف المسلم والمجتمع الإسلامى ، ولهذا نجده - ﷺ - بمجرد ما علم بحقيقة أهداف المسجد أرسل على الفور من يحرق هذا البناء ويهدمه على رؤوس من فيه من المنافقين .

سابعاً : قد يتظاهر الإنسان بالصلاح وهو فى حقيقته ليس بصالح وقد يتظاهر بالإحسان وهو ليس بمحسن ، والله - عز وجل - يعلم حقيقة الأنفس وما تخفى الصدور ، ويجزى كل نفس بما تسعى ، فهو سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان صواباً خالصاً قال - ﷺ - : *«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»* (1)

(1) رواه البخارى ومسلم وهو الحديث الأول من الأربعين النووية .

ثامناً : ينظر إلى الشيء بمآله ونتيجته : فإذا كان بناء معين اتخذ مسجداً فى الظاهر ، وفى الحقيقة سخر ليكون مركزاً ووكراً للمؤامرات ضد المسلمين ، أو مصيدة لالتقاط من يأتى إليه للتحقيق معه ومحاسبته ، وتسليط على الدعاة ومطاردتهم ، فهذا هو مسجد الضرار .

تاسعاً : مساجد الضرار فى بلاد المسلمين كثيرة :

إن مسجد الضرار ليس حادثة حدثت فى المجتمع الإسلامى الأول ، وانقضت بل هى فكرة باقية ، يخطط لها باختيار الأهداف العميقة ، وتختار الوسائل الدقيقة لتنفيذها ، وخططها تصب فى التآمر على الإسلام وأهله بالتشويه وقلب الحقائق ، والتشكيك ، وزرع بذور الفتن لإبعاد الناس عن دينهم وإشغالهم بما يضرهم ويدمر مصيرهم الأخروى .

وعلى هذا فمساجد الضرار فى بلاد المسلمين كثيرة ، وكثيرة جداً ، بل لا تكاد تحصر .

فالمستشفيات التبشيرية التى تبنى فى بلاد المسلمين ، وتنفق عليها الأموال الطائلة ، تبنى فى الظاهر لعلاج المرضى من الناس ومساعدتهم ، ولكنها فى حقيقتها بنيت للتشكيك فى عقيدة المسلمين ودينهم ، وإغوائهم وإضلالهم وإبعادهم عن دينهم ، فهى كما ترى مساجد ضرار ينبغى هدمها على رؤوس أصحابها وطردهم من بلاد المسلمين ، كما فعل رسول الله ـ ﷺ ـ بمسجد الضرار فى عهده .

والمدارس التبشيرية التى تملأ السهل والوعر فى بلاد المسلمين فى ظاهرها أنشئت لتعليم أبناء المسلمين وبنات المسلمين ، وفى حقيقتها لنشر عقيدة الشرك التى تقوم على التثليث ، وتشويه التاريخ الإسلامى ، والطعن فى الإسلام كعقيدة وشريعة ونظام حياة ، فهذه المدارس التبشيرية مساجد ضرار ينبغى إلغاؤها وطرد الذين يقومون عليها من بلاد المسلمين .

والجامعات التبشيرية فى ظاهرها لتعليم الشباب والشابات ورفع الكفاءات العلمية والمستوى العلمى للدارسين ، وفى حقيقتها معول هدم للقيم الإيمانية والمعانى الإسلامية ، فهى مساجد ضرار ينبغى الاستيلاء عليها وتوجيهها الوجهة الإسلامية .

وأجد من المفيد أن أنوه إلى خطر الجامعات الأمريكية فى لبنان ومصر وما تقوم به من دور تخريبى فى بلاد المسلمين .

وخير دليل على هذا تجربة المجاهد البطل الشهيد عبد القادر الحسينى ، إذ توجه إلى الجامعة الأمريكية فى بيروت فرأى حقيقة هذه الجامعة أنها جامعة تبشيرية إفسادية ، تقاوم روح الجهاد فى الشباب ، وتشوه الإسلام والتاريخ الإسلامى فأخذ يكشف حقيقتها للطلاب وللناس ، فاتخذت إدارة الجامعة قراراً بفصله وهو فى السنة الأولى ، فاتجه بناء على رغبة أبيه إلى الجامعة الأمريكية بالقاهرة ليكمل فيها دراسته ، فوجدها صنو الجامعة الأمريكية ببيروت ، تحملان نفس الرسالة وتسعيان لنفس الأهداف .

ومن صور مساجد الضرار فى بلاد المسلمين عمل بعض الجامعات الوطنية فى بلادنا ، ففى ظاهرها لتعليم الشباب ، وفى باطنها وتخطيطها إفساد الشباب والشابات ، بإشاعة الاختلاط المحرم ، وتشجيع العرى ، وتهيئة جو لممارسة الفاحشة وتشجيعها والدفاع عن ذلك باسم الحرية الشخصية .

وعمل المرأة فى بعض المؤسسات التجارية فى ظاهره الاستفادة من طاقتها ، وفى باطنه وحقيقته المتاجرة بأنوثتها فتوظف بائعة فى المتاجر لإغراء العملاء بالشراء ، وتوضع فى العلاقات العامة فى المؤسسات لتغرى الزبائن بالإقبال على هذه المؤسسات ، وكذلك فى الفنادق ودور السينما وغير ذلك لتروج لهذه المفاسد ، إن المرأة فى هذه المؤسسات تستخدم بخسة كمروج للسلعة ، نعم إنها مساجد ضرار فى رسالتها فى هذا المضمار ، وبهذا التوجه الذميم .

والنوادى التى تدعى فى ظاهرها أنها رياضية اجتماعية ثقافية ، وفى حقيقتها وباطنها ومآلها هدم للأخلاق وتقويض لمستقبل الأجيال من الشباب ، إن كثيراً منها وكر للفساد والإفساد ، فهى مساجد الضرار فى هذه المجتمعات .

هذا الانشغال العجيب بالرياضة ، وخاصة كرة القدم ، وتسخير الأموال الطائلة ووسائل الإعلام المتعددة ، وإشغال الجماهير بها ، وتخديرها عن المطالبة بحقوقها السياسية ، وحرياتها الشخصية ، لا تقل فى خطرها عن مساجد الضرار ، إذا علمنا أنها من مخططات اليهود لإلهاء الشباب بها عن أن يعيشوا قضاياهم ، وفى مقدمة هذه

القضايا قتال اليهود وتحرير فلسطين و غير فلسطين من بلاد المسلمين من احتلال أجنبى .

والمؤتمرات التى يعقدها من ينتسبون إلى الإسلام مع غير المسلمين من رجال الدين والمستشرقين والمبشرين حول الصحوة الإسلامية وتنفق عليها دول أو جهات أجنبية غير إسلامية ما الهدف منها ؟

إنها ترفع شعارات فى الظاهر تدل على المقصد العلمى والتفتح الذهنى وهى فى حقيقتها تبحث عن نقاط الضعف فى الصحوة الإسلامية ومقاتلها ، كى تتخذ الأساليب الخبيثة لإجهاضها وقتلها قبل أن تؤتى أكلها .

ومما يؤسف له أن السذاجة والبساطة قد بلغت ببعض الناس ممن ينسبون إلى العلم أن هذه المؤتمرات مفيدة للصحوة الإسلامية وتخدمها ، قد انطلت عليهم الحيلة ، وانخدعوا بالخدعة ، فروجوا لمثل هذه المؤتمرات .

قصة الثلاثة الذين خلفوا
وما يستفاد منها .

قصة الثلاثة الذين خلفوا ومايستفاد منها

قصة الثلاثة الذين خلفوا ومايستفاد منها

لقد وردت قصة الثلاثة الذين خلفوا على لسان كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ فى كتب السيرة والحديث والتفسير بروايات متقاربة فى ألفاظها ، ولقيت عناية فائقة فى الشرح والدرس . ولقد ثبت لدى أن كتب الحديث كانت أكثر تفصيلاً لهذه القصة ، وأن كتاب صحيح البخاري أكثر كتب الحديث دقة وتفصيلاً لهذه القصة .

فقد جاء فى صحيح الإمام البخارى ـ رحمه الله ـ بشأن هذه القصة ما يلى :

هل معى أحد ؟ قالوا : نعم ، رُجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثلُ ما قيل لك ، فقلت من هما ؟ قالوا : مُرارةُ بن الرَّبيع العمرى وهلال بن أمية الواقفى ، فذكروا لى رجُلين قد شَهدا بدراً فيهما أسوة ، فمضيت حين ذكروهما لى ، ونهى رسول الله ـ ﷺ ـ المسلمين عن كلامنا أيُّها الثلاثة من بين من تخلف عنه ؛ فاجْتنبنا الناسُ ، وتغيروا لنا ، حتى تنكرت فى نفسى الأرضُ فما هى التى أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأمّا صاحباى فاستكانا وقعدا فى بُيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم ، فكنت أخرجُ فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف فى الأسواق ، ولا يُكلمنى أحد ، وآتي رسول الله ـ ﷺ ـ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول فى نفسى : هل حرَّك شفتيه بردِّ السلام علىَّ أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه ، فأسارقهُ النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى أقبل إلىَّ وإذا التفت نحوه أعرض عنى ، حتى إذا طال علىَّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة ، وهو ابنُ عمى وأحبُّ الناس إلىّ ، فسلمت عليه ، فوالله ما ردَّ علىَّ السلام ، فقلت : يا أبا قتادة ، أنشدُك بالله ، هل تعلمنى أحبُّ الله ورسوله ؟ فسكت ، فعُدتُ له فنشدته فسكت ، فعُدت له فنَشدته فقال : اللهُ ورسوله أعلم ، ففاضت عيناى ، وتوليت حتى تسورتُ الجدار . قال : فبينما أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطى من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدلُّ على كعب بن مالك ؟ فطفق الناسُ يشيرون له : حتى إذا جاءنى دفع إلىَّ كتاباً من ملك غسان فإذا فيه : أما بعد فإنه قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نُواسك ، فقلت لما قرأتُها : وهذا أيضا من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرته بها ، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين ، إذا رسولُ رسول الله ـ ﷺ ـ يأتينى فقال : إن رسول الله ـ ﷺ ـ يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت أطلِّقُها أم ماذا أفعل ؟

قال : لا ، بل اعتزلها ولا تقربها ،وأرسل إلى صاحبىَّ مثل ذلك . فقلت لامرأتى : الحقى بأهلك فتكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ، قال كعب : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ـ ﷺ ـ فقالت : يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ، ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لا يقربك . قالت : إنه والله ما به حركة إلى شىء ، والله ما زال يبكى منذُ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، فقال لى بعض أهلى لو استأذنت رسول الله ـ ﷺ ـ فى امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ، فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله ـ ﷺ ـ ، وما يُدرينى ما يقول رسول الله ـ ﷺ ـ إذا استأذنته فيها ، وأنا رجلٌ شابٌ فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ـ ﷺ ـ عن كلامنا ، فلما صليت صلاة الفجر صُبح خمسين ليلة ، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالسٌ على الحال التى أذكر الله : قد ضاقت علىَّ نفسى ، وضاقت على الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر ، قال فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرج ، وآذن رسول الله ـ ﷺ ـ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يُبشروننا ، وذهب قبل صاحبى مُبشرون ، وركض إلىَّ رجلٌ فرساً ، وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل ، وكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبىّ ، فكسوته إياهما ببشراه ، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فيتلقانى الناس فوجاً فوجاً يهنئونى بالتوبة يقولون : لتهنك توبة الله عليك ، قال كعب : حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ـ ﷺ ـ جالس حوله الناس ، فقام إلىَّ طلحة بن عبيد الله يُهرول حتى صافحنى وهنّانى، والله ما قام إلىَّ رجل من المهاجرين غيره ، ولا أنساها لطلحة ، قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ـ ﷺ ـ قال رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يبرق وجهه من السرور : أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك ، قال : قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : لا ، بل من عند الله . وكان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا سُر استنار وجهه حتى كأنهُ قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ، إن من توبتى أن انخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله ، قال رسول الله ـ ﷺ ـ أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك ، قلت : فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر ، فقلت : يا رسول الله ، إن الله إنما نجانى بالصدق ، وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت ، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث ـ منذ ذكرت ذلك

لرسول الله ـ ﷺ ـ أحسن مما أبلانى ، ما تعمدتُ منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ـ ﷺ ـ إلى يومى هذا كذباً ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقيت ، وأنزل الله على رسوله ـ ﷺ ـ: ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾[1] إلى قوله : ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ فوالله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط ـ بعد أن هدانى للإسلام ـ أعظم فى نفسى من صدقى لرسول الله ـ ﷺ ـ أن لا أكون كذبتُه فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ ﴾[2] إلى قوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ قال كعب : وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ـ ﷺ ـ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ـ ﷺ ـ أمرنا حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله : ﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾[3] وليس الذى ذكر الله مما خُلفنا عن الغزو ، إنما هو تخليفهُ إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه ، فقبل منه »

وزاد الإمام البخارى ـ رحمه الله ـ فى رواية أخرى قول كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ فلبثت كذلك حتى طال على الأمر ، وما من شيء أهم إليَّ من أن أموت فلا يصلى على النبى ـ ﷺ ـ ، أو يموت رسول الله ـ ﷺ ـ فأكون من الناس بتلك المنزلة ، فلا يكلمنى أحد منهم ولا يصل على ، فأنزل الله توبتنا على نبيه ـ ﷺ ـ حين بقى الثلث الآخر من الليل ، ورسول الله ـ ﷺ ـ عند أم سلمة ، وكانت أم سلمة محسنة فى شأنى ، معنية فى أمرى ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : يا أم سلمة تيب على كعب ، قالت : أفلا أرسل إليه فأبشره ؟ قال : إذاً يحطمكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليلة ، حتى إذا صلى رسول الله ـ ﷺ ـ صلاة الفجر آذن بتوبة الله علينا ، وكان إذا استبشر استنار وجهه وحتى كأنه قطعة من القمر[4] .

ويذكر أن سبب تخلف مرارة بن الربيع ـ رضى الله عنه ـ عن اللحاق برسول الله ـ ﷺ ـ أنه كان له بستان ، قد بدا صلاح ثماره ونضجها ، فأعجب به ومال إلى البقاء فيه

(1) التوبة : 117 .
(2) التوبة : 95 .
(3) التوبة : 118
(4) صحيح البخاري متن فتح البارى 9/ 413 .

فقال فى نفسه : قد غزوت قبلها ، فلو أقمت عامى هذا [1] .

ويذكر أيضاً أن سبب تخلف هلال بن أمية ـ رضى الله عنه ـ ما حكاه عن نفسه قال : أنه كان له أهل تفرقوا ثم اجتمعوا ، فحدث نفسه بأنه لو أقام هذا العام عندهم متخلفاً عن مرافقة رسول الله ـ ﷺ ـ فى مسيرة جهاده ، ولكنه سرعان ما تيقظ قلبه فأدرك أنه هفا بذنب ، فآب إلى التوبة ، وانخلع عما كان فيه راغباً من الإقامة عند أهله هذا العام ، وأناب إلى الله ، وقال : اللهم لك على أن لا أرجع إلى أهل أو مال ، فغسل بتوبته حوبة هفوته [2] .

(1) انظر محمد رسول الله ـ تأليف محمد صادق عرجون 4/ 447 .

(2) المرجع السابق 4/ 448 .

ما يستفاد من قصة الثلاثة الذين خلفوا

أولاً : جهاد كعب وسابقته : من قراءتنا للحديث السابق يظهر لنا حرص كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ على الجهاد ، ومواظبته على حضور معظم الغزوات مع رسول الله ـ ﷺ ـ .

أضف إلى ذلك أنه كان من أهل بيعة العقبة الذين بايعوا رسول الله ـ ﷺ ـ على نصرته وحمايته مما يحمون به أنفسهم وأبناءهم ونساءهم وأموالهم .

ولقد بايع كعب بن مالك الأنصارى والذين معه رسول الله ـ ﷺ ـ وهم يعلمون علم اليقين ما يترتب على هذه البيعة من قتل خيارهم وأن تعضهم السيوف وأن ترميهم العرب عن قوس واحدة ، ولقد حدث ما كانوا يتوقعونه من لأواء الطريق والخسائر الفادحة فى الأنفس والأموال والثمرات ، فثبتوا على طريق الجهاد دون أن تلين لهم قناة أو تهون لهم عزيمة ، وفى مقدمتهم كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ .

ثانياً : أهمية بيعة العقبة : وتبدو هذه الأهمية من كلام كعب بن مالك : ولقد شهدت مع رسول الله ـ ﷺ ـ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها .

ألا ترى أن كعب بن مالك يقدم هذه البيعة على وقعة بدر ، ذلك لأن غزوة بدر وسائر الغزوات كانت من نتائج هذه البيعة ، إذ بعدها قام الكيان السياسى للمسلمين فى المدينة وترسخت أركان الدولة ، وصار لها جيش يصارع المشركين وأعداء هذا الدين .

ثالثاً : صدق كعب : لقد خلق الإنسان أكثر شىء جدلاً ، من طبعه أن يدافع عن نفسه ويجادل عنها ويبرر لها إلا من رحم الله ـ تبارك وتعالى ـ ، ومن هؤلاء كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ فقد كان قوى الحجة ، فصيح اللسان ، يملك ناصية البيان ، لقد كان بوسعه أن يعتذر لرسول الله ـ ﷺ ـ بعذر يرضى به رسول الله ـ ﷺ ـ ولكنه رفض هذا ، وأعلن بوضوح لا لبس فيه ولا غموض أنه تخلف عن الغزوة ولا عذر له ولا مبرر

لغيابه ، ولا مسوغ لتصرفه ، بل أدان نفسه بقوله : كان من خبرى أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه فى تلك الغزاة ، والله ما اجتمعت عندى قبله راحلتان قط حتى جمعتها فى تلك الغزوة ، و لم يكن رسول الله - ﷺ - يريد غزوة إلا ورى بغيرها .

ويؤخذ من كلام كعب المتقدم أيضاً جواز إخبار الرجل عن تفريطه وتقصيره فى طاعة الله ورسوله ، وعن سبب ذلك ، وما آل إليه أمره ، وفى ذلك من التحذير والنصيحة ، وبيان طرق الخير والشر ، وما يترتب عليها ما هو من أهم الأمور [1] .

رابعاً : مشروعية التورية : فقد أفاد حديث كعب أن رسول الله - ﷺ - كان يورى فى معظم غزواته ، والتورية إرادة المتكلم معنى يحتمله اللفظ ويفهم السامع معنى آخر هو المعنى المتبادر لذهن السامع والتورية فى الكلام مشروعة مع المسلمين وغيرهم .

قال ابن القيم : إن الإمام إذا رأى المصلحة فى أن يستر عن رعيته بعض ما يهم به ، ويقصده من العدو ، ويورى به عن غيره ، استحب له ذلك ، أو يتعين بحسب المصلحة إن الستر والكتمان إذا تضمن مفسدة لم يجز [2] .

خامساً : لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد : لقد أبرز لنا تردد كعب وتسويفه فى إعداد نفسه للسير مع الرسول - ﷺ - خطر التأجيل والتسويف إذ أدى إلى تخلفه عن اللحاق برسول الله - ﷺ - ، وحرمانه من أجر الغزو معه ، بل عرَّضه إلى غضب الله - تبارك وتعالى - ، وغضب رسوله - ﷺ - .

تأمل قول كعب يوضح هذا الأمر : وتجهز رسول الله - ﷺ - والمسلمون معه ، فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم ، فأرجع ولم أقض شيئاً ، فأقول فى نفسى : أنا قادر عليه ، فلم يزل يتمادى بى حتى اشتد بالناس الجد ، فأصبح رسول الله - ﷺ - والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئاً ، فقلت : أتجهز بعده بيوم أو بيومين ثم ألحقهم ، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز ، فرجعت ولم أقض شيئاً ، ثم غدوت ، ثم رجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، وهممت أن ارتحل فأدركهم ، وليتنى فعلت ، فلم يقدر لى ذلك .

(1) زاد المعاد 3/ 574 .
(2) زاد المعاد 3/ 573 .

قال ابن القيم : (إن الرجل إذا حضرت له فرصة القربة والطاعة ، فالحزم كل الحزم في انتهازها ، والمبادرة إليها ، والعجز في تأخيرها ، والتسويف بها ، ولا سيما إذا لم يثق بقدرته وتمكنه من أسباب تحصيلها ، فإن العزائم والهمم سريعة الانتقاض قلما ثبتت ، والله ـ سبحانه ـ يعاقب من فتح له باباً من الخير فلم ينتهزه ، بأن يحول بين قلبه وإرادته ، فلا يمكنه بعد من إرادته عقوبة له ، فمن لم يستجب لله ولرسوله إذا دعاه ، حال بينه وبين قلبه وإرادته ، فلا يمكنه الاستجابة بعد ذلك ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ (1) .

سادساً : صاحب النفس الأبية لا يطيق حياة القعود عن الجهاد :

لقد آلم كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ بعد أن سار الجيش الإسلامي إلى تبوك وتأخر في المدينة أن يرى نفسه مع المتخلفين من المنافقين وأصحاب الأعذار من النساء والولدان الذين لا يستطيعون القتال .

إنها حالة مؤلمة حقاً أن ينظر الإنسان الأبي إلى من حوله فيجد الرجال قد خرجوا للقتال ، وبقي هو مع المنافقين والنساء والأطفال يأكل ويشرب ويحيا هذه الحياة غير السوية ، التي يأباها الرجال الأشاوس أصحاب النفوس العالية والعزائم القوية

تأمل قول كعب ـ رضي الله عنه ـ : فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ـ ﷺ ـ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء .

سابعاً : منزلة كعب عند النبي ـ ﷺ ـ :

من تأملنا لحديث كعب نجد أن الرسول ـ ﷺ ـ لم يذكر رجلاً من المسلمين ولم يسأل عنه سوى كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على اهتمام النبي ـ ﷺ ـ بكعب بن مالك الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ ، ذلك لأن الرسول ـ ﷺ ـ إذا ذكر واحد في مجلسه قد تأخر عن السير مع الجيش أهمله قائلاً : دعوه إن يك به خيراً يلحقه الله بكم ، وفي هذا الوقت يسأل عن كعب وأخباره .

(1) الأنفال : 24 .

ثامناً : إجابة السؤال عن حال الشخص ليست غيبة : أخذنا هذا من إجابة الرجل من بنى سلمة على سؤال رسول الله ـ ﷺ ـ ما فعل كعب فقال : حبسه برداه، ونظره فى عطفه ، إنه مما لاشك فيه أن هذا الكلام فيه نيل وإساءة إلى كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ وفى حضرة رسول الله ـ ﷺ ـ ، ولم ينكر عليه ـ ﷺ ـ ذلك .

ومما يجدر ذكره أن معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ أنكر على الرجل ما قال عن كعب ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ .

تاسعاً : حسن الظن فى المسلم والدفاع عنه فى غيبته أمر مشروع : ألا ترى أن معاذ ابن جبل ـ رضى الله عنه ـ قد أنكر على الرجل من بنى سلمة حينما نال من كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ فقال : بئس ما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً .

عاشراً : الاستعانة برأى الأقرباء واستشارتهم فى الأمور الخاصة : قال كعب : فلما بلغنى أن رسول الله ـ ﷺ ـ توجه قافلاً حضرنى همى ، وطفقت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطه غداً ؟ واستعنت على ذلك بكل ذى رأى من أهلى .

أقول : إن الإنسان قد تمر به حالات من الاضطراب النفسى تجعله فى حيرة من أمره كيف يواجه هذه الحالات ويحل تلك المشكلات ، ولهذا يلجأ إلى من يثق بدينه وحبه لعله يشير عليه بشىء ينقذه مما يعانى ، وأقرب الناس إليه أهله وأقرباؤه المسلمون المخلصون .

حادى عشر : الصدق منجاة والكذب مهلكة : لقد كان كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ صادقاً مع رسول الله ـ ﷺ ـ لم يخف عليه شيئاً ، بل صرح بإدانة نفسه ، فكان لهذا الصدق ثمرته فى قبول توبة كعب التى أفرحت جميع المسلمين وفى مقدمتهم رسول الله ـ ﷺ ـ كما أثلجت صدر كعب بن مالك وشرحته بعد أن ضاقت عليه الأرض بما رحبت .

أما المنافقون الذين اختلقوا الأعذار الكاذبة وافتروا الحجج الواهية فقد هلكوا فى الدنيا والآخرة بسبب هذه الافتراءات والأكاذيب ، قال تعالى : ﴿ **اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ** ﴾ (1)

---

(1) التوبة : 80

قال ابن القيم : (ومنها توفيق الله لكعب وصاحبيه فيما جاءوا به من الصدق ، ولم يخذلهم حتى كذبوا واعتذروا بغير الحق ، فصلحت عاجلتهم ، وفسدت عاقبتهم كل الفساد والصادقون تعبوا فى العاجلة بعض التعب ، فأعقبهم صلاح العاقبة ، والفلاح كل الفلاح ، وعلى هذا قامت الدنيا والآخرة ، فمرارات المبادئ حلاوات فى العواقب ، وحلاوات المبادئ مرارات فى العواقب ، وقول النبى ـ ﷺ ـ لكعب : أما هذا فقد صدق ، دليل ظاهر فى التمسك بمفهوم اللقب عند القيام قرينة تقتضى تخصيص المذكور بالحكم . . . وقوله فى الحديث : أما هذا فقد صدق ، وهذا مما لا يشك السامع أن المتكلم قصد تخصيصه فى الكعب)[1] .

ثانى عشر : البدرى ليس معصوماً ولا يعفى من العقوبة : لقد كان من المتخلفين هلال بن أمية ومرارة بن الربيع وهما بدريان ، ومع هذا فقد عاقبهما رسول الله ـ ﷺ ـ بأن أمر المسلمين بمقاطعتهما مقاطعة صارمة ، وامتد الأمر إلى منعهم من معاشرة أزواجهم .

ثالث عشر : جواز الهجران أكثر من ثلاثة أيام عقوبة : لقد أمر رسول الله ـ ﷺ ـ المسلمين بمقاطعة الثلاثة وهجرانهم مدة خمسين يوماً .

رابع عشر : التزام المسلمين بأوامر القيادة المسلمة : وما إن أصدر النبى ـ ﷺ ـ أمره بعدم الكلام مع هؤلاء الذين تخلفوا عن غزوة تبوك إلا استجاب المجتمع المسلم كله لأمره حتى أقرب الناس إليهم لم يتكلموا معهم ، قال كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ : نهى رسول الله ـ ﷺ ـ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس ، وتغيروا لنا ، حتى تنكرت فى نفسى الأرض فما هى التى أعرف ، فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف فى الأسواق ، ولا يكلمنى أحد . . .

حتى إذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة ، وهو ابن عمى وأحب الناس إلى ، فسلمت عليه ، فوالله ما رد على السلام ، فقلت : يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟ فسكت ، فعدت له فنشدته فسكت ،

(1) زاد المعاد 3/ 576ـ 577 .

فعدت له فنشدته فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناى ، وتوليت حتى تسورت الجدار .

ولما جاء سفير ملك غسان إلى كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ برسالة يحملها إليه ، ويسأل عنه الناس وهم يرونه لم يتكلموا بكلمة بل أشاروا إلى كعب بن مالك ليدلوا سفير ملك غسان عليه ليعطيه الرسالة .

وبلغ الالتزام ذروته بأوامر القيادة المسلمة حين أمر رسول الله ـ ﷺ ـ الثلاثة الذين خلفوا باعتزال زوجاتهم حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً فالتزم الجميع بذلك ، واستأذنت زوج هلال بن أمية وكان شيخاً طاعناً فى السن لا يجد من يخدمه فطلبت من الرسول أن يأذن لها أن تخدمه فأذن لها النبى ـ ﷺ ـ بذلك شريطة ألا يقربها فالتزمت ـ رضى الله عنها ـ .

خامس عشر : يلاحظ من قول كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أنه كان يلقى السلام على رسول الله ـ ﷺ ـ ولا يسمع رداً على تحيته بل لا يكاد يرى حركة شفتى رسول الله ـ ﷺ ـ تأمل قوله ـ رضى الله عنه ـ : وآتى رسول الله ـ ﷺ ـ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام علىّ أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه أسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى أقبل علىّ ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى .

ويؤخذ من هذا أنه يجوز عدم رد السلام كعقوبة للتأديب والتهذيب والزجر وهذا تقييد للمطلق فى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا حُيِّيتُم بتحيَّةٍ فحَيُّوا بأحْسَنَ منْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ .

سادس عشر : علاج الفتنة : لقد تعرض كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ إلى فتنة واستدراج من ملك غسان فى وقت مناسب للفتنة وهو مقاطعة رسول الله ـ ﷺ ـ والمؤمنين معه لكعب ـ رضى الله عنه ـ إذ جاءه كتاب ملك غسان وهو منبوذ من المجتمع الإسلامى ، لا يكلمه أحد .

أضف إلى ذلك فإن صيغة الكتاب تحرض على الفتنة وتغرى المخاطب بانتهاجها :

قال كعب : فبينا أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطى من أنباط أهل الشام ممن قدم

بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدلنى على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له : حتى إذا جاءنى دفع إلىَّ كتاباً من ملك غسان فإذا فيه : أما بعد : قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك .

فماذا كان موقف كعب ـ رضى الله عنه ـ من ذلك ؟

لقد أدرك كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ بحسه الإيمانى وبصيرته أن عرض ملك غسان عبارة عن فتنة وابتلاء لإيمانه وولائه وحبه لدينه ، فنجح فى الامتحان بمعرفة الهدف من ذلك ، كما نجح فى الامتحان بحسن الرد على هذا الأسلوب اللئيم وذلك بوأد الفتنة وأسبابها بإلقاء الرسالة فى النار وحرقها ، وبذلك أحرقت الفتنة بحرق الرسالة .

أقول : إن هذا التصرف من كعب ـ رضى الله عنه ـ يدل على صفاء إيمانه ونقاء سريرته وحبه لدينه ولرسوله ـ ﷺ ـ والمؤمنين ، إذ لم يتأثر لهجرانهم تأثراً يدفعه للتصرف تصرفاً يتنافى مع أخوة الإيمان ومودة الإسلام .

وأقول :

إن مما يجدر ذكره هنا أن العدو يراقب ويرصد ويستغل الفرصة السانحة له حتى يمزق الجبهة ويشعل نار الفتنة بين المسلمين ، ليوهن البنيان ويقوضه من الأركان ، ألا ترى كيف استغل ملك غسان فرصة هجران المسلمين لكعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ وعقوبة رسول الله ـ ﷺ ـ له بأن يرسل سفيره لكعب برسالة خاصة منه إليه يغريه فيها بترك الإسلام وهجر المجتمع الإسلامى إلى مجتمع الشرك ، تأمل قول ملك غسان له : أما بعد : قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك .

وأقول أيضاً : إن على الدعاة أن يفطنوا إلى تصرفات أعدائهم وأساليبهم فى إحداث الفتن فى المجتمع المسلم وإفساد ذات البين بين الذين آمنوا .

وخير وسيلة لدرء هذه الفتن وتفويتها تكون بعمق الوعى والإدراك والحذر من أساليب الأعداء ، وعدم الاستجابة لها والتأثر بها ، والتحصن بالإيمان القوى الذى يلفظ الخبث كما يلفظ الكير خبث الحديد .

سابع عشر : العقوبة الناجعة هى التى تؤدى غرضها : لقد كانت العقوبة التى أوقعها رسول الله ـ ﷺ ـ بحق كعب بن مالك وأخويه ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ قد حققت هدفها وهو زجر المعاقب ومنعه من العودة إلى مثل ما وقع فيه ، فلقد تأثروا جميعاً تأثراً شديداً وغمرهم الحزن والألم لما وقع حتى تنكرت لهم الأرض فما هى بالتى يعرفون ، ولقد وصف الله ـ تبارك وتعالى ـ حالهم وصفاً بليغاً فقال سبحانه : ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ﴾ (1)

ولو تفحصنا نوع هذه العقوبة لم نجدها عقوبة حسية كالجلد أوالقطع أو الحرج وإنما كانت عقوبة تنصب على الضمير والوجدان أوقعها أفراد المجتمع كلهم بهجرانهم وعدم الحديث معهم ، ويقينى أن هذه العقوبة كانت أشد إيلاماً من الجلد والسجن والقطع ، للثلاثة ولسائر أفراد المجتمع إن تخلف بعضهم عن الجهاد أو أى أمر ربانى أو نبوى (2)

لقد كانت العقوبة عظة لكل فرد فى المجتمع كما كانت عظة ودرساً للثلاثة الذين خلفوا .

قال ابن القيم : وفى الحديث دليل على هجران من فعل ما يستوجب العتب ، ويكون هجرانه دواء له بحيث لا يضعف عن حصول الشفاء به ، ولا يزيد فى الكمية والكيفية عليه فيهلكه ، إذ المراد تأديبه لا إتلافه ، وقوله : حتى تنكرت لى الأرض فما هى بالتى أعرف ، هذا التنكر يجده الخائف والحزين والمهموم فى الأرض ، وفى الشجر والنبات حتى يجده فيمن لا يعلم حاله من الناس ، ويجده أيضاً المذنب العاصى بحسب جرمه ، حتى فى خلق زوجته وولده ، وخادمه ودابته ، ويجده فى نفسه أيضاً ، فتتنكر له نفسه حتى ما كأنه هو ، ولا كأن أهله وأصحابه ، ولا من يشفق عليه بالذين يعرفهم ، وهذا سر من الله لا يخفى إلا على من هو ميت القلب ، وعلى حسب حياة القلب ،

---

(1) التوبة : 118

(2) وبعد كتابة هذه الأسطر قرأت فى كتاب القضايا الكبرى فى الإسلام ص 73 : إن المقاطعة لا يقصد فيها الألم الحسى ولكن يقصد فيها ناحية الألم الروحى ، ليكون عقاباً نفسياً يشعر النفس أقوى شعور بخطئها ، ويحدث فيها من الألم والندم ما لا يحدثه العقاب الذى يقع على الجسم ، وهذا تجديد فى العقاب يحاول المصلحون أن يصلوا إلى مثله فى عصرنا ، ليجعلوا عقاب المجرم وسيلة لتهذيبه ، فيكون المقصود الأول من العقاب التهذيب لا التعذيب .

يكون إدراك هذا التنكر والوحشة ، وما لجرح بميت إيلام .

ومن المعلوم أن هذا التنكر والوحشة كانا لأهل النفاق أعظم ، ولكن لموت قلوبهم لم يكونوا يشعرون به ، وهكذا القلب إذا استحكم مرضه ، واشتد ألمه بالذنوب ، الإجرام لم يجد هذه الوحشة والتنكر ، ولم يحس بها ، وهذه علامة الشقاوة ، وأنه قد أيس من عافية هذا المرض ، وأعيا الأطباء شفاؤه ، والخوف والهم مع الريبة ، والأمن والسرور مع البراءة من الذنب .

فما فى الأرض اشجع من برىء ❖ ولا فى الأرض أخوف من مريب

وهذا القدر قد ينتفع به المؤمن البصير إذا ابتلى به ثم راجع ، فإنه ينتفع به نفعاً عظيماً من وجوه عديدة تفوق الحصر ، ولو لم يكن منها إلا استثماره من ذلك اعلام النبوة ، وذوقه ، نفس ما أخبر الرسول فيصير تصديقه ضرورياً عنده ، ويصير ما ناله من الشر بمعاصيه ، ومن الخير بطاعاته من أدلة صدق النبوة الذوقية التى لا تتطرق إليها الاحتمالات ، وهذا كمن أخبرك أن فى هذا الطريق من المعاطب والمخاوف كيت وكيت على التفصيل فخالفته وسلكتها ، فرأيت عين ما أخبرك به فإنك تشهد صدقه فى نفس خلافك له ، وأما إذا سلكت طريق الأمن وحدها ، ولم تجد من تلك المخاوف شيئاً ، فإنه وإن شهد صدق المخبر بما ناله من الخير والظفر مفصلاً فإن علمه بذلك يكون مجملاً)[1]

وفى أثر هجران كعب بن مالك وصاحبيه درس :

حقاً لقد كان لهجران المسلمين ومقاطعتهم للثلاثة الذين خلفوا أثر قوى فى نفوسهم؛ ذلك لأن مظهر المقاطعة عدم التكلم ، والتكلم من أعظم سمات التفاعل والتكامل الاجتماعى ، فهو صلة الإنسان بغيره من أصدقائه وأهله ، وهو طريق تعبيرى انفعالى ، للتنفيس عما يجول فى النفس ، ثم إن الكلام وسيلة اجتماعية لتحقيق الرغبات ، وتزداد أهمية التكلم إذا منع الإنسان منه ، ويزداد ألم المنع إذا تكلم مع غيره دون مجيب لا سيما وقد استمر ذلك الامتناع عن الإجابة أياماً وليالى بلغت خمسين[2] .

(1) انظر زاد المعاد 3/ 578ـ 580 .

(2) انظر الرسول العربى المربى ص 314 .

ثامن عشر : بكاء كعب يدل على مدى الحرقة والألم الذى ألم به ويعانيه : هناك فرق شاسع جداً بين بكاء الرجل وبكاء المرأة ، فالمرأة تبكى لأتفه الأسباب وأقلها ، دمعها غزير ينهمر بسرعة ، أما الرجل فدمعه قليل فى الغالب ، يتجلد ويصبر على طعنات الرماح وضربات السيوف ، ولا يبكى إلا فى حالات نادرة جداً ، فلا يبكى إلا لآلام لا يعلم مداها إلا الله أو لموقف مؤثر جداً .

وكعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ كما يخبر البخارى قد بكى وانهمرت عيناه لآلام أشد من طعنات الرماح وضربات السيوف ، إنها آلام غضب الله وغضب رسوله ، وهجران رسول الله ـ ﷺ ـ والمسلمين له .

إن أشد ما يقلق المسلم ويزعجه ويؤلمه أن يشعر أن الله ـ عز وجل ـ قد سخط عليه وأن رسول الله ـ ﷺ ـ قد غضب عليه .

لقد كان كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ وأرضاه أخشى ما كان يخشاه أن يتوفى رسول الله ـ ﷺ ـ قبل قبول توبته فلا يصلى عليه ، وحينئذ لا يجرؤ أحد من صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ أن يصلى عليه .

تأمل قوله ـ رضى الله عنه ـ : وما من شىء أهم إلىَّ من أن أموت فلا يصلى علىَّ النبى ـ ﷺ ـ ، أو يموت رسول الله ـ ﷺ ـ فأكون من الناس بتلك المنزلة فلا يكلمنى أحد منهم ولا يصلى علىَّ .

إنه التفكير فى الآخرة لا التفكير فى الدنيا ، التفكير الذى يؤرق حقاً رضا الله ورضا رسوله ومن ثم الفوز بالجنة ، وأما غضب الله وغضب رسوله ومن ثم الحياة البئيسة النكدة الشقية فى نار جهنم ، قال تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (1) .

تاسع عشر : المسلمون كالجسد الواحد : لقد علَّم الإسلام أتباعه الحب والتعاطف والتراحم ، يفرح المسلم لفرح أخيه ويحزن لحزنه ، لقد غمرت المسلمين فرحة عامة حين علموا بتوبة الله على الثلاثة الذين خلفوا وتنافسوا على أن يزفوا له البشارة السارة وهرعوا

(1) آل عمران : 185

جميعاً وقلوبهم تطير فرحاً لتهنئة كعب بن مالك وأخويه ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ .

والمسلمون فى العصر الحديث وفى القرن العشرين بحاجة إلى هذه الأخوة والمحبة والمودة وهم يواجهون أعتى دول الكفر وأشرس قوى العالم ، فهم بحاجة إلى التعاضد والتراحم وتماسك البنيان حتى يثبت فى وجه الأعاصير الشديدة والرياح الهوج التى تدمر كل شىء ضعيف تمر عليه .

إن السبب الأول والرئيسى فى اندحار المسلمين أمام دول الكفر فى العصر الحديث ضعف بنيانهم بسبب ضعف المودة والتراحم والتعاطف بينهم ، وهذا يعود إلى ضعف الإيمان وضعف الإدراك والوعى .

إن الواجب على المصلحين والدعاة أن يؤكدوا على هذا الدرس وأهميته فى إحراز النصر على الأعداء ، عليهم أن ينشروا ذلك بين الناس ، وأن يعملوا على ترجمة ذلك إلى سلوك عملى فى واقع حياة الأفراد والجماعات والمجتمعات .

عشرون : سجود الشكر : تفيد الرواية أن كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ حينما سمع البشارة بتوبة الله عليه خرَّ ساجداً من فوره شاكراً لله ـ تبارك وتعالى ـ قبوله توبته ، وإنه ما من شك أن ذلك بلغ الرسول ـ ﷺ ـ وأقره على ذلك .

أقول : إن أسعد اللحظات من حياة الإنسان المؤمن تلك اللحظات التى يشعر المسلم فيها برضا ربه ـ تبارك وتعالى ـ فيرضى لذلك الرضا قال تعالى : ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ وأن قمة السعادة الغامرة والفرحة العارمة أن تتوج بسجود الشكر للمنعم على إنعامه وللمتفضل على فضله وأفضاله .

وسجود الشكر عبادة تعنى الطاعة والانقياد والخضوع والاستسلام لله ـ تبارك وتعالى ـ ويجد العابد متعة ما بعدها متعة وراحة ما بعدها راحة وطمأنينة ما بعدها طمأنينة أثناء تعفير جبهته بالتراب ؛ لأن ذلك يرضى مولاه فى علاه ، كما يعبر عن رضاه عن مولاه .

إن العبودية الحقة لله القاهر القادر القوى العزيز الحكيم الجبار المتكبر أن يسجد العبد له دون سواه ؛ لأنه المتفضل بالتوبة لا سواه .

والسجود يتنوع ويتعدد ولكل سبب وحالة أما سجود الشكر فإن دل على شيء فإنما يدل على حالة السرور والسعادة التي يعبر عنها بأرقى درجات العبودية لله رب العالمين وحين يسجد العبد الشاكر لربه يكون أقرب الحالات إلي الله جلت قدرته وعزت عظمته ، فإنه أقرب ما يكون العبد إلي الله وهو ساجد ، وهذه الحالة تستدعى الدعاء والرجاء وتتجلى فيها أيضاً لحظات الرضا والقبول فهنيئاً لكعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ وإخوانه وهنيئاً لكل من قبل الله توبته وختم له بخاتمة السعادة .

واحد وعشرون : مكافأة الذى يحمل البشرى : يقول كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ : (آذن رسول الله ـ ﷺ ـ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبى مبشرون ، وركض إلي رجل فرساً ، وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل ، وكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبيّ فكسوته إياهما ، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما .)

لقد كانت المكافأة مجزية نسبياً لأن كعباً ـ رضى الله عنه ـ قدم ثوبيه اللذين يملكهما ، وهذا يدل على مدى الفرحة والسرور الذين أدخلهما المبشر إلى قلب كعب ، فلابد أن يبادله كعب الشعور والموقف فيدخل السرور إلي قلبه كما أدخله إلي قلبه فكافأه بمكافأة مجزية فغمرت الفرحة قلبيهما ، وهذا الذى انقدح فى روعى ونفسى من حكمة المكافأة للمبشر والله الهادى إلي سواء السبيل والمفقه فى الدين .

ثانى وعشرون : مما لفت نظرى واستوقفنى تهنئة طلحة بن عبيد الله لكعب بن مالك ـ رضى الله عنهما ـ فقد جاء فى الخبر قول كعب بن مالك : فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى . كان ذلك فى المسجد وفى حضرة رسول الله ـ ﷺ ـ ، وراه يهرول فلم ينكر عليه بل أقره .

وأستحضر فى ذاكرتى نهى النبى ـ ﷺ ـ المسبوق فى الصلاة عن الهرولة والإسراع ليلتحق بالجماعة بقوله : « *زادك الله حرصاً ولا تعد* » ، والحديثان صحيحان وفى صحيح الإمام البخارى ـ رحمه الله ـ

أقول : إن الإسلام يأمرنا عند السير إلى الصلاة أن نسير تظللنا فى سيرنا السكينة

والوقار؛ ذلك لأن من أركان الصلاة الخشوع ومن هيئاتها سكون الجوارح ، فينبغي أن يسير المسبوق إلى صلاة الجماعة بهدوء وتؤدة ، يتناسب مع الجو الذى سيدخل فيه بعد قليل ألا وهو الدخول فى الصلاة الخاشعة .

أما التهنئة فهى تنبثق من حالة نفسية تمر بالإنسان يبش فيها ويهش ، ويمتلئ قلبه سروراً وحبوراً ، ويتدفق الدم فى عروقه ، فيتولد من ذلك الفرح الشديد حركة واندفاع تدفع صاحبها ليهرول حتى يدخل السرور فى قلب المهنأ الذى ينتظر ذلك ويحبه .

ولهذا يسن ويستحب التسابق والإسراع فى زف البشرى لصاحبها كما مر معك فى حديث كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ . فإن لكل مقام مقالاً ، وإن لكل سؤال جواباً .

ثالث وعشرون : حكم التصدق بجميع المال : جاء فى صحيح البخارى ـ رحمه الله ـ أن كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ جلس بين يدى رسول الله ـ ﷺ ـ وقال : يا رسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله ، قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « *أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك* » ، فقال كعب : فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر .

من هذا الحديث نجد أن كعب بن مالك قد التزم بأن يتصدق بجميع ماله وهذا هو النذر ، ولكن رسول الله ـ ﷺ ـ أعلمه أنه يجب عليه الوفاء بجزء من ماله ولا يلزمه التصدق بجميع ماله ، وعلى هذا أبقى لنفسه سهمه الذى هو فى خيبر .

وهذا هو المعتمد فى مذهب الإمام أحمد بن حنبل والإمام مالك بن أنس ـ رحمهما الله تعالى ـ إلا أنهما ذكرا أن الثلث يبقى للناذر وعليه أن يتصدق بثلثى ماله ، إذ كلمة(بعض) فى الحديث جاء تفسيرها فى حديث أبى لبابة بثلث ماله [1] .

ومفاد الخبر أن أبا لبابة بن عبد المنذر قد أخبر بنى قريظة بتصميم الرسول على ذبحهم ثم شعر أن ذلك خيانة لله ولرسوله فربط نفسه فى سارية من سوارى المسجد النبوى حتى تاب الله عليه فلما بلغته التوبة قال لرسول ـ ﷺ ـ : إن من توبتى أن أنخلع من مالى

(1) انظر الإنصاف فى معرفة الراجح من الخلاف 11/ 127 والمغنى لابن قدامة 10/ 9 والمقنع لابن قدامة 3/ 598 والشرح الصغير على أقرب المسالك 2/ 253

صدقة إلى الله وإلى رسوله ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « *يجزئك الثلث* » (1)

ووافق ابن حزم قول الإمامين فى أنه لا يلزم الناذر الوفاء بجميع ماله إلا أنه اختلف معهما فيما يبقيه له من ماله ، فهما قد أفادا بإبقاء الثلثين أما هو فقال : على الناذر أن يبقى له من ماله ما يغنيه وأهله عن الناس ثم يتصدق بالباقى . (2)

قال ابن حزم بعد أن ساق أدلته من الكتاب والسنة (3) : (فهذه آثار متواترة متظاهرة بإبطال الصدقة بما زاد على ما يبقى غنى ، فبالضرورة يدرك كل أحد أن صدقته بتلك الزيادة لا أجر له فيها ، بل حطت من أجره ، فهى غير مقبولة ، وما تيقن أنه يحط من الأجر أو لا أجر فيه من إعطاء المال فلا يحل إعطاؤه فيه ؛ لأنه إفساد للمال وإضاعة له وسرف حرام ، فكيف ورده ـ عليه السلام ـ الصدقة بذلك بيان كاف) (4)

وهناك من الفقهاء من ذهب إلى أن الناذر إذا نذر التصدق بجميع ماله ، يلزمه الوفاء بذلك ، وعليه أن يبرئ ذمته بالتصدق بجميع المال ولا يبقى منه شيئاً .

قال بهذا القول : الإمام النخعى وعثمان البثى والإمام أبو حنيفة والشافعى وروى أيضاً هذا القول : عن الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمهم الله جميعاً ـ

واحتج أصحاب هذا القول بالحديث الصحيح الذى رواه الإمام البخارى ـ رحمهم الله جميعاً ـ (5) .

(1) انظر سبل الهدى والرشاد 5/ 18 ـ 19 والصراع مع اليهود 2/ 65 ـ 69 .

(2) انظر المحلى 8/ 253 .

(3) انظر هذه الأدلة فى كتاب الأيمان والنذور للمؤلف ص 181 ـ 183 نقلاً عن كتاب المحلى لابن حزم 8/ 349 ـ 351 .

(4) المحلى 8/ 351 .

(5) انظر المغنى لابن قدامة 10/ 9 والإنصاف فى معرفة الراجح من الخلاف 11/ 127 والفروع 6/ 398 والمحلى 8/ 343 ، 344 وحاشية ابن عابدين 3/ 742 والاختيار لتعليل المختار 4/ 77 والأم 2/ 228 والمجموع شرح المهذب 8/ 310 ومغنى المحتاج 8/ 368 ويذكر الأستاذ محمد سعيد رمضان البوطى أن الذين ذهبوا إلى أن كل ماله يصبح صدقة إذا نذره كله قالوا : إن قول كعب ـ رضى الله عنه ـ لرسول الله ـ ﷺ ـ ليس فى حقيقته إنشاء لصيغة النذر ، ولكنه استشارة له ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، فأخبره أن بعض ماله يجزيه ـ فقه السيرة 415 . ولكن يرد على هذا بأن قوله : « يجزيك الثلث » دليل على أنه أتى بلفظ يقتضى الإيجاب ؛ لأنها إنما تستعمل غالباً فى الواجبات ، ولو كان مخيراً بإرادة الصدق لما لزمه شىء يجزى عنه بعضه ـ كتاب الإيمان والنذور للمؤلف ص 178 نقلاً عن المغنى لابن قدامة 10/ 10 .

واحتج أصحاب هذا القول بالحديث الصحيح الذى رواه الإمام البخارى ـ رحمه الله ـ فى صحيحه : « *من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه* »(1).

واعترض ابن حزم ـ رحمه الله ـ على هذا القول ودليله بقول مفاده : إن النذر بجميع المال دون أن يبقى الناذر له شيئاً من ماله يقيم به أوده ، ويسد حاجاته الضرورية أمر مخالف للإسلام ، إذ جاءت النصوص الكثيرة من القرآن والسنة تمنع التصدق بكل المال وتحض على إبقاء بعضه لسد الخلة (2) .

أقول : إن الذى يرجحه العقل ويستريح له القلب ، وينشرح له الصدر وتميل إليه النفس قول من قال : للناذر أن يبقى لنفسه ولمن يعول من أهل بيته ما يغنيهم عنّ سؤال الناس واستجدائهم ، ثم يلزمه ويجب عليه أن يتصدق ببقية ماله مهما بلغ ، تنفيذاً للالتزام الذى أنشأه على نفسه طائعاً مختاراً دون أن يلحق الضرر بنفسه أو بغيره ، وقد أمر الله ـ عز وجل ـ بالوفاء والقيام بالواجبات قدر الاستطاعة ، والناذر بعد أن يبقى من ماله ما يسد به خلته وحاجة أهله يكون مستطيعاً القيام بالواجب الذى التزم به ، قال تعالى : ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (3) .

رابع وعشرون : كل بنى آدم خطاؤون وخير الخطائين التوابون : إن ما حدث من كعب بن مالك وأخويه هلال بن أمية ومرارة بن الربيع ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ يقرر حقيقة ينبغى أن يدركها كل مسلم هى أن الصحابة بشر ليسوا معصومين ، فالعصمة محصورة فى الرسل والملائكة وما سوى ذلك يخطئ ويصيب ، ويعصى ويطيع ، فهم بحاجة إلى الاستغفار باستمرار ، فقد روى الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ فى صحيحه قول رسول الله ـ ﷺ ـ : « *والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون*

(1) صحيح البخارى طبعة الشعب 8/ 177 .
(2) كتاب الأيمان والنذور ص 180 ـ 181 .
(3) كتاب الأيمان والنذور ص 183 .

فيستغفرون الله فيغفر لهم » (1)

وإذا كان هذا الجيل القرآني الفريد الذي رباه رسول الله ـ ﷺ ـ على عينه وأحاطه برعايته يقع منه مثل هذه المعاصي فلا نتوقع ممن هم أقل تربية وأضعف إيماناً من المسلمين اليوم أن يكون مبرءاً من الخطأ والعيب والمعصية ، فإذا هفا هفوة أو كبا كبوة أو ارتكب إثماً أقمنا عليه النكير وأخرجناه عن طوره بحكمنا عليه الحكم القاسي النابع عن تصور خاطئ أثبتت خطأه النصوص من الكتاب والسنة والوقائع العملية في عهد رسول الله ـ ﷺ ـ .

أقول : ولا أعني هنا من كلامي هذا أنني أعفيه من المسؤولية والمحاسبة والعقوبة فمعاذ الله أن أقول ذلك ، فلقد عاقب رسول الله ـ ﷺ ـ كعب بن مالك وأخويه ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ ولكن الذي أريد أن أقوله هنا ألا نتجاوز الحد المطلوب في المساءلة والمحاسبة ، وأرى أيضاً أن نرفق به ونحن نحاسبه ونسائله منطلقين من أنه بشر من البشر يخطئ ويصيب ، ونحن بدافع الحب له والإخلاص نريد أن نقومه ونسدده ونرشده إلى خيري الدنيا والآخرة ، فنأخذ بيده إلى الفلاح والنجاح . وبهذا لاتصلح النفوس وتتآلف القلوب .

إن المطلوب من المسلم إذا ارتكب معصية من المعاصي أن يبادر على الفور بالكف عنها ، والندم على ما بدر منه والعزم على عدم العودة إليه ، ومحاولة جبر ما كسر وذلك بالإقبال على الطاعات لتغسل درن المعاصي قال تعالى : ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾(2) وقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن** »(3)

---

(1) مشكاة المصابيح للتبريزي ـ الطبعة الأولى ص 716 رقم الحديث 2328 .

(2) هود : 114 .

(3) قال في الجامع الصغير وهو متن فيض القدير 1/ 120 رواه الإمام أحمد في مسنده والترمذي في سننه والحاكم في مستدركه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي ذر ، ورواه الإمام أحمد في مسنده والترمذي في سننه والبيهقي في شعب الإيمان عن معاذ بن عساكر عن أنس وقال في فيض القدير 1/ 121 : رواه الحاكم وقال على شرط البخاري ومسلم وأيده الذهبي وأقره . . وقال الترمذي : حسن صحيح ، وحسنه البيهقي .

لقد كان موقف كعب بن مالك وأخويه ـ رضوان الله عليهم ـ أجمعين أن يصدقوا مع رسول الله ـ ﷺ ـ بخلاف غيرهم من المنافقين والأعراب ، وأولى مراتب التوبة المقبولة ، الصدق مع الله والصدق مع رسول الله ـ ﷺ ـ والصدق مع الناس والصدق مع النفس ؛ لأن الصادق لا يتبع نفسه هواها ، بل يحاسبها ويراقبها وإذا أخطأت عذلها ولوم عليها .

وأمام هذا الصبر على العقوبة والندم على ما مضى والإخلاص لله ـ عز وجل ـ والنجاح فى الابتلاء والمحنة أعلن الله توبته عن كعب بن مالك وإخوانه ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ بعد أن أعلن توبته على رسوله وعلى المؤمنين من مهاجرين وأنصار فقال تعالى : ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (1)

(والتوبة على النبى ـ ﷺ ـ التى جاء بها التعبير فى هذا النص المحكم من آيات القرآن العظيم إنما هى تشريف لمقامه المنيف ، وتعظيم لقدره الشريف ، ورفع لدرجاته فى مقامات الترقى الأرفع فى مصاعد القرب لمكانه من ذروة العصمة ، فهى ليست توبة من ذنب ، إذ لم يكن منه ـ ﷺ ـ ذنب قط ، وإنما هى حاله انتقال من مقام فى مصاعد القرب ، وشهود عظمة الله وجلاله فى آياته الكبرى التى انطوت عليها أسرار الكون إلى مقام أجل وأعظم منه ، وبيان أن النبى ـ ﷺ ـ وهو أفضل مخلوقات الله لا يخرج عن كونه عبد الله ورسوله ، ومقام الرسالة يزيده رفعة فى مقام العبودية الذى هو أعظم مقامات القرب المنوه به فى قوله ـ عز شأنه ـ خطاباً لأعز عباده : ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ (2)

وإبراز هذا المعنى السامى فى أسلوب الآية بلفظ التوبة المقتضى فى عرف الشرع العام

(1) التوبة : 117 ، 118 .

(2) العلق : 19 .

وقوع ما منه يتاب إظهار لضراعة العبودية التى لا يخرج عنها أحد من مخلوقات الله فى الأرض ولا فى السماء بين يدى جلال الربوبية) (1)

(والتوبة على المهاجرين والأنصار الذين اتبعوا النبى - ﷺ - فى النهوض إلى هذا الوجه للجهاد ، وسرعة الاستجابة لندائه حينما أعلن لهم أنه يريد أن يتخطى بهم أسوار الجزيرة العربية . . . لينشروا دعوته ويبلغوا بعده رسالته إلى العالمين تحقيقاً لعمومها فى آفاق الحياة . . . فهى توبة تفضل من الله تعالى على هؤلاء الصفوة من خلص المؤمنين ، تنويهاً بذكرهم وبيان فضلهم فى تحقيق ما نيط بهم من نشر الدعوة إلى توحيد الله وتبليغ رسالة النبى - ﷺ - . . . .

فهى توبة تكليف بالجهاد الفكرى والقتالى حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد التبليغ ، وهى توبة تضع منهج الرسالة فى عمومها موضع العمل الإيجابى ، حتى يستقر فى قلب كل فرد من أفراد الأمة أن حمل لواء الجهاد والسير به لتبليغ الدعوة إلى من قرب ومن بعد جزء من الإيمان بهذه الرسالة الخاتمة لرسالات الله ، إشعاراً لهم بوجوب تطهرهم من دنس الركون إلى الاسترخاء المذل) (2) .

وتخصيص المهاجرين والأنصار بالذكر فى جانب توبة التفضل بالفضل والإنعام تنويه بسابقتهم ، وفدائيتهم وقوة إيمانهم فى إرساء صرح الجهاد ، وإقامتهم معالم أساس عموم الرسالة الخاتمة الخالدة ؛ ليكونوا قدوة لمن يخلفهم من أجيال الإسلام فى حمل لواء المسيرة بالدعوة وعدم توقفها عن هدفها الذى ينبغى أن لا تحط رحالها مسترخية إلا بعد وصولها إليها (3) .

خامس وعشرون : التوبة وقبولها أفضل نعمة على الإنسان : تأمل قول رسول الله - ﷺ - لكعب بن مالك - رضى الله عنه - ووجهه يبرق من السرور : «*أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك*» .

(1) محمد رسول الله لعرجون 4 / 418 .

(2) المرجع السابق 4 / 418-419 .

(3) انظر محمد رسول الله لعرجون 4 / 420 .

هذه هى قيمة التوبة فى ميزان الرسول ـ ﷺ ـ ، كيف لا ؟ والتوبة تعنى تجاوز الله عن سيئات الإنسان وإعلان الرضا الربانى عن المذنب بعد سخطه عليه .

إنها السعادة الغامرة ، والفرحة الشديدة التى ينتشى لها ويهش لها ويبش وهى تعدل الدنيا ونعيمها وما فيها من مال وجاه وسلطان ؛ لأن هذه الأشياء عرض زائل ، وما عند الله باق .

سادس وعشرون : ينبغى تحرى الصدق : إن المرء المسلم ليس صادقاً فحسب ، بل إنه يصدق دائماً ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وهكذا كان كعب بن مالك وظل على ذلك حتى توفاه الله ، تأمل قوله ـ رضى الله عنه ـ : يا رسول الله إن الله إنما نجانى بالصدق ، وإن من توبتى ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت ، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول ـ ﷺ ـ أحسن مما أبلانى ، وماتعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ـ ﷺ ـ إلى يومى هذا كذباً ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقيت .

سابع وعشرون : حب الدنيا رأس كل خطيئة : إن الذى جعل هلال بن أمية ومرارة ابن الربيع يتخلفان عن مصاحبة الرسول فى غزوة تبوك ميلهما إلى الدنيا وما فيها من بساتين وأهل وأقارب ، مما جعلهما يتعرضان لغضب الله وغضب رسوله .

والعلاج هو الزهد فى الدنيا ، ففى الحديث : « *ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس* » .

أقول : إن بعض الدعاة يجبن عن قول كلمة الحق ويتقاعس عن إنكار المنكر ولا يجرؤ على نهى الأمراء الجائرين الظالمين عن جورهم خشية منه على لقمة العيش .

ثامن وعشرون : العقوبة لا تتجاوز حد المسىء : إن الإسلام العظيم يقرر قاعدة فى الجزاء لا تتبدل ولا تتغير بتغير الأزمان والأمكنة والأعراق والألوان والأجناس والأديان ، وهذه القاعدة هى أن كل إنسان مأخوذ بجريرة ما ارتكب من جرائم ، فينبغى أن يأخذ الجزاء المناسب ويعاقب العقوبة المكافئة للجريمة التى ارتكبها ، وينبغى ألا تتعدى العقوبة إلى أحد غيره من أقربائه وأصدقائه كأصوله وفروعه وفروع أبيه وأمه وسائرأقربائه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

وهذه القاعدة تطبق على الأعداء والأصدقاء على حد سواء ، وخير دليل على هذا ما حدث لكعب بن مالك وأخويه ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ ، إذ لم تتعد العقوبة إلى آبائهم وإخوانهم وأبنائهم وأقربائهم بل انحصرت فيهم ولم تتجاوزهم .

ولقد شاهدنا فى القرن العشرين أناساً يؤخذون بجريرة غيرهم ، فيحكم على أبناء وأقرباء الجانى بأشد العقوبات وأقساها دون ذنب اقترفوه سوى أنهم أقرباء للجانى إن كان ذلك يشكل جريمة وما هو كذلك .

وللأستاذ محمود شيت خطاب كلام جيد ننقله هنا للفائدة :

(يتخلف عن الاشتراك بالقتال فى كل حرب قديمة أو حديثة بعض الجنود ، لأسباب شتى ، وفى كل أمة قوانين معينة ، يعاقب بموجبها المتخلفون .

ويهمنا أن تعرف أن كثيراً من عوائل المتخلفين أبيدت عن بكرة أبيها فى الدول التى طبقت الحرب الإجماعية خلال الحرب العالمية الثانية فى القرن العشرين .

بمثل هذه القسوة الفظيعة التى أخذ بها البرىء بذنب الجانى فى حرب حديثة بأمم راقية ، استطاعت تلك الأمم بمثل هذه القوة التقليل من التخلف بين صفوف جنودها عندما كانت فى أوج قوتها ، فلما تداعت قواتها تحت مطارق الحرب ، تكاثر المتخلفون فى صفوفها برغم قوانينها الرادعة .

ويهمنى بعد ذلك أن تعرف كيف عالج الإسلام قضية التخلف بالعقاب النفسى الذى أخذه المسيء وحده بذنبه ، دون أن يلحق بغيره من الأبرياء أى عقاب . . .

فأى أثر عظيم تركه هذا العقاب النفسى الصارم ، وأين هذا العقاب الذى طبقه المسلمون على المتخلفين فى القرن السابع من هذا العقاب الذى طبقته أرقى الدول على المتخلفين فى القرن العشرين؟) (1) .

تاسع وعشرون : درسان من توبة كعب :

قال الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة : (إنه حديث النفس التائبة النادمة التى زلت ، وحديث الندم بعد الزلل ، وكما يقول الصوفية : إن زلة أورثت ذلاً خير من طاعة أورثت

(1) انظر الرسول القائد ص 278 ـ 281 .

عزاً ، لقد ذل لله ولرسوله ـ ﷺ ـ ؛ لأنه أحس بالنفس اللوامة تحركه إلى إرضاء الله ورسوله .

وقد مكث خمسين ليلة يذكر الله فى كل ساعاتها ، ويحس فى كل آنية منها بوخز ضمير ، وما يوقظ ذلك الوخز ، يرى فى نظرات النبى ـ ﷺ ـ ، وفى نظرات الناس ، وفى الأسواق ، وهو يصابر نفسه .

إن قصة كعب تدل على أمرين :

أولهما : أن النبى ـ ﷺ ـ رأى فى هذا الرجل وصاحبيه خيراً لم يره فى غيرهما من الذين اعتذروا ومنهم منافقون ، وضعاف الإيمان ، أما هذا فقد أبدى صفحته ، ولم يرض فى موقفه بالاعتذار ، ولا يريد أن يكذب على رسول الله ـ ﷺ ـ ، فهو موقف طاهر ، وقلب طاهر ، ولكن علق به درن قليل ، يمكن أن يزول ، ولا يتوب عليه الله ورسوله وفيه هذا الدرن ، ويريد الرسول ـ ﷺ ـ أن تكون منه توبة نصوح تليق بالمؤمن الصادق فى إيمانه ويقينه ، فكانت هذه لتكون منبهاً يستمر خمسين ليلة ، وكأنه اعتكف خمسين ليلة ، منصرفاً فيها إلى الله تعالى ، حتى كانت القاطعة التى حملت الثلاثة على الاعتكاف ، فاعتكف اثنان ، وصار الثالث بين الناس وكأنه بينهم ، فهو الغريب بين أصحابه وأهله ، حتى أعلن النبى ـ ﷺ ـ قبول توبتهم .

الأمر الثانى : الذى يدل عليه ذلك الخبر ، أن الإنسان خلق ليأتلف مع غيره يلتمس التشجيع النفسى من نظرات وملامح الوجوه ، ومظاهر الأقوال والأفعال والجوارح التى تصدر عن الناس ، وإن الاستنكار النفسى يفعل فى نفوس الأخيار ما لا تفعله العقوبات بالنسبة للأشرار ، فالذين يستهينون بالاستنكار القلبى فى قوله ـ ﷺ ـ : « *من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع بقلبه* » (1) مخطئون ، وما كان عقاب هؤلاء الثلاثة إلا استنكاراً قلبياً بدا فى الوجوه والجوارح ولم يبد فى القول

وإن هذا الذى سنه رسول الله ـ ﷺ ـ يجب علينا اتباعه ، فلا يصح لنا أن نبش فى وجوه الأشرار ، ولا الذين يرتكبون الآثام ؛ لأنه عسى أن يثير ذلك ضمائرهم فتلوم ،

(1) رواه مسلم فى صحيحه .

وإذا كان النبى ـ ﷺ ـ قد فعل ذلك مع الثلاثة لدرن يسير أصاب قلوبهم ، أفلا نفعله مع أشرار هذا الزمان ، وإذا كنا نعجز عن مقاطعتهم ، فإننا لا نمالئهم ، ولا نلتف حولهم مع ظلمهم ؛ لأن مجرد الالتفات حولهم يجعل الرجل من شيعتهم ، وإن لم يعمل عملهم ، ويجعلنا ذلك سائرين معهم ، وإن لم نعاونهم بالفعل ، والنبى ـ ﷺ ـ يقول : « *من مشى مع ظالم فقد سعى إلى حبهم* » (1) .

ثلاثون : فوائد أخرى :

ولقد ورد فى كتاب زاد المعاد لابن القيم فوائد جليلة منها : (2)

1 ـ جواز مدح الإنسان نفسه بما فيه من الخير إذا لم يكن على سبيل الفخر والترفع .

2 ـ تسلية الإنسان نفسه عما لم يقدر له من الخير بما قدر له من نظيره أو خير منه .

أقول : لقد أخبر كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أنه لم يشهد غزوة بدر الكبرى ولكنه حضر بيعة العقبة وهى فى نظره تعدل بدراً بل أهم منها .

3 ـ لم يكن يتخلف عن رسول الله ـ ﷺ ـ إلا أحد رجال ثلاثة : إما مغموص عليه فى النفاق ، أو رجل من أهل الأعذار ، أو من خلفه رسول الله ـ ﷺ ـ واستعمله على المدينة أو خلفه لمصلحة .

أقول : وفى هذه الغزوة صنف آخر من المتخلفين وهم المذنبون العصاة ، ويدخل فى هؤلاء كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع ، فقد تخلفوا عن النفير العام وخالفوا أمر رسول الله ـ ﷺ ـ فعاقبهم على ذلك ، ثم تاب الله عليهم بتوفيقهم للتوبة وقبول توبتهم .

4 ـ إن الإمام والمطاع لا ينبغى له أن يهمل من تخلف عنه فى بعض الأمور ، بل يذكره ليراجع الطاعة ويتوب ، فإن النبى ـ ﷺ ـ قال بتبوك : ما فعل كعب ؟ ولم يذكر سواه من المخلفين استصلاحاً له ومراعاة ، وإهمالاً للقوم المنافقين .

---

(1) خاتم النبيين 2 / 1322 ـ 1323 .

(2) انظر كتاب زاد المعاد 3 / 573 ـ 592 .

5 ـ التبسم قد يكون عن الغضب ، كما يكون عن التعجب والسرور ، فإن كلاًّ منهما يوجب انبساط دم القلب وثورانه ، ولهذا تظهر حمرة الوجه لسرعة ثوران الدم فيه ، فينشأ عن ذلك السرور .

والغضب تعجب يتبعه ضحك وتبسم ، فلا يغتر المغتر بضحك القادر عليه فى وجهه ، ولاسيما عند المعتبة كما قيل :

إذا رأيت نيوب الليث بارزة ❖ فلا تظنن أن الليث مبتسم

6 ـ معاتبة الإمام والمطاع أصحابه ومن يفر عليه ويكرم عليه ، فإنه عاتب الثلاثة دون سائر من تخلف عنه ، وقد أكثر الناس من مدح عتاب الأحبة ، واستلذاذه ، والسرور به فكيف بعتاب أحب الخلق على الإطلاق إلى المعتوب عليه ، ولله ما كان أحلى ذلك العتاب ، وما أعظم ثمرته ، وأجل فائدته ، ولله ما نال به الثلاثة من أنواع المسرات ، وحلاوة الرضا وخلع القبول .

7 ـ وفى نهى النبى ـ ﷺ ـ عن كلام هؤلاء الثلاثة من بين سائر من تخلف عنه دليل على صدقهم وكذب الباقين ، فأراد هجر الصادقين وتأديبهم على هذا الذنب ، وأما المنافقون فجرمهم أعظم من أن يقابل بالهجر ، فدواء هذا المرض لا يعمل فى مرض النفاق ، ولا فائدة فيه .

وهكذا يفعل الرب ـ سبحانه ـ بعباده فى عقوبات جرائمهم ، فيؤدب عبده المؤمن الذى يحبه وهو كريم عنده بأدنى زلة وهفوة فلا يزال مستيقظاً حذراً ، وأما من سقط من عينه وهان عليه فإنه يخلى بينه وبين معاصيه ، وكلما أحدث ذنباً أحدث له نعمة ، والمغرور يظن أن ذلك من كرامته عليه ، ولا يعلم ذلك عين الإهانة ، وأنه يريد به العذاب الشديد والعقوبة التى لا عاقبة معها كما فى الحديث المشهور : « *وإذا أراد الله بعبد خيراً عجل له عقوبته فى الدنيا ، وإذا أراد الله بعبد شراً أمسك عنه عقوبته فى الدنيا ، فيرد يوم القيامة بذنوبه* »

8 ـ فى أمر رسول الله ـ ﷺ ـ لهؤلاء الثلاثة أن يعتزلوا نساءهم لما مضى لهم أربعون ليلة ، كالبشارة بمقدمات الفرج والفتح من وجهين :

أحدهما : كلامه لهم ، وإرساله إليهم بعد أن كان لا يكلمهم بنفسه ولا برسوله .

الثانى : من خصوصية أمرهم باعتزال النساء ، وفيه تنبيه ، وإرشاد لهم إلى الجد والاجتهاد فى العبادة وشد المئزر واعتزال محل اللهو واللذة ، والتعوض عنه بالإقبال على العبادة وفى هذا إيذان بقرب الفرج ، وأنه قد بقى من العتب أمر يسير .

وفقه هذه القضية أن زمن العبادات ينبغى فيه تجنب النساء ، كزمن الإحرام ، وزمن الاعتكاف ، وزمن الصيام ، فأراد النبى ـ ﷺ ـ أن يكون آخر هذه المدة فى حق هؤلاء بمنزلة أيام الإحرام والصيام فى توفرها على العبادة ، ولم يأمرهم بذلك من أول المدة رحمة بهم ، وشفقة عليهم ، إذ لعلهم يضعف صبرهم عن نسائهم فى جميعها ، فكان من اللطف بهم والرحمة أن أمروا بذلك فى آخر المدة . كما يؤمر به الحاج من حين يحرم لا من حين يعزم على الحج .

9 ـ وفى حديث كعب د ليل على استحباب تهنئة من تجددت له نعمة دينية ، والقيام إليه إذا أقبل ، ومصافحته ، فهذه سنة مستحبة ، وهو جائز لمن تجددت له نعمة دنيوية ، وأن الأولى أن يقال له : ليهنك ما أعطاك الله ، وما منَّ الله به عليك ، ونحو هذا الكلام ، فإن فيه تولية النعمة ربها ، والدعاء لمن نالها بالتهنى بها .

10 ـ وفى قول رسول الله ـ ﷺ ـ لكعب : « *أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك* » دليل على أن خير أيام العبد على الإطلاق وأفضلها يوم توبته إلى الله . وقبول الله توبته .

فإن قيل : فكيف يكون هذا اليوم خيراً من يوم إسلامه ؟ قيل : هو مكمل ليوم إسلامه ومن تمامه ، فيوم إسلامه بداية سعادته ، ويوم توبته كما لها وتمامها .

11 ـ فى سرور النبى ـ ﷺ ـ بتوبة كعب وأخويه وقبولها دليل على ما جعل الله فيه من كمال الشفقة على الأمة ، والرحمة بهم والرأفة ، حتى لعل فرحه كان أعظم من فرح كعب وصاحبيه .

إجراءات الرسول بعد وصوله إلى تبوك

إجراءات الرسول بعد وصوله إلى تبوك

إجراءات الرسول عند وصوله إلى تبوك

وبعد سير طويل فى الحر الشديد وصل الجيش الإسلامى بقيادة رسول الله ـ ﷺ ـ إلى تبوك ، وكان فى غاية التأهب للقتال ، ولكنه لم يلق أحداً من الصليبيين العرب أو الروم ، إذ لم يجرؤوا على نزال الجيش الإسلامى ، فانسحبوا إلى داخل دولتهم خشية أن يذوقوا هزيمة منكرة على أيدى الجيش الإسلامى الذى يقوده رسول الله ـ ﷺ ـ

لقد انفرد رسول الله ـ ﷺ ـ بالإمارات الواقعة فى شمال الجزيرة العربية فعقد رسول الله ـ ﷺ ـ معها معاهدات تؤدى بموجبها الجزية كل عام ، وتخضع لسلطان المسلمين ، وكتب بذلك كتباً لأهل تلك الإمارات ، وبذلك يكون رسول الله ـ ﷺ ـ قد أمن حدود الدولة الإسلامية الشمالية .

كتاب الرسول لأهل أيلة :

قال ابن إسحق : «ولما انتهى رسول الله ـ ﷺ ـ إلى تبوك ، أتاه يوحنة بن رؤبة صاحب أيلة ، فصالح رسول الله ـ ﷺ ـ وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل جرباء وأذرح فأعطوه الجزية ، فكتب لهم رسول الله ـ ﷺ ـ كتاباً ، فهو عندهم [1]

ونص كتاب الرسول لصاحب أيلة ما يلى : [2]

بسم الله الرحمن الرحيم : هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليوحنة بن رؤبة وأهل أيلة ، سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر : لهم ذمة الله ، وذمة محمد النبى ، ومن كان معهم من أهل الشام ، وأهل اليمن ، وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً ، فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لما أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يُمنعوا ماء

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام 2/ 525 .

(2) انظر مغازى الواقدى 3/ 1031 وسبل الهدى والرشاد 5/ 662 والسيرة النبوية لابن هشام 2/ 525 والسيرة النبوية لابن كثير 4/ 29 وتاريخ الطبرى 3/ 146 وشرح الزرقانى على المواهب اللدنية 3/ 76 والوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة ص 117 ـ 118 .

يريدونه، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر .

وأعطى النبى ـ ﷺ ـ أهل أيلة بردة مع كتابه أماناً لهم (1)

كتاب الرسول لأهل جرباء وأذرح : (2)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبى لأهل أذرح ، إنهم آمنون بأمان الله ومحمد ، وإن عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيبة (3) ، والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين، ومن لجأ إليهم من المسلمين من المخافة والتعزير إذا خشوا على المسلمين، وهم آمنون حتى يحدث إليهم محمد قبل خروجه .

كتاب الرسول لأهل مقنا (4)

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى بنى جنبة وإلى أهل مقنا

أما بعد : فقد نزل على آيتكم راجعين إلى قريتكم ، فإذا جاءكم كتابى هذا فإنكم آمنون ، لكم ذمة الله وذمة رسوله ، وإن رسوله غافر لكم سيئاتكم وكل ذنوبكم، وإن لكم ذمة الله وذمة رسوله ، لا ظلم عليكم ولا عدى ، وإن رسول الله ـ ﷺ ـ جاركم مما منع منه نفسه . فإن لرسول الله بزكم وكل رقيق فيكم والكراع والحلقة ، إلا ما عفا عنه رسول الله ، أو رسول رسول الله ، وإن عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخلكم ، وربع ما صادت عروككم ، وربع ما اغتزل نساؤكم ، وإنكم برئتم بعد من كل جزية أو سخرة(5) أما بعد فإلى المؤمنين والمسلمين : من أطلع أهل مقنا بخير ، فهو خير له ، ومن

---

(1) السيرة النبوية لابن كثير 4/ 30 .

(2) انظر المغازى للواقدى 3/ 1032 والسيرة النبوية لابن كثير 4/ 30 وإمتاع الأسماع 1/ 469 والسيرة النبوية والآثار المحمدية 2/ 132 وسبل الهدى والرشاد 5/ 662 والوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة 118 ـ 119

(3) زاد فى السيرة النبوية لابن كثير 4/ 30 هذه العبارة : ومائة أوقية طيبة .

(4) انظر الوثائق السياسية فى عهد النبوة والخلافة الراشدة 119 ـ 124 وسبل الهدى والرشاد 5/ 662 والمغازى للواقدى 3/ 1032 والسيرة النبوية والآثار المحمدية 2/ 132 وإمتاع الأسماع 1/ 469

(5) سخرة : إكراه الرجل على العمل بلا أجرة .

أطلعهم بشر فهر شر له . وإن ليس عليكم أمير إلا من أنفسكم ، أو من أهل رسول الله ، والسلام وكتبه على بن أبى طالب فى سنة تسع .

• ما يستفاد من ذلك

أولاً : ضعف الروح المعنوية عند المقاتلين الصليبيين : ألا ترى أن هؤلاء بقادتهم لم يجرؤوا على التصدى للجيش الإسلامى الذى جاء يغزوهم فى عقر دارهم ، وأخذوا يتخلون عن جزء من أرض دولتهم أو أتباعهم .

ثانياً : الفصل بين نصارى العرب ونصارى الروم : لقد كان من نتائج هذه الغزوات أن فر الروم من وجه الجيش الإسلامى ، وتركوا عملاءهم وأتباعهم يواجهون الجيش الإسلامى الذى لا طاقة لهم به ، فاستسلموا للمسلمين ، ورضخوا لشروطهم ، وأيقنوا أن الروم لا يستمسك بهم ولا يعتمد عليهم فى الدفاع عنهم .

لقد فقد النصارى العرب ثقتهم بالنصارى الروم الذين تخلوا عنهم فى أحلك الظروف ، ولقد كان لهذه النتيجة آثارها السلبية على الروم فى مستقبل الأيام والمعارك ، فعاملوهم بالمثل ، وتخلوا عنهم كذلك ، بل ودخل قسم كبير منهم الإسلام لما رأوا المسلمين أصحاب عهد ووفاء لا يتخلون عن عهودهم ولا ينكثون مواثيقهم .

ثالثاً : مشروعية الجزية : لقد أخذ رسول الله ـ ﷺ ـ الجزية من الإمارات العربية التى كانت تدين بالنصرانية الواقعة فى شمال الجزيرة العربية ، وهذا أول تطبيق عملى لآية الجزية ، وآية الجزية نزلت فى سورة التوبة ، وسورة التوبة نزلت فى العام التاسع من الهجرة ، وغزوة تبوك وقعت فى العام التاسع من الهجرة .

حقاً إنها أول غزوة أخذت فيها الجزية من أهل الكتاب تنفيذاً لقوله تعالى : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾

رابعاً : توثيق العهود بالكتابة : نلاحظ أن النبى ـ ﷺ ـ قد عاهد هؤلاء وكتب لهم عهوداً تثبت الحقوق والواجبات للمتعاهدين ، وهذا أمر فى غاية الأهمية ، لأن الناس يتغيرون ، وينسون ، ويتوفون ، وما يكتب يعاد إليه ويحتكم إليه إن اختلف الناس أو

نسوا .

إن كتابة المواثيق وتوثيق العهود والعقود بين أمة أمية قليلة القراءة والكتابة يدل على عناية الإسلام بهذه الناحية ، كما يدل على اهتمام الإسلام بحقوق الناس وواجباتهم ، ويدل أيضاً على حرص الإسلام ورسول الإسلام ـ ﷺ ـ على تعليم الناس ما ينفعهم فى الدنيا ، وأنه جاء لصلاح أهل الدنيا والآخرة .

خامساً : من دراستنا للكتب التى كتبها رسول الله ـ ﷺ ـ لأهل أيلة وجرباء وأذرح وقفنا نستفيد الأمور التالية :

1 ـ بدء الكتابة بالبسملة يدل على جواز قراءة آية من القرآن على غير طهارة من الحدثين ، ذلك لأن هؤلاء ليسوا مسلمين ، ومن ثم فلا يتطهرون من الجنابة ، ولا يعرفون الوضوء ، وكون الرسول ـ ﷺ ـ يأمر بكتابة البسملة لهم فى الكتاب الموجه لهم ، وأنهم سيقرأون الكتاب ، وسيقرأون البسملة دل على جواز قراءة القرآن من المحدث .

2 ـ أخذ الجزية فى مقابل حماية أموال أهل الذمة وأنفسهم وأعراضهم : هذا ما تضمنته الكتب السابقة التى قرأناها ، وهذا هو منطق العدل ، فهذا الذى يتمتع بتوفير الأمن والأمان له ولأبنائه ولأقربائه ولأمواله ينبغى أن يسهم فى تكاليف الحياة ، ونفقات المجتمع الذى يحظى بالحياة الهانئة الهادئة الراغدة فيه .

3 ـ العهد يشمل كل مواطن فى الإمارات دون النظر إلى أصله وجنسه : وهذا الأمر قد نص عليه الكتاب الذى أعطاه رسول الله ـ ﷺ ـ لصاحب أيلة ، فقد جاء منه ومن كان معهم من أهل الشام ، وأهل اليمن وأهل البحر

4 ـ نقض العهد يستوجب العقوبة ومصادرة المال ، ذلك لأن هؤلاء المعاهدين إذا نقضوا العهد أصبحوا محاربين ، والمحارب مهدور الدم والمال ، فلا دمه معصوم ولا ماله معصوم ، وحيازته غنيمة .

5 ـ يعاقب الذمى على أى جريمة يقترفها : إن الذى يعيش فى المجتمع الإسلامى فله ماله ، وعليه ما عليه ، ويطبق عليه القانون الإسلامى حفاظاً على الأمن العام الذى ينعم به الجميع .

6 ـ يوفسر المعاهدون للمسلمين الأمن فى بلادهم ، فيتعهدون لحمايتهم وعدم الغدر بهم

سادساً : لقد حقق النبى ـ ﷺ ـ فى هذه الغزوة فائدة جليلة وغرضاً عظيماً ومكسباً عسكرياً استرتيجياً مهماً وهو تأمين حدود الدولة الإسلامية الشمالية إذ استطاع أن يفصل بين المسلمين وبين الروم بإمارات تدين للرسول بالطاعة وتخضع لحكم المسلمين .

لقد كانت هذه الإمارات عبارة عن سياج عال ومتين للدولة الإسلامية ، ليس من السهل على الروم تجاوزه واختراق حدوده .

وكانت تلك الإمارات أيضاً نقاط ارتكاز سهلت مهمة الفتح الإسلامى على عهد الخلفاء الراشدين ، فمنها انطلقت قوات المسلمين إلى الشمال ، وعليها ارتكزت لتحقيق هدفها العظيم [1] .

الرسول يستشير : [2] .

ولما وصل الجيش الإسلامى إلى تبوك ولم يلق عدواً استشار رسول الله ـ ﷺ ـ الصحابة فى الاستمرار والتقدم حتى يقتحم على الروم بلاد الشام ويخوض حرباً ضروساً مع جيوشهم ، فأشار عليه عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قائلاً : إن كنت أمرت بالسير فسر ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : «*لو أمرت بالسير لم أستشركم فيه*» ، فقال عمر : يا رسول الله إن للروم جموعاً كثيرة ، وليس بها أحد من أهل الإسلام وقد دنونا ، وقد أفزعهم دنوك ، فلو رجعنا هذه السنة حتى نرى أو يحدث الله أمراً ، فأخذ رسول الله ـ ﷺ ـ برأى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ، وقفل راجعاً إلى المدينة .

ما يستفاد من ذلك :

أولاً : زحف الإسلام لا يتوقف حتى يبلغ دعوة الله للناس : لم يكتف رسول الله ـ ﷺ ـ بالوقوف عند تبوك ، ولكنه رأى أن يتقدم بالجيش إلى أعماق دولة الروم حيث يفتح عليهم بلاد الشام ، وهذا يشعر أن الإسلام دين البشرية وأن الجهاد ماض حتى يقام على

(1) الرسول القائد ص 284 .

(2) انظر تاريخ الخميس 2/ 129 وإمتاع الأسماع 1/ 473 وحياة سيد العرب 4/ 74 .

الناس الحجة .

ثانياً : الإسلام دين شورى والرسول يستشير : لقد كان الرسول ـ ﷺ ـ لا يحب أن ينفرد برأى بل كانت سنته الاستشارة ، يحرص عليها ، وكان يحرص على أن يربى الأمة على الشورى حتى تصبح الشورى سجية من سجاياها ، لتكون لها شخصيتها المستقلة ، والأمة لا تحقق ذاتها إلا من خلال ممارستها لحقها فى الشورى .

ثالثاً : الشورى أمر اجتهادى فلا تكون فى الأمور الموحى بها : إن الشورى تكون فى الأمور الاجتهادية ولا تكون فى الوحى ، لأن الوحى فيه العصمة والاجتهاد قد يكون صواباً وقد يكون غير ذلك ، فالنص أقوى من آراء الأشخاص وتقديرهم ، ولهذا نجد الرسول ـ ﷺ ـ يقول لعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : « *لو أمرت بالسير لم أستشركم فيه* » .

ومما يجدر ذكره هنا أن الشورى تكون فيما لا نص فيه ودائرة الشورى هنا أوسع وتكون فى فهم النص لمعنى الدلالة من الكتاب والسنة وتكون دائرة ذلك أضيق من الحالة الأولى ، وتكون فى تطبيق النص إن كان قطعى الدلالة .

رابعاً : عمر صاحب رأى سديد : يلاحظ فى رأى عمر أنه ـ رضى الله عنه ـ قد سأل الرسول ـ ﷺ ـ عن موضوع الشورى بأسلوب فى غاية الأدب حين قال لرسول الله ـ ﷺ ـ : إن كان الله أمرك بالسير فسر ، فلما أخبره الرسول ـ ﷺ ـ أن الله لم يأمره وإنما هو يستشير أخبره عمر ـ رضى الله عنه ـ بالرأى الذى ارتآه وهو عدم التوغل فى أرض العدو ، لأن ذلك قد يوقع الجيش الإسلامى فى خطر كمائن الجيش الرومانى هذا أولاً ، وثانياً : أن الرسول ـ ﷺ ـ لم يخرج لهذا من المدينة ، وعمر يريد أن تبقى هيبة الجيش الإسلامى لا تتعرض للخدش ، ومن يدرى فقد تكون الملاحقة للروم ملجئة لهم للصدام مع الجيش الإسلامى وقد تكون النتيجة سلبية والآثار ليست مرضية وبخاصة أن جموع الروم أكثر من الجيش الإسلامى ، ويمكن أن يحشدوا أكثر من ذلك بكثير . فالعودة إلى المدينة تبقى الروح المعنوية فى القتال عالية عند المسلمين وضعيفة عند الروم . وهذا يفيد المسلمين فى المعارك القادمة إذ يتجرأ المسلمون على قتال الروم ويُجْبنْ الروم عند لقاء المسلمين وقد أخذوا فكرة عنهم وعن قوتهم والروح العالية فى القتال التى يتمتعون بها .

خامساً : الأخذ بالرأى السديد : كان رسول الله ـ ﷺ ـ يستشير ويأخذ بالرأى الأصوب دون تحرج ، وها هو ذا يأخذ برأى عمر ـ رضى الله عنه ـ لأن فيه مصلحة المسلمين .

سادساً : السكون فى معرض الحاجة إلى بيان بيان : من الملاحظ أن الرسول ـ ﷺ ـ استشار المسلمين فى اقتحام بلاد الشام على الروم فأبدى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ بالمعارضة وسكت المسلمون ، وهذا السكون فى هذه الحالة موافقة على رأى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ

أقول : إن الرسول ـ ﷺ ـ أخذ برأى الأغلبية الذى قال به عمر ـ رضى الله عنه ـ وأيده الحا ضرون بعدم معارضتهم له وبسكوتهم عليه ، فكان ذلك بمثابة إقرار .

الرسول يرسل كتاباً لهرقل من تبوك :

روى الإمام أحمد فى مسنده بإسناده إلى سعيد بن أبى راشد قال : لقيت التنوخى [1] رسول هرقل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ بحمص ، وكان جاراً لى شيخاً كبيراً قد بلغ الفند [2] أو قرب ، فقلت : ألا تخبرنى عن رسالة هرقل إلى النبى ـ ﷺ ـ ورسالة رسول الله ـ ﷺ ـ إلى هرقل ؟ فقال : بلى : قدم رسول الله ـ ﷺ ـ تبوك فبعث دحية الكلبى إلى هرقل ، فلما أن جاء كتاب رسول الله ـ ﷺ ـ ؛ دعا تسيسى الروم وبطارقتها ، ثم أغلق عليه وعليهم باباً ، فقال : قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم ، وقد أرسل إلى يدعونى إلى ثلاث خصال : يدعونى إلى أن أتبعه على دينه ، أو على أن أعطيه ما لنا على أرضنا والأرض أرضنا ، أو نلقى إليه الحرب ، والله لقد عرفتم فيما تقرأون من الكتب ليأخذن ما تحت قدمى ، فهلم نتبعه على دينه أو نعطيه ما لنا على أرضنا ، فنخروا نخرة [3] رجل واحد حتى خرجوا من برانسهم ، وقالوا : تدعونا أن ندع النصرانية أو نكون عبيداً

---

(1) قال فى مختصر بلوغ الأمانى بحاشية الفتح الربانى21/ 198 : نسبة إلى تنوخ ، وهو اسم لعدة قبائل اجتمعوا قديماً فى البحرين وتحالفوا على التناصر ، فأقاموا هناك فسموا تنوخاً ، والتنوخ الإقامة .

(2) الفند : الفند فى الأصل الكذب ، وأفند تكلم بالفند ، ثم قالوا للشيخ إذا هرم : قد أفند لأنه يتكلم بالمخرف من الكلام عن سنن الصحة ، وأفنده الكبر إذا أوقعه فى الفند .

(3) نخروا نخرة : تكلموا كلام رجل واحد ، وكأنه كلام مع غضب ونفور حملهم على أن يخرجوا من برانسهم .

لأعرابى جاء من الحجاز؟ فلما ظن أنهم إن خرجوا من عنده أفسدوا عليه الروم رفأهم [1] ولم يكد[2]، وقال : قلت ذلك لكم [3] .

• ما يستفاد من رسالة الرسول إلى هرقل :

أولاً : إقامة الحجة على هرقل : إن رسول الله ـ ﷺ ـ أمره ربه أن يبلغ دعوته للناس كافة ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ ، فنشر الإسلام فى الجزيرة العربية ، ثم أخذ يرسل سفراءه إلى الملوك والرؤساء والأمراء يدعوهم إلى الإسلام ، ليقيم عليهم الحجة عند الله ـ تبارك وتعالى ـ . ونجد الرسول ـ ﷺ ـ فى غزوة تبوك لم ينشغل بالنصر الذى حققه على عدوه وأخذه الجزية فيه بل أرسل التنوخى برسالة يدعوه وقومه إلى الدخول فى الإسلام .

والدعاة اليوم ينبغى ألا يشغلهم شاغل عن تبليغ دعوة الله للناس حتى ينجوا من عذاب الله وعقوبته فى الآخرة ، وحتى لا يتعرضوا لسخط الله فى الدنيا وليعلموا أن ما يعانونه هم وشعوبهم من عنف ومشقة وضنك فى العيش واضطراب فى الحياة ، وقلق نفسى ، وأزمات تأخذ بخناق بعضهم بعضاً إلا بسبب تقصيرهم عن تبليغ دعوة الناس للإسلام الذى يسعد البشرية جميعاً . ويوم أن يقوموا بواجب الدعوة إلى الله حق القيام وأكمله وأفضله سييسرهم الله لليسرى وستكون حياتهم هانئة راغدة .

ثانياً : مرضى القلوب بحاجة إلى العلاج حكاماً ومحكومين : ليس فقط مرض الأبدان هو الذى بحاجة إلى العلاج ، بل هناك مرض أخطر وأفتك من مرض الأبدان ألا وهو مرض القلوب والنفوس ؛ لأنه بصلاح القلوب والنفوس تصلح الحياة وتصلح المجتمعات والإسلام يعتبر كل إنسان سواء كان غنياً أو فقيراً ، حاكماً أو محكوماً ، ذكراً أو أنثى ، متعلماً أو غير متعلم ـ لا يعتنق الإسلام ولا يدين به هو مريض بحاجة إلى العلاج ليبرأ من هذا المرض المهلك لصاحبه . ومن هذا المنطلق أرسل رسول الله ـ ﷺ ـ سفيره التنوخى برسالة إلى هرقل باعتباره مريضاً بمرض الشرك والكفر ، وأن دعوته

---

(1) رفأهم : سكنهم .

(2) لم يكد : لم ينازعهم فى الأمر .

(3) الفتح الربانى 21/ 198 ـ 200.

لدحول الإسلام إنقاذ له من الشرك وعلاج له مما يعانى من مرض الكفر .

ثالثاً : أهل الكتاب غالباً لا يؤمنون مع قيام الحجة عليهم : إن الحديث النبوى ينص صراحة على أن أهل الكتاب يعرفون أن محمد بن عبد الله هو رسول الله حقاً وصدقاً بذلك قد أخبرت كتبهم ، وقد أخبرتهم كتبهم أن الله سينصره على عدوه ، وعليهم وهذا ما ذكره هرقل للبطاركة ولكنهم لم يؤمنوا بهذا الإسلام ، ولم يتبعوا رسول الله - ﷺ - وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عناد أهل الكتاب وتعصبهم للباطل ، وصدهم عن الحق وأن الحجج الساطعة والبراهين القاطعة لا تؤثر فيمن يستبد به هواه عن البحث عن الحق واتباعه ، قال تعالى : ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾(1) تأمل قولهم القبيح : تدعونا أن ندع النصرانية أو أن نكون عبيداً لأعرابى جاء من الحجاز ؟إنه التعصب الأعمى والإلغاء الكلى للعقول التي وهبهم إياها لتكون مناط التكليف بالإيمان والأعمال .

رابعاً : حب الزعامة حجاب يحجب الإيمان عن صاحبه : إن هرقل قد استقر فى روعه أنَ الكتاب الذى حمله التنوخى من محمد بن عبد الله هو كتاب من رسول الله - ﷺ - وأن عليه والذين معه من البطاركة أن يؤمنوا بهذا الرسول وينقادوا لأمره، إلا أنه أبى ذلك كما أبى البطاركة ، ذلك لأنه خشى على زعامته ورياسته أن تزول إن هو اتبع دين الإسلام ، فآثر بقاءه على الكفر والزيغ والضلال من أجل زعامة فارغة زائلة لا تنفعه فى الدنيا والآخرة .

وليعلم الدعاة إلى الله أن الدنيا وحبها والحرص على الزعامة والجاه والسلطان تعمى عن الحق وتصم عن سماع الخير ، وليعلموا أن حب الدنيا رأس كل خطيئة .

سرية خالد إلى أكيدر دومة (2) :

عسكر رسول الله - ﷺ - فى تبوك ، وأرسل خالد بن الوليد - رضى الله عنه - على

(1) يونس : 101 .

(2) انظر : الطبقات الكبرى لابن سعد 2/ 166 وكنز العمال 10/ 588 - 589 وتاريخ الخميس 2/ 128 وشرح المواهب اللدنية 3/ 78 ومغازى الواقدى 3/ 1025 - 1026 والسيرة النبوية والآثار المحمدية 2/ 132 والسيرة النبوية لابن هشام 2/ 536 والسيرة النبوية لابن كثير 4/ 30 - 31 .

رأس سرية من الفرسان بلغ عددها أربعمائة وعشرين فارساً إلى أكيدر دومة وهو أكيدر بن عبد الله ، رجل من بنى كندة ، كان ملكاً عليها ، وكان نصرانياً ، وقال رسول الله ـ ﷺ ـ لخالد : « *إنك تجده يصيد البقر* » . فخرج خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ حتى إذا كان قريباً منه ، فى ليلة مقمرة صائفة ، وهو على سطح له ومعه امرأته ، وباتت البقر تحك بقرونها باب القصر ، فقالت له امرأته : هل رأيت مثل هذا قط ؟ قال : لا والله ، قالت : فمن يترك هذا؟ قال : لا أحد . فنزل فأمر بفرسه فأسرج له ، وركب معه نفر من أهل بيته فيهم أخ له يقال له حسان فلما خرجوا تلقتهم خيل المسلمين بقيادة خالد ـ رضى الله عنهم ـ فقبضوا عليهم وأسروهم إلا ما كان من أخيه من تصرف جوزى عليه بالقتل . وكان عليه قباء من ديباج مخوص بالذهب فاستلبه خالد بن الوليد ، بعث به إلى رسول الله ـ ﷺ ـ قبل عودته إليه .

ولما قدم بالقباء على رسول الله ـ ﷺ ـ رآه المسلمون ولمسوه بأيديهم عجبوا منه فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « *أتعجبون من هذا ، فوالذى نفسى بيده لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن من هذا* » (1) . أما أكيدر دومة فقد قدم به خالد بن الوليد إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فحقن له دمه وصالحه على الجزية وعاد إلى بلده ، وغنم المسلمون فى هذه السرية ثمانمائة من السبى وألف بعير ، وأربعمائة درع وأربعمائة رمح .

كتاب رسول الله إلى أكيدر (2) .

هذا وقد دخل أكيدر دومة الإسلام فكتب له رسول الله ـ ﷺ ـ الكتاب التالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر ، حين أجاب إلى الإسلام ، وخلع الأنداد والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله فى دومة الجندل وأكنافها : أن له الضاحية من الضحل والبور والمعامى (3) ، وأغفال (4) الأرض والحلقة (5) ، والسلاح

---

(1) روى هذا الحديث الإمام البخارى ـ رحمه الله ـ فى صحيحه 7/ 122 عن البراء بن عازب قال : أهديت للنبى ـ ﷺ ـ حلة حرير ، فجعل أصحابه يمسونها ، ويعجبون من لينها فقال : « **أتعجبون من لين هذه ؟ لمناديل سعد خير منها وألين** » .

(2) انظر إمتاع الأسماع 1/ 464 ـ 465 .

(3) المعامى : البلاد المجهولة .

(4) الأغفال : التى لا آثار بها .

(5) الحلقة : الدروع وقيل السلاح بشكل عام .

والحافر [1] والحصن [2]، ولكم الضامنة [3] من النخل ، والمعين [4] من المعمور [5] بعد الخمس ، لا تعدل سارحتكم [6] ولا تعد فاردتكم [7] ولا يحظر عليكم الشياب [8]، ولا يؤخذ منكم إلا عشر النبات ، تقيمون الصلاة لوقتها ، وتؤتون الزكاة بحقها ، عليكم بذلك العهد والميثاق ، ولكم بذلك الصدق والوفاء شهد الله ومن حضر من المسلمين .»

خطبة الرسول بتبوك [9] :

روى الإمام أحمد : خطب رسول الله ـ ﷺ ـ عام تبوك وهو مسند ظهره إلى نخلة فقال : « *ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس ، إن من خير الناس رجلاً يحمل فى سبيل الله على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره أو على قدميه حتى يأتيه الموت ، وإن من شر الناس رجلا فاجراً [جريئاً] يقرأ كتاب الله لا يرعوى إلى شيء منه* » .

وروى البيهقى عن عقبة بن عامر ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ لما أصبح بتبوك حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : « *يا أيها الناس أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العُرى كلمة التقوى ، وخير الملل ملة إبراهيم ، وخير السنن سنة محمد ، وأشرف الحديث ذكر الله ، وأحسن القصص القرآن ، هذا وخير الأمور عوازمها ، وشر الأمور محدثاتها وأحسن الهدى هدى الأنبياء وأشرف الموت قتيل الشهداء ، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى ، وخير الأعمال ما نفع وشر العمى عمى*

---

(1) الحافر : الخيل وغيرها من ذات الحافر .

(2) الحصن : حصن أكيدر دومة ومن معه .

(3) الضامنة من النخل : التى معهم فى المصر ، وقال ابن سعد عن الواقدى : الضامنة ماحمل من النخل .

(4) المعين : الماء الدائم الظاهر ، مثل ماء العيون ونحوها .

(5) المعمور : بلادهم التى يسكنونها .

(6) السارحه : الماشية التى تسرح فى المراعى يقول : لا تعدل عن مرماها ـ لا تمنع منه ـ ولا تحشر فى الصدقة إلى المصدق، ولكنها تصدق على مياهها ومراعيها .

(7) الفاردة : الزائدة على فريضة الصدقات ، وقال ابن سعد : الفارد ما لا تجب فيه الصدقة .

(8) ورد فى بعض المصادر : الثبات ومعناها النخل القديم الذى ضرب عروقه فى الأرض وثبت .

هذه المعانى نقلت من حاشية إمتاع الأسماع 1/ 466 ـ 467 .

(9) انظر سبل الهدى والرشاد 5/ 650 ـ 652 وزاد المعاد 3/ 541 وحياة العرب 4/ 24 ثم قال عن الحديث غريب وبه نكارة .

القلب ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، وشر المعذرة حين يحضر الموت ، وشر الندامة يوم القيامة ، ومن الناس من يأتى الجمعة إلا دُبراً ، ومنهم من لا يذكر الله إلا هُجْراً ، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذاب ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ورأس الحكمة مخافة الله ـ عز وجل ـ ، وخير ما وقر فى القلوب اليقين ، والارتياب من الكفر ، والنياحة من أعمال الجاهلية ، والغلول من جُثى جهنم ، والسُّكْرَكة من النار ، والشعر من إبليس ، والخمر جماع الإثم ، والنساء حبالة الشيطان ، والشباب شُعْبَة من الجنون ، شر المكاسب كسب الربا ، وشر المأكل مال اليتيم، والسعيد من وعظ بغيره ، والشقى من شقى فى بطن أمه ، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع ، والأمر إلى الآخرة ، وملاك العمل خواتمه ، وشر الرؤيا رؤيا الكذب ، وكل ما هو آت قريب ، وسباب المؤمن فسوق ، وقتال المؤمن كفر ، وأكل لحمه من معصيه الله ـ عز وجل ـ ، وحرمة ماله كحرمة دمه ، ومن يتألَّ على الله يكذبه ، ومن يغفر يُغفر له ، ومن يعف يُعف عنه ، ومن يكظم الغيظ يأجره الله ، ومن يصبر على الرزية يعوضة الله ، ومن يبتغ السمعة يُسمع الله به ، ومن يصبر يضعف الله له ، ومن يعص الله يعذبه الله . اللهم اغفر لى ولأمتى ـ قالها ثلاثا ـ أستغفر الله لى ولكم »

أحكام شرعية

أحكام شرعية

أحكام شرعية

1 ـ **جواز المسح على الخفين** : فقد روى الإمام البخارى ـ رحمه الله ـ فى صحيحه بإسناده إلى المغيرة بن شعبة ـ رضى الله عنه ـ قال : ذهب النبى ـ ﷺ ـ لبعض حاجته ، فقمت أسكب عليه الماء ، لا أعلمه إلا قال فى غزوة تبوك ، فغسل وجهه وذهب يغسل ذراعيه فضاق عليه كُمّا الجبة فأخرجهما من تحت جبته فغسلهما ثم مسح على خفيه (1) .

2 ـ **مشروعية جمع الصلاتين** : روى الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ فى مسنده بإسناد صحيح إلى أبى الطفيل عامر بن واثلة أن معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ أخبره أنهم خرجوا مع رسول الله ـ ﷺ ـ عام تبوك فكان رسول الله ـ ﷺ ـ يجمع بين الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء قال : وأخر الصلاة ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعاً ، ثم دخل ثم خرج فصلى المغرب والعشاء جميعاً . (2)

3 ـ **قصر الصلاة** : فقد أقام رسول الله ـ ﷺ ـ فى تبوك عشرين ليلة يصلى ركعتين هذا ما أخرجه الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ وابن سعد فى الطبقات الكبرى عن يحيى بن أبى كثير . (3)

4 ـ **جواز إمامة المفضول بالأفضل** : فقد روى ابن سعد بسند صحيح عن المغيرة بن شعبة ـ رضى الله عنه ـ قال : لما كنا فيما بين الحجر وتبوك ذهب رسول الله ـ ﷺ ـ لحاجته ، وكان إذا ذهب أبعد ، وتبعته بماء بعد الفجر ، وفى رواية قبل الفجر ، فأسفر الناس بصلاتهم ، وهى صلاة الفجر ، حتى خافوا الشمس ، فقدموا عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ فصلى بهم ، فحملت مع رسول الله ـ ﷺ ـ أداوة فيها ماء ، وعليه جبة رومية من صوف فلما فرغ صببت عليه فغسل وجهه ، ثم أراد أن يغسل ذراعية فضاق كم الجبة ، فأخرج يديه من تحت الجبة فغسلهما ، فأهويت لأنزع خفيه ، فقال :

---

(1) صحيح الإمام البخارى متن فتح البارى 9/ 190 .

(2) الفتح الربانى 21/ 195 والسيرة النبوية لابن كثير 4/ 22 .

(3) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد 2/ 166 وشرح المواهب اللدنية 3/ 79 وحياة سيد العرب 4/ 73 .

دعهما فإننى أدخلتهما طاهرتين فمسح عليهما ، فانتهينا إلى عبد الرحمن بن عوف وقد ركع ركعة ، فسبح الناس لعبد الرحمن بن عوف حين رأوا رسول الله ـ ﷺ ـ حتى كادوا يفتنون ، فجعل عبد الرحمن يريد أن ينكص وراءه ، فأشار إليه رسول الله ـ ﷺ ـ أن اثبت ، فصلى رسول الله ـ ﷺ ـ خلف عبد الرحمن ركعة ، فلما سلم عبد الرحمن بن عوف تواثب الناس ، وقام رسول الله ـ ﷺ ـ يقضى الركعة الباقية ثم سلم بعد فراغه منها ، ثم قال : أحسنتم أو أصبتم ، فغبطهم أن صلوا الصلاة لوقتها ، إنه لم يتوف نبى حتى يؤمه رجل صالح من أمته . ورواه مسلم بنحوه (1)

5ـ مشروعية الحجر الصحى :

فقد روى الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ وغيره أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال فى غزوة تبوك : «*إذا وقع الطاعون بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها ، وإن كنتم بغيرها فلا تقدموا عليها* » . (2)

6ـ رد الصائل لاضمان فيه :

روى الإمام البخارى ـ رحمه الله ـ فى صحيحه بإسناده إلى صفوان بن يعلى بن أمية عن أبيه قال : غزوت مع النبى ـ ﷺ ـ العسرة ، قال : كان يصلى يقول : تلك الغزوة أوثق اعمالى عندى . قال عطاء فقال صفوان : قال يعلى : فكان لى أجير فقاتل إنساناً فعض أحدهما يد الآخر فنسيته ، قال : فانتزع المعضوض يده من فى العاض فانتزع إحدى ثنتيه ، فأتينا النبى ـ ﷺ ـ فأهدر ثنتيه ، قال عطاء : وحسبت أنه قال : قال النبى ـ ﷺ ـ : أفيدع يده فى فيك تقضمها كأنها فى مخمل يقضمها (3) .

---

(1) سبل الهدى والرشاد 5/ 647 ـ 648 .

(2) شرح المواهب اللدنية 3/ 79 ـ 80 .

(3) صحيح البخارى 9/ 176 .

الخاتمة

الخاتمة

الخاتمة

لقد تبين فى الصفحات الماضية مدى الحقد الصليبى على هذا الدين وأهله والسؤال الذى يطرح نفسه ونطرحه هو : هل توقف هذا الحقد الصليبى الأسود ، وهذا العداء الألد نحو هذه الشريعة السمحاء وأهلها الذين حملوا مشعل الهداية للناس ليحررهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ؟

إن عيسى ـ عليه السلام ـ رسول السلام دعا إلى المحبة والمسالمة ، فهل تقيد أتباعه بتعاليمه ، واختاروا طريق السلام والمسالمة مع المسلمين الذين اتبعوا الرسول الذى بشَّر به عيسى ـ عليه السلام ـ.

إن أحداث التاريخ ووقائعه تنبئنا أن الحقد الصليبى لم يفتر لحظة واحدة من اللحظات فى صدور أهله ، وإن العداوة تزداد ضراوتها يوماً بعد يوم وتتعاظم الأحقاد جيلاً بعد جيل فى نفوس الصليبيين نحو المسلمين ، إنهم على اختلاف مللهم ونحلهم يجتمعون على عدو واحد مشترك هو الإسلام والمسلمون ، وهم يعملون ليل نهار لاجتثاثهما من الوجود .

لقد وقف بطاركة النصارى ورجال الدين النصرانى فى معركة اليرموك يرفعون صلبانهم ، ويشحنون همم المقاتلين بالروح الصليبية الحاقدة لقتال المسلمين الذين جاءوا يحررونهم من استعباد الروم ، ولكن الحق أبلج ، وأهل الحق أقوياء بحقهم، قد حطموا تلك الموجات المتعاقبة من الحقد على صخرة الإسلام الشامخة الصلبة العاتية ، فكبت هؤلاء الحاقدين وهزمهم شر هزيمة ، إذ قتل قادتهم وولوا مدبرين .

وفى عهد الدولة الأموية يخبرنا التاريخ أن نفراً من النصارى الذين عاشوا فى كنف المسلمين يجتمعون عند يوحنا الدمشقى الصليبى الحاقد للكيد ضد هذا الدين والتشكيك فيه بإثارة الشبهات وتأويل الآيات القرآنية تأويلاً خاطئاً للاستدلال على ألوهية عيسى ـ عليه السلام ـ.

وبعد قرون قامت الحروب الصليبية التى جمعت النصارى على اختلاف فرقهم

وكنائسهم ومذاهبهم ليكونوا صفاً واحداً فى وجه المسلمين ، نعم لقد تناسى أباطرة القسطنطينية مابينهم وبين الغرب الأوروبى والبابوية فى روما من اختلافات مذهبية ومشكلات سياسية واجتمعوا على كلمة واحدة هى محاربة المسلمين .

ففى 26 / 11 / 1095م ويقابله 488هـ وقف بابا روما أربان الثانى يعلن بدء الحرب الصليبية وكان مما قاله : بأمر الله تتوقف العمليات الحربية بين المسيحيين فى أوروبا ، ويتجه هؤلاء بأسلحتهم إلى هزيمة الكفرة (يعنى المسلمين) .

لقد كنتم تحاولون من غير جدوى إثارة نيران الحروب والفتن فيما بينكم ، فالآن اذهبوا وأزعجوا البرابرة وخلصوا البلاد المقدسة من أيدى الكفار وامتلكوها لأنفسكم فإنها كما تقول التوراة : تفيض لبناً وعسلاً . (1)

وحينما أنهى البابا خطابه هذا فى مدينة كليرمونت بفرنسا صاح جميع الحاضرين صيحتهم المشهورة مرددين هذه العبارة : هذه هى إرادة الله (2)

لقد شنت أوروبا والعالم الصليبى حملات عسكرية فكيف كانت معاملة أهل هذه الحملات وقادتها للمسلمين فى بلادهم ، لقد ارتكبت من الجرائم البشعة والأفعال القبيحة ماتشمئز له الطباع السليمة ، وتنفر منه أصحاب النفوس الأبية ، وتتقزز منه الضمائر الحية .

من أفعالهم فى بيت المقدس:

1 ـ لقد حدثنا كاتب فرنسى نصرانى عن بعض أفعالهم فى بيت المقدس هو غوستاف لوبون فقال : (فقد قال كاهن مدينة لوبوى ريموند داجيل : حدث ماهو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار بيت المقدس وبروجها ، فقد قطعت رؤوس بعضهم ، فكان هذا أقل مايمكن أن يصيبهم ، وبقرت بطون بعضهم ، فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار ، وحرق بعضهم فى النار ، فكان ذلك بعد عذاب طويل وكان لايرى فى شوارع القدس سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم ، فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم ، ولكن هذا لم يكن سوى بعض مانالوه)(3)

---

(1) جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية ص 95.

(2) المرجع السابق ص 95 وانظر حضارة العرب ص 322 فقد جاءت العبارة التالية : الرب يريد ذلك .

(3) حضارة العرب 326.

2ـ وجاء في كتاب حضارة العرب : (وروى ذلك الكاهن الحليم خبر ذبح عشرة آلاف مسلم في مسجد عمر ، فعرض الوصف اللطيف الآتي : لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان ، وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهنالك ، وكانت الأيدي والأذرع المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها ، فإذا مااتصلت ذراع بجسم لم يعرف أصلها ، وكان الجنود الذين أحدثوا تلك الملحمة لايطيقون رائحة البخار المنبعثة من ذلك إلا بمشقة .

ولم يكتف الفرسان الصليبيون الأتقياء بذلك ، فعقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس ، فأفنوهم ولم يستثنوا منهم امرأة ولاولداً ولاشيخاً) (1)

3ـ وجاء في حضارة العرب النص التالي : (وأراد الصليبيون أن يستريحوا من عناء تذبيح أهل القدس قاطبة ، فانهمكوا في كل مايستقذره الإنسان ، من ضروب السكر والعربدة واغتاظ مؤرخوالنصارى أنفسهم من سلوك حماة النصرانية مع إنصاف هؤلاء المؤرخين بروح الإغضاء والتساهل ، فنعتهم برنارد الخازن بالمجانين و شبههم بودان بالفروس التي تتمرغ في الأقذار) (2)

4ـ جاء في النجوم الزاهرة : وهرب الناس إلى الصخرة والأقصى ، واجتمعوا بها فهجموا عليهم وقتلوا في الحرم مائة ألف ، وسبوا مثلهم ، وقتلوا الشيوخ والعجائز ، وأخذوا من الصخرة والأقصى سبعين قنديلاً . . وأخذوا من الأموال مالا يحصى . (3)

هذا وقد ذكر ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ أن الصليبيين قد قتلوا من في القدس من العلماء والأئمة والعباد والزهاد الذين جاءوا إلى القدس مجاورين . (4)

أفعالهم في مدينة مارات الإسلامية:

قال في حضارة العرب : (ونرى في كل صفحة من الكتب التي ألفها مؤرخو النصارى في ذلك الزمن براهين على توحش الصليبيين ، ويكفي لبيان ذلك أن ننقل

(1) حضارة العرب 326ـ 327 .

(2) حضارة العرب ص 327 .

(3) انظر : النجوم الزاهرة 5/ 149 .

(4) انظر : الكامل في التاريخ 10/ 283ـ 284 .

الخبر الذى رواه الشاهد الراهب روبرت عن سلوك الصليبيين فى مدينة مارات للدلالة على سياسة الصليبيين الحربية ، قال المؤرخ الراهب التقى روبرت : وكان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل ، وذلك كاللبؤات التى خطفت صغارها ، وكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ ، ويقطعونهم إرباً إرباً . وكانوا لايستبقون إنساناً ، وكانوا يشنقون أناساً كثيرين بحبل واحد بغية السرعة ، فياللعجب ويالغرابة أن تذبح تلك الجماعة الكبيرة المسلحة بأمضى سلاح من غير أن تقاوم ! وكان قومنا يقبضون على كل شىء يجدونه ، فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعاً ذهبية ، فياللشره وحب الذهب ! وكانت الدماء تسيل كالأنهار فى طرق المدينة المغطاة بالجثث ولم يكن بين تلك الجماعة الكبرى واحد ليرضى بالنصرانية ديناً ، ثم أحضر بوهيموند جميع الذين اعتقلهم فى برج القصر ، وأمر بضرب رقاب عجائزهم وشيوخهم وضعافهم ، وبسوق فتيانهم وكهولهم إلى أنطاكية لكى يباعوا فيها (1)

ماارتكبوه من جرائم بحق أهل أنطاكية : (2)

لقد تواطأ الروم مع أهل لوقا النصارى على أن يرحلوا إلى أنطاكية حتى إذا استقروا بها وهاجمها الروم الصليبيون أعانهم النصارى الذين هاجروا إليها ، وبعد شهرين هاجم الصليبيون انطاكية وحاصروها ، واستجاب أهل لوقا لما تواطأوا عليه مما كان سبباً فى سقوط أنطاكية بيد الصليبيين فوضعوا فيهم السيف ، ثم أخرجوا المشايخ والعجائز والأطفال من البلد ، وقالوا لهم : اذهبوا حيث شئتم ، فأخذوا الشباب من الرجال ، والنساء والصبيان ، والصبايا ، فحملوهم إلى بلاد الروم سبياً ، وكانوا يزيدون على عشرين ألف إنسان .

ماارتكبوه فى المدينة الإسلامية عين زربة : (3)

لقد هاجم قائد الروم هذه المدينة فطلب أهلها منه الأمان فأمنهم ، ففتحوا له باب المدينة ، فدخلها ، فندم على إجابتهم إلى الإمان ، ونادى فى البلد - أول الليل - بأن

(1) حضارة العرب 325 .

(2) انظر : الكامل فى لتاريخ 8 / 603 .

(3) انظر : الكامل فى التاريخ 8 / 538 - 539 .

يخرج جميع أهله إلى المسجد الجامع ، ومن تأخر فى منزله قتل ، فخرج من أمكنه الخروج ، فلما أصبح أنفذ رجاله فى المدينة ، وكانوا ستين الفاً ، وأمرهم بقتل من وجدوه فى منزله ، فقتلوا خلقاً كثيراً من الرجال والنساء والصبيان ، وأمر بجمع مافى البلد من السلاح ، وأمر من فى المسجد بأن يخرجوا من البلد حيث شاءوا يومهم ذلك ، ومن أمسى قتل ، فخرجوا مزدحمين فمات بالزحمة جماعة ، وقتل الروم من وجدوه بالمدينة آخر النهار ، وأخذوا كل ماخلفوه الناس من أموالهم وأمتعتهم ، وهدوا سور المدينة .

وأقام قائد الروم فى هذه المدينة واحداً وعشرين يوماً ، وفتح حصوناً عديدة حولها ، بعضها بالسيف وبعضها بالأمان ، وكان حصن من تلك الحصون التى فتحت بالأمان قد أمر أهله بالخروج منه فخرجوا ، فتعرض بعض الأرمن لبعض حرم المسلمين ، فلحق المسلمين غيرة عظيمة ، فجردوا سيوفهم ، فاعتاظ القائد الصليبي لذلك ، فأمر بقتل جميع المسلمين وكانوا أربعمائة رجل ، وقتل النساء والصبيان ولم يترك إلا من يصلح أن يسترق .

ماقترفه ريكاردوس قلب الأسد ملك انجلترا من جرائم : (1)

كان ريكاردوس ملك انجلترا هو القائد الأعلى للحملة الصليبية الثالثة ولقد اقترف جرائم وحشية قبيحة ، إذ كان أول مابدأ به ريكاردوس أن قتل أمام معسكر المسلمين ثلاثة آلاف أسير مسلم سلموا أنفسهم إليه ، بعدما قطع لهم عهداً بحقن دمائهم ، ثم أطلق لنفسه العنان فى اقتراف أعمال القتل والسلب ، هذا ماذكره نصرانى فرنسى فى كتابه حضارة العرب ، ولو كان من عند غيره لرمى بالكذب أو على الأقل بالمبالغة .

هذا وجريمة الاعتداء على حياة الأسرى ليست وحيدة فى تاريخ الصليبيين فكتب التاريخ تخبرنا أن الصليبيين حينما احتلوا عكا للمرة الثانية أحضروا أسارى المسلمين أمام خيامهم ، وحملوا عليهم حملة واحدة فقتلوهم جميعاً(2)

(1) حضارة العرب 330.

(2) انظر : جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية ص 91.

أفعال الصليبيين فى الأندلس:

جاء فى كتاب حضارة العرب لجوستاف لوبون قوله :

وكان تعميد العرب كرهاً فاتحة ذلك الدور ، ثم صارت محاكم التفتيش تأمر بحرق الكثيرين ، ولم تتم عملية التطهير بالنار إلا بالتدريج لتعذر حرق الملايين من العرب دفعة واحدة ، ونصح كردينال طليطلة التقي الذى كان رئيساً لمحاكم التفتيش بقطع رؤوس جميع من لم يتنصر من العرب رجالاً ونساءً وشيوخاً وولداناً . . .

وقررت أسبانيا تهجير العرب عن أسبانيا فقتل أكثر مهاجرى العرب فى الطريق، فأبدى ذلك الراهب بيلدا ارتياحه لقتل ثلاثة أرباع أولئك المهاجرين فى أثناء هجرتهم ، وهو الذى قتل مائة ألف مهاجر من قافلة واحدة كانت مؤلفة من مائة وأربعين ألف مهاجر مسلم (140000) . حينما كانت متجهة إلى أفريقيا ، وخسرت أسبانيا بذلك مليون مسلم من رعاياها فى بضعة أشهر ، ويقدر كثير من العلماء ومنهم سيديو عدد المسلمين الذين خسرتهم أسبانيا منذ أن فتح فرديناد غرناطة حتى اجلائهم الأخير بثلاثة ملايين ، ولانعد ملحمة سان بارتلمى إزاء تلك المذابح سوى حادث تافه لايؤبه له ، ولايسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين من يؤاخذ على اقترافه مظالم قتل كتلك التى اقترفت ضد المسلمين .

ومما يرثى له أن حرمت أسبانيا عمداً هؤلاء الملايين الثلاثة الذين كانت لهم إمامة السكان الثقافية والصناعية [1]

ومما يجدر ذكره أنه يتوهم بعض الناس أن الحملات الصليبية كانت تهدف فقط الاستيلاء على القدس وماحولها ومافيها من مقدسات وهذا التوهم منقوض بتصرفات الصليبيين أنفسهم وبأهدافهم التوسعية التى شملت فلسطين والأردن ومصر والشام ولبنان ، بل لقد وجهوا حملة صليبية لاحتلال الحجاز والاستيلاء على المدينة المنورة وعلى قبر رسول الله ـ ﷺ ـ .

ففى سنة 578 هـ/ 1162 م قصد الفرنج بلاد الحجاز وأنشأ البرنس أرناط صاحب

(1) انظر : حضارة العرب ص 270 ـ 272 .

الكرك سفناً وحملها على البر إلى بحر القلزم (السويس) وأركب فيها الرجال وأوقف منها مركبين على حرزة قلعة القلزم لمنع أهلها من استقاء الماء ، وسارت البقية نحو عيذاب ، فقتلوا وأسروا وأحرقوا فى بحر القلزم نحو ستة عشر مركبا ، وأخذوا بعيذاب مركباً يأتى بالحجاج من جدة ، وأخذوا فى الأسر قافلة كبيرة من الحجاج فيما بين قوص ، وعيذاب ، وقتلوا الجميع ، وأخذوا مركبين فيهما بضائع جاءت من اليمن ، وأخذوا أطعمة كثيرة من الساحل ، كانت معدة لميرة الحرمين ، وأحدثوا حوادث لم يسمع فى الإسلام بمثلها ، ولا وصل قبلهم رومى إلى ذلك الموضع ، فإنه لم يبق بينهم وبين المدينة سوى مسيرة يوم واحد ومضوا إلى الحجاز يريدون المدينة النبوية فجهز الملك العادل حملة طاردت وقضت عليهم وفكت الأسرى من المسلمين الذين كانوا تحت أيديهم (1)

نعم إن الحروب الصليبية قامت على أساس الحقد والكره والعداوة الشديدة للمسلمين ، ومن ثم للقضاء عليهم وتدميرهم ، وهذا ماصرح به غاردنر إذ قال : لقد خاب الصليبيون فى انتزاع القدس من أيدى المسلمين ليقيموا دولة مسيحية فى قلب العالم الإسلامى . . . والحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ هذه المدينة بقدر ماكانت لتدمير الإسلام . (2)

ولقد أكد هذا من قبل الملك لويس التاسع فى رسالته التى وجهها إلى السلطان الصالح ، فقد جاء فيها : « أما بعد فإنه لم يخف عنك أنى أمين الأمة العيسوية ، كما أنى أقول : إنك أمين الأمة المحمدية ، وأنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ، ونستأثر البنات والصبيان ، ونخلى منهم الديار ، وقد أبديت لك مافيه الكفاية ، وبذلك النصح إلى النهاية ، فلو حلفت لى بكل الأيمان ، ودخلت على القسوس والرهبان وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان ، ماردنى ذلك عن الوصول إليك ، وقتالك فى أعز البقاع عليك ، فإن كانت البلاد لى ، فياهدية حصلت فى يدى ، وإن كانت البلاد لك والغلبة على ، فيدك العليا ممتدة إلىَّ ، وقد عرفتك وحذرتك من

---

(1) انظر : جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية 90 ـ 91 نقلاً عن كتاب المقريزى (السلوك لمعرفة دول الملوك) 1/ 78 ـ 79.

(2) التبشير والاستعمار فى البلاد العربية ص 115 .

عساكر قد حضرت فى طاعتى ، تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا» (1)

وعلى الرغم من تلك الحملات الصليبية العاتية الشرسة على المسلمين فى الشرق فقد كانت نهايتها إلى الفشل ، وعاد الصليبيون إلى أوروبا يجرون أذيال الهزيمة ، وطهر المسلمون كل بلادهم ومقدساتهم من دنسهم ، ونعمت بعد ذلك بلاد المسلمين بالاستقرار والأمن والأمان والسلامة والإسلام .

ولكن العالم الصليبى لم تخمد جذوة الحقد فى نفسه نحو المسلمين ، بل ظلت نار الحقد تأكل قلوب الصليبيين فى الغرب والشرق وينتظرون الفرصة السانحة للثأر والانتقام .

ومما يجدر ذكره أن العالم الإسلامى وبخاصة بلاد الشام والعراق تعرضوا إلى غزو تترى عات كالجراد فى كثرته وهلكته ، فاجتاح العراق وبلاد الشام فماذا كان موقف النصارى فى بلاد المسلمين ، وكيف كان شعورهم عند استيلاء التتار على بلاد المسلمين وقد عاشوا فى ديار المسلمين وفى حمايتهم قروناً عديدة؟

ويخبرنا عن موقفهم القبيح مؤرخ من المؤرخين الأفذاذ هو ابن تغرى بردى الأتابكى فى كتابه(النجوم الزاهرة فى تاريخ ملوك مصر والقاهرة) ، قال ـ رحمه الله ـ : (وكان النصارى بدمشق قد شمخوا وتجرأوا على المسلمين واستطالوا بتردد التتار إلى كنائسهم، وذهب بعضهم إلى هولاكو وجاءوا من عنده بفرمان يتضمن الوصية بهم ، والاعتناء بأمرهم ، ودخلوا بالفرمان من باب توما وصلبانهم مرتفعة ، وهم ينادون بارتفاع دينهم، واتضاع دين المسلمين ، ويرشون الخمر على الناس ،وفى أبواب المساجد، فحصل عند المسلمين هم عظيم . . . . .

وكانت النصارى فى تلك الأيام ألزموا المسلمين بالقيام فى دكاكينهم للصليب ، ومن لم يقم أحدقوا به وأهانوه ، وشقوا السوق على هذا الوجه إلى عند القنطرة آخر سويقة كنيسة مريم . . . فقام بعضهم فخطب وفضل دين النصارى ووضع من دين

(1) انظر : كتاب الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين فى العصر الأيوبى 367 ـ 368.

الإسلام ، وقابل المسلمون التتار بقلعة دمشق فأهانهم التتار ، ورفعوا قسيس النصارى عليهم ، ثم أخرجوهم بالضرب ، فصار ذلك كله فى قلوب المسلمين [1])

لقد ظهر بعض مافى قلوب النصارى من حقد نحو المسلمين فتعاطفوا مع التتار الفاتحين المدمرين لبلاد المسلمين الذين سفكوا فى بغداد دماء مليونى مسلم كما ذكر غير واحد من المؤرخين [2] . لقد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفى صدورهم أكبر .

جرائمهم البشعة فى عهد الاستعمار الصليبى فى العصر الحديث :

إن التاريخ الحديث يخبرنا أن سماحة صلاح الدين فى مواجهة الصليبيين وعفوه عنهم لم تؤثر فيهم ولا فى ذراريهم ولم تذهب سخائم صدورهم ، بل زادتهم حقداً على حقدهم وشراسة إلى شراستهم ، فارتكبوا من الجرائم والأفعال الوحشية مايندى له جبين الإنسانية .

فى عهد الاستعمار الأوروبى الصليبى فى العصر الحديث .

ماذا فعلت بريطانيا الصليبية وحليفة العرب فى فلسطين وفى غير فلسطين ؟

ماذا فعلت فرنسا الصليبية فى سوريا والجزائر؟

ماذا فعلت إيطاليا الصليبية فى ليبيا؟

وماجرائم أمريكا الصليبية فى بلاد المسلمين ؟

وإليك بعض هذه الجرائم التى ارتكبت بحق المسلمين :

جرائم بريطانيا الصليبية فى فلسطين:

إن الذى يقرأ تصريحات الزعماء البريطانيين فى هذه الفترة يدرك مدى الحقد الصليبى الذى بلغ أوجه فى كره المسلمين والكيد ضدهم ، فهاهو ذا غلا دستون يقول فى مجلس العموم البريطانى : إذا أردتم أن تستعمروا الشرق فانزعوا هذا الكتاب من نفوسهم ، وقادة الغرب يقولون : دمروا الإسلام وأبيدوا أهله ، وحينما دخل القائد

(1) انظر: النجوم الزاهرة 7/ 80 ـ 81.

(2) انظر : البداية والنهاية 13 / 201 ـ 203.

البريطانى الصليبى اللنبى إلى القدس لم يخف حقده الصليبى وهو فى قمة النصر يقول مزهواً : الآن انتهت الحروب الصليبية .

وفى 2/ 11 / 1917 أصدر وزير الخارجية البريطانى بلفور وعده لليهود بإنشاء وطن قومى على أرض فلسطين المقدسة ، ولقد كان هذا الوعد مخططاً له من سدنة الصليبية ودعاتها البريطانيين الحاقدين على الإسلام وأهله ، لأنهم يرون فى قيام دولة لليهود على أرض فلسطين الإسلامية يخدم مصلحتهم ويشفى صدورهم الحاقدة ، فقد جاء فى مذكرات تشرشل وزير المستعمرات البريطانى ورئيس وزراء بريطانيا بعد ذلك قوله : إذا أتيح لنا فى حياتنا ، وهو ماسيقع حتماً ، أن نشهد دولة يهودية ، لافى فلسطين وحدها ، بل على ضفتى نهر الأردن ، تقع تحت حماية التاج البريطانى ، وتضم من 3 ـ 4 ملايين من اليهود فإننا سنشهد حادثاً يتفق تمام الاتفاق مع المصالح الحيوية للإمبراطورية البريطانية) (1)

وحتى تنفذ بريطانيا الصليبية وعدها الذى أعطته لليهود عينت مندوباً سامياً ـ هو الحاكم الفعلى لفلسطين ـ وكان هذا يهودياً اسمه هيربرت صموئيل ، فقام بوضع خطة لتحقيق الوعد ، وتنفيذ الوسائل الكفيلة بذلك ، وكان من أهم الإجراءات التى اتخذها المندوبون الساميون البريطانيون سواء كانوا يهوداً أو صليبيين مايلى : (2)

1 ـ تشجيع الهجرة اليهودية من شتى بقاع الدنيا إلى فلسطين ، وذلك بسن قانون يسمى قانون الهجرة .

2 ـ تشجيع شراء الأراضى الفلسطينية لصالح اليهود .

3 ـ الاستيلاء على الأراضى الفلسطينية بالقوة وتمليكها لليهود .

4 ـ عزل الفلسطينيين عن العرب لإذابتهم والقضاء عليهم .

5 ـ تدريب اليهود على السلاح وتيسير سبل الحصول عليه ، بل وتزويدهم به .

6 ـ منع أهالى البلاد من اقتناء السلاح للدفاع عن أنفسهم وأرضهم وممتلكاتهم ،

---

(1) انظر : اليهود فى الوطن العربى ص 20 .

(2) انظر : كتاب شهداء فلسطين 51 .

وإيقاع العقوبات القاسية جداً على الذين يملكون السلاح ، وكانت هذه العقوبات تصل إلى الإعدام .

7ـ فرض الضرائب المالية الباهظة على أهل البلاد .

8ـ فرض الغرامات المالية على كثير من القرى لإذلالها .

9ـ تهويد أجهزة الحكم فى فلسطين .

10ـ إخضاع المدارس العربية لإشراف المفتشين الإنجليز لإفسادها ، بينما أطلق لليهود حرية التعليم واستقلال المدارس ، بعد أن قررت اللغة العبرية لغة رسمية مع اللغة الإنجليزية والعربية فى فلسطين .

11ـ إخضاع اقتصاد فلسطين لليهود : فقد عمدت السلطات البريطانية على تشجيع الصناعات اليهودية وحمايتها ، ولكن على حساب مصلحة العرب المسلمين ، وذلك بزيادةالرسوم الجمركية على الواردات لوقاية منتجات الصناعة اليهودية ، أو بإلغاء الرسوم أو تخفيضها عن المواد التى تحتاج إليها الصناعة اليهودية ، والمثال على ذلك ماصنعته فى سبيل معمل الأسمنت اليهودى (نيشر) فقد رفعت ضريبة الجمرك على الأسمنت المستورد أربعة أضعاف ونصف ماكانت عليه قبل تأسيس المعمل اليهودى ، حتى يظل الأسمنت اليهودى وحده سيداً فى السوق .

ولقد أعطت امتياز استخراج أملاح البحر الميت ومعادنه إلى يهوديين لمدة خمس وسبعين سنة تبدأ من سنة 1930 ، ومنح الامتياز الشركة اليهودية التى أخذت الامتياز مساحات شاسعة من الأراضى على حدود البحر الميت .

وفى أيلول سبتمبر 1921 منحت حكومة صموئيل روتمبرغ اليهودى امتيازاً لتوليد التيار الكهربائى مدته سبعون سنة .

موقف بريطانيا الصليبية من شعب فلسطين الذى قاوم هذه السياسة الغاشمة:

لقد أدرك الشعب الفلسطينى تآمر بريطانيا الصليبية وخيانتها وغدرها تجاه حقوقه فى بلاده ، وسيرها الحثيث لإقامة الوطن القومى للشعب اليهودى على أرض فلسطين المباركة المقدسة فمارس حقه الطبيعى فى الإنكار بعقد المؤتمرات واتخاذ القرارات التى

تحفظ له أرضه ومقدساته ، ولكن بريطانيا أصرت على موقفها في إقامة الوطن القومى لليهود وأنكرت على أهل البلاد مطلبهم فى وضع دستور يحفظ استقلالهم والمحافظة على أرضهم ، على لسان وزير المستعمرات البريطانية المستر ونستون تشرشل فقال : (إن الحكومة البريطانية لاتسمح بوضع دستور يحول دون تنفيذ وعد بلفور ، ولاتوافق على تأليف حكومة وطنية مستقلة فى هذه المرحلة ؛ لأن ذلك يحول دون الإيفاء بعهدها للشعب اليهودى)[1] وقامت بريطانيا بوضع دستور فرضته على الشعب الفلسطينى فرضاً وهو يحقق مصالح اليهود ويتعارض مع مصالح أهل فلسطين .

وأمام هذه التصرفات البريطانية القاضية بتهويد فلسطين عبر الشعب الفلسطينى عن استيائه من خلال مظاهرات يطالب فيها بإلغاء الانتداب البريطانى وإلغاء وعد بلفور فقاومت السلطات البريطانية هذه الاحتجاجات بشراسة وعنف وكان ضحية هذا الأسلوب الإجرامى سقوط آلاف الشهداء والجرحى ، وإقامة المحاكمات الصورية الظالمة ضد الشعب الفلسطينى المسلم لقهره وإذلاله واستسلامه أمام جلاديه والمتآمرين عليه .

فهل تراجعت بريطانيا أمام هذه المظاهرات أو على الأقل خففت من غلوائها فى إقامة الوطن القومى لليهود على أرض فلسطين ، وشعرت بخطئها فى إعطاء وعد بلفور ، لقد كان الأمر على العكس من ذلك تماماً ، فقد وقف وزير المستعمرات البريطانية سنة 1935 فى حفل صهيونى فى لندن يقول : (إنى فرح جداً لأن اقتراح هجرة اليهود إلى كينيا قد أخفق ، وبصفتى وزيرالمستعمرات أشكر الذين رفضوا اقتراح كينيا ، فنبوءة وايزمان قد تحققت ، وعاد اليهود إلى بلادهم ، ولو لم يعط وعد بلفور منذ ثمانى عشرة سنة لأعطيناه اليوم [2]

ولقد أيقن الشعب الفلسطينى أن أساليب المؤتمرات والاحتجاجات وحدها لاتكفى فقد قرر الدفاع عن مصيره واستقراره فى بلده بالقوة ، فواجهت بريطانيا الصليبية ذلك بأقسى أساليب البطش والتنكيل والقهر والتدمير وفق أساليب وحشية بربرية تشيب لهولها الولدان وتقشعر لذكرها الأبدان .

(1) انظر : القضية الفلسطنية لأكرم زعيتر ص 72 .

(2) انظر : جهاد شعب فلسطين 209 ـ 210 .

لقد مارست سلطات الاحتلال البريطاني جميع الوسائل لإيقاف مقاومة هذا الشعب في ثورته 1936 ــ 1939 فحشدت خمسين ألف جندي بريطاني ، وشكلت المحاكم العسكرية التي حولها قانون الطوارئ أن تحكم بالإعدام على كل من أطلق رصاصة على يهودي محارب أو جندي بريطاني محتل ، ولو لم تصب هذه الرصاصة أحداً ، بل على كل من حمل رصاصة أو قطعة سلاح حتى بلغ الذين أعدموا في سجن عكا شنقاً في هذه الفترة الوجيزة 148 شهيداً ، وقد بلغ عدد المحكوم عليهم بالمؤبد أكثر من ألفين من الشباب والنساء ، وتعمدت السلطات الصليبية هدم المنازل ونسف البيوت انتقاماً حتى نسفت أكثر من خمسة آلاف بيت ، ليعيش أهلها بدون مأوى يتعرضون لبرد الشتاء وحر الصيف ، وكان يوافق هذا تعذيب شديد ، كالكي بالنار ، وقلع الأظافر ، وإشعال النار بلحى المجاهدين وشواربهم ، وتسليط الكلاب الجائعة عليهم لنهش لحومهم ، وبلغ عدد من اعتقل خمسين ألفاً .

وكانت القوات البريطانية إذا شكت في أهل قرية أنهم آووا مجاهداً ، تجمع رجالها في العراء ، ثم ينتقي الضابط البريطاني منهم عدة شباب ، ويطلق عليهم النار على مشهد من سكان القرية العزل ، وقد جاوز عدد الشهداء ثلاثة آلاف ، كما جاوز عدد الجرحى سبعة آلاف (1)

لقد حدث لأهل فلسطين مآسي كثيرة على يد قوات الاحتلال البريطاني الصليبية ، ومن هذه المآسي الدامية مأساة حلحول ، هذه المأساة التي ارتكبت بريطانيا فيها من الأعمال الوحشية البربرية مايتعذر تصوره عقل عاقل لفظاعته وبشاعته وشناعته ويصف لنا هذه المأساة الأستاذ عمر عناني الذي عاصرها وعايشها فيقول : (2)

في أوائل الشهر الخامس من سنة 1939 ، طوقت فرقة (البلاك واتش) البريطانية بقيادة اللورد دوغلاس ، وعلى ماأظن أن هذا اللورد هو دوغلاس رئيس الوزارة البريطانية فيما بعد ففي الساعات الأولى من الصباح المبكر طوقت فرقة(البلاك واتش) الإنكليزية قرية حلحول وجمعوا كل من لم يسعده الحظ ولم يتمكن من الخلاص من

(1) انظر : (القضية الفلسطينية) لأكرم زعيتر 125 .

(2) انظر : كتاب (بين الجد والهزل) 26 ـ 31 و(شهداء فلسطين) 136 ـ 139 .

الطوق على قمة جبل المدرسة ، وأحاطوا المكان بأسلاك قوية من السلك الشائك ، والسلك المغطس ، وألقوا بهؤلاء التعساء فى العراء تحت أشعة الشمس المحرقة ، ولم يقدموا لهم أى نوع من أنواع الطعام أو الشراب سوى مقدار فنجان قهوة من الماء وكان من ضمن المكان جزء من كرم عنب يخص عبد الرزاق العنانى ، واحتمل الرجال بلاء اليوم الأول والثانى والثالث ، ومنع الناس من دخول القرية ، أو الخروج منها وأكل المعتقلون فى اليوم الرابع أوراق الكرم ، وفى اليوم الخامس ابتدأوا يأكلون أعواده الطرية ، ومازالوا به حتى أتوا على جذوره ، وكان كل مايعلم من أمرهم صياحهم وعويلهم على مسافات بعيدة ، وفى اليوم السابع أخذ الموت ينتقى منهم من فقد الاحتمال ، وكان اللورد دوغلاس زيادة فى النكاية بهم يترك الشهيد بين رفاقه يقاسى سكرات الموت حتى تصعد روحه إلى بارئها تشكو ظلم الإنكليز ووحشيتهم ولايزال ملقى فى العراء حتى ينتفخ وتتورم أطرافه وترتفع يداه ورجلاه إلى السماء ، فى دعاء وابتهال إلى الله القدير أن ينتقم ممن ظلموهم ، ويمثل بمن مثل بهم ، وتتصاعد منه روائح تزيد المصائب على الذين لايزالون منهم على قيد الحياة ، وهكذا مضت قوافل الشهداء حتى بلغ عددهم سبعة عشر شهيداً ، وانخلع لب أحدهم ـ محمد حمدة ـ وقد هاله المنظر الرهيب ، والمصير المرتقب المشؤوم وقال للورد دوغلاس : « ماذا تبغون منا بهذا الاعتقال ؟» ، قال : « أن تسلموا أسلحتكم وتدلونا على مخازن السلاح للثوار ، فأجاب محمد حمدة وشبح الموت يرتسم أمام عينيه ، أستطيع أن آتيكم ببندقيتى فاقتاده الإنكليز إلى حيث أخرج بندقيته من مخبئها وسلمها لدوغلاس ، وعندها أقام له دوغلاس منصة عالية فى وسط المعتقل ، ووقاه من حر الشمس بعريش من الحطب ، ووضع أمامه منضدة ، ملأ سطحها بالمياه المثلجة ، والفواكة الطازجة ، والأطعمة الشهية ، وأحاطوه بالجنود المدججين بالسلاح ، يحمونه من هجوم العطشى والجائعين والذين كانت قواهم قد انهارت ، وكانت أقل وخزة من طرف أصبع الجندى تكفى لأن تؤدى به إلى الكومة التى يثوى بها رفاقه أمامه ، ووجده الدانون من زائدة الموت من هؤلاء البؤساء فرصة سانحة يبيعون بها أرواحهم فى سبيل شربة ماء وقاموا يتسللون واحداً واحداً بحراسهم ، يأخذونهم إلى مخابئ أسلحتهم التى لم يكن لها ظل من الحقيقة ، وكان أول هؤلاء وأذكاهم حمودة الأطرش الذى قادهم إلى مغارة ، زعم لحراسه أن مخزن الأسلحة

مخبوء فيها ولم تكن تلك المغارة إلا بركة ماء مخيفة فدخلها قبلهم ، وألقى بنفسه فى البركة وشرب حتى صار بطنه كالقربة ، ثم خرج من الماء وقال لهم : أما وقد ارتويت فهيا اقتلونى فإنى لا أملك سلاحاً ، فطرحوه أرضاً ووطئوه بأقدامهم ، والماء يخرج من فمه ومنخره كالفوارة ، حتى غاب عن الوجود وحملوه على اعتقاد أنه فارق الحياة وألقوا به فوق من سبقه من الشهداء ، وتحسس رفاقه ثيابه ، فإذا بها مبتلة ، فهجموا عليه يمزقون ثيابه ، مزعة مزعة ، يضعون هذه المزع فى أفواههم يخففون برطوبتها حرارة العطش فأفاق حمودة على الناس وهم يجذبونه يمنه ويسره ، وقد حدث أن الشيخ إسحق العنانى قد نال من ثوب حمودة خرقة كان يمتصها ، فانقض عليه أحدهم يجذبها منه ، وهو قابض عليها بنواجذه ، ومازال الرجل يجذب حتى انتزع ثناياه مع الخرقة ، ونهض محمد نوفل الواوى وقال : أنا آتيكم ببندقية ، وهو من ذوى عاهات ثورة سنة 1929 ، حيث بترت ساقه ، ومشى معهم قليلاً ولما صار بقرب مسجد القرية ، ارتمى على الأرض فأنهضه زبانية الإنكليز ، فأشار لهم إلى ساقه المبتورة وأنه لايستطيع المشى إلا بعد أن يشرب فأحضروا له إبريقاً ، وثانياً وثالثاً ورابعاً ثم وقع مغشياً عليه ومازالوا به يركلونه بأقدامهم ، حتى أفاق وسألوه عن البندقية ، وقال لهم : « إنكم لمجانين ، وماذا يعمل رجل مثلى بالبندقية ؟ » وعندها أشبعوه ضرباً ولكماً حتى ألقى بجميع الماء الذى شربه ، ولما عادوا إلى القائد يخبرونه بحيلة محمد نوفل ، أعطاهم اللورد أمره بأن يقتلوا كل من يرافقهم ويكذب عليهم ، وكان أول هذه الضحايا ولدا سليمان نوفل اللذان أخذا معهما أربعة حراس ولما صارا بقرب بئر ماء ألقيا بنفسيهما إلى داخلها فأطلقوا عليهما النار وقتلوهما داخل البئر ، وعندها انتخب المعتقلون منهم وفداً على رأسه الحاج حسين العنانى ، وتوجهوا إلى اللورد اللعين وقالوا له : « ألا ترى أننا نموت واحداً إثر الآخر ، فهل من المعقول أن يموت الإنسان وعنده بندقية ثم لايسلمها ويشترى روحه ؟ إنك تفعل بنا هنا الأفاعيل لكن هل أحد من أهل القرية خارج القرية يعلم بالحال التى نحن عليها ؟ فأمامك أمران أولهما : أن تطلق علينا النار وبذلك تعمل معنا معروفاً وتريحنا من هذا العذاب الموت البطىء ، والأمر الثانى : أن تطلق بعضنا يخرج من المعتقل ليخبر الناس بما حل بنا ، وبذلك يفتدوننا بكل غال ورخيص » .

وقال : ومن يضمن أن الذى يخرج منكم يعود ، فقال له الحاج حسين : كم عدد

البنادق التى تطلبها من قرية حلحول ؟ قال اللورد الملعون : ستاً وثلاثين بندقية ، وقال الحاج حسين وكان تاجر : « إليك مفتاح متجرى الذى يحوى فوق الألف جنيه ، فخذه رهينة عندكم ، فإذا لم أعد فاستلم البضاعة بدلاً منى » فقبل بالرهينة وأخرجه . ولما خرج من المعتقل واجتمع بالناجين من سكان القرية ، أخبرهم عن الأهوال التى يقاسونها فى المعتقل وعمن ماتوا ، وأن تأخرهم يوماً واحداً سوف يقضى على جميع من فى المعتقل ، فجمعوا النقود من سكان القرية ، وهاموا يبحثون عن الأسلحة يشترونها ، مهما غلا ثمنها حتى جمعوا المطلوب وسلموه إلى اللورد الملعون ، الذى أخرجهم ، ولكن هؤلاء التعساء قد انتابتهم العلل وقضوا نحبهم بالتتابع .

لقد سأل أحد الأعضاء الإنكليز فى البرلمان عما فعله الجيش البريطانى فى حلحول من فظائع فوقف وزير الحرب يرد قائلاً : « هل تعتقد أيها العضو المحترم أن الجيش البريطانى صاحب التقاليد المشهورة يصدر عنه ماتقوله فى حلحول » وفى الحقيقة أن العقل البشرى لايصدق أن إنساناً مهما بلغ من القسوة أن يفعل مافعله اللعين دوغلاس وفرقة البلاك واتش فى حلحول ولكن ها هى قبور الشهداء لاتزال قائمة فى حلحول تشهد على أن الجندى الإنكليزى فى حلحول قد كان أحط أنواع الحيوانات المفترسة فى الغاب ، وأن أعمالهم فى حلحول خارجة عما يتصوره أى إنسان ولذلك رد العضو السائل بأنه لايصدق أن يفعل جنود الإمبراطورية مانسب إليهم فى حلحول ، ولو كلف نفسه حضرة العضو وجاء إلى حلحول لوجد الحقيقة ، وهى أدهى وأمر مما سمع ، هذا مافعله الإنكليز بالرجال ، أما مافعلوه بالنساء فإن محاكم التفتيش تقل بشاعة عما فعله الإنكليز فى حلحول ، هل يصدق إنسان أن جندياً مهما بلغت به الهمجية ، أن يسوق امرأة من فراشها . وهى فى حالة المخاض وتمشى والسياط تقرع قفاها ، والسنك تدميها ، ثم ينزل المولود فلا يتركوها ، وتمشى حتى المعتقل ، وهى تقبض على مولودها بيديها ، وهو لم يتم النزول بعد ، حتى وصلت إلى المعتقل فساعدها رفيقاتها على إتمام الوضع ، ولكنها بقيت تقاسى على فراش الموت حتى فارقت الحياة .

ويل للإنكليز من عذاب يوم عظيم ، وإن الذى ذكرته من هذه المأساة لقليل من كثير ؛ لأن الذاكرة قد نسيت كثيراً مما وقع ، لأن المأساة قد مضى عليها أربعون سنة ، وإن كان بعض ضحاياها لايزالون على قيد الحياة ، كان اثنان من إخوانى وأربعة من أبنائهم

الصغار معهم فى المعتقل وعمر الواحد لايتجاوز السادسة عشرة وكنت أعمل فى المالحة وأسكن فى القدس وكل الذى استطعنا عمله أن اتصلنا بواسطة شريف صبوح مفتش المعارف ليتصل بدوره بالمستر فريل مدير المعارف وكان الإنكليز قد نصبوه حاكما عسكرياً فقلنا له : ها أنت عسكرى فاذهب بنفسك إلى حلحول لترى بأم عينك صدق مانقول ، وإذا ظهر كذب مانقول فنحن على استعداد لقبول السجن ، فشمر عن ذراعه واتصل بسيدة إنكليزية تعمل فى الصليب الأحمر ، وجمع بعض الطعام والشراب لينقله إلى الطلاب المعتقلين ، فتوجهت إلى حلحول بما تحمل ولكن اللورد دوغلاس اللعين طردها شر طردة ، ومنعها من دخول حلحول ، وجعل فريل يفرك يديه ثم قال : إن الذى ذكرتموه عما يجرى فى حلحول هو حقيقة واقعة حقاً إن هذا ليمرغ الشرف البريطانى فى الوحل .

ولجأنا إلى وسيلة أخرى علنا نستطيع تخفيف البلاء عن هؤلاء التعساء فى المعتقل حيث جمعنا بعض النسوة والأطفال الفارين من هول مأساة حلحول ، وعملنا منهن مظاهرة سارت من باب الخليل ، وكن لايعرفن كيف يسرن ورجل أى رجل لايستطيع الظهور ؛ لأن مصيره معروف وهو معتقل حلحول ، فاتفقنا مع بائع متجول من حلحول ، هو محمد عبد القادر عمران أن يحمل صندوقاً من فواكه البرتقال ، ويسير أمامهن ينادى على بضاعته ، ثم يقف ليستريح بباب المكان المطلوب منهن دخوله وكنت وعبد العزيز وحش نتعقبهن من بعيد وكان منظرهن كئيباً حزيناً وهن يسرن فى شوارع يهودية يلطمن الوجوه ويمزقن الجيوب وينعين الشهداء بصوت يفتت الأكباد ، فدخلن أول مرة على حاكم القدس المسمى كيتروش باشا وعلم أنهن من حلحول فطردهن شر طردة وسلط حراسه يدمون أقفيتهن بالسياط وواصلت المظاهرة سيرها إلى القنصلية الألمانية فروين للقنصل مأساة حلحول فقال : إنى أعطف عليكم ولكنى قنصل دولة أجنبية ، لاأستطيع عمل شيء ، غير أنى سأتصل بحكومتى والحق يقال : إن وكالة الأنباء الألمانية أذاعت نبأ مأساة حلحول فى نفس الليلة من محطة إذاعة برلين وواصلن سيرهن إلى القنصلية الإيطالية ، فأكرم وفادتهن ، وقدم لهن الطعام والشراب وكان أشنع رد تلقينه من شاكر الوادى قنصل العراق فى فلسطين حيث قال لهن : أذهبن إلى الحاج أمين ليطلق سراح رجالكن .

ولقد ارتكبت بريطانيا الصليبية فى كل بلد احتلتها من بلاد المسلمين من الأفعال والجرائم نحو شعوبها الإسلاميةما يحتاج ذكره إلى مجلدات كبيرة ، ولا تزال تمكر بالمسلمين وتتآمر ضدهم وضد مصالحهم ، فبريطانيا قد احتلت مصر والعراق واليمن الجنوبى والهند والسودان والكويت وقطر والبحرين والإمارات ، ولما انسحبت من هذه البلاد خلفت فيها أكثر من مشكلة داخلية أو تتعلق بالحدود مع الدول المجاورة ، كل ذلك لتمزيق الجبهة الداخلية للمسلمين ، وجعل البلاد متشاحنة متباغضة .

إن بريطانيا حينما احتلت مصر سيطرت على قناة السويس وسلبت خيرات الشعب المصرى وحكمت الشعب بالحديد والنار ، وشنت مذبحة دنشواى ضد هذا الشعب المسلم كما وضع القسيس دانلوب مناهج التربية فيها ثم انتقلت العدوى إلى البلاد العربية ، هذه المناهج التى وجهت الطلاب توجيهاً علمانياً زهدتهم فى دراسة العلوم الشرعية واللغة العربية ، وجعلتهم يتوجهون نحو دراسة اللغة الإنجليزية والعلوم الطبيعية ، حتى تبعدهم عن مكمن قوتهم وعزتهم ألا وهو الإسلام الذى يحرر أتباعه من الخوف على الرزق والأجل ، ويأمر أتباعه أن يقفوا فى وجه الغزاة الصليبيين يقارعهم باللسان والسنان على حد سواء .

وفى سنة 1956 تمالأت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل لغزو مصر ، واحتلت قطاع غزة واخترقت شبه جزيرة سيناء واحتلت القوات الغازية بور سعيد وبور فؤاد هادفة السيطرة على قناة السويس مرة ثانية وإعادة استعمار مصر اقتصادياً وعسكرياً من جديد .

ومما يجدر ذكره أن الحكم البريطانى الصليبى فى مصر كان متعاوناً مع الحكم البريطانى فى فلسطين ، ينفذان سياسة واحدة ، ويصدران عن عقيدة واحدة ، واستراتيجية ثابتة هى ضرب الحركات الجهادية سواء كانت فى فلسطين أو فى مصر ، ولقد كانت القوات البريطانية وعملاؤها يطاردون كل من يتعاطف مع المجاهدين فى

فلسطين ويضيقون عليهم الخناق [1] .

هذا وسلمت السلطات البريطانية اليمن الجنوبي بعد الانسحاب منه إلى القوى اليسارية مع أن الثورة ضد بريطانيا والمجاهدين كانوا من غيرهم ، لأنها تلتقى مع القوى اليسارية فى معاداة الإسلام وأهله ، ولقد قامت القوى اليسارية وفى مقدمتها الحزب الشيوعى فى اليمن الجنوبى بنشر الإلحاد والإباحية ، وطاردت رجال الإسلام وقتلت وشردت بل حاولت أن تبسط نفوذها على اليمن الشمالى ؛ لتجتث الإسلام من جذوره كما فعلت فى بلادها ، فحققت هدفاً لبريطانيا الصليبية تحلم به ولكنها لم تستطع تحقيقه أثناء احتلالها ولن تستطيع تحقيقه .

وفى الهند قامت بزرع بذور الفتنة بين المواطنين وأغرت الهندوس عُبَّاد البقر بذبح المسلمين وتركت مشكلة كشمير حتى هذه الساعة ليراق دم المسلمين وينزف نزيفاً مستمراً لا ينقطع ما دام الأمر على هذه الحالة .

(1) جاء فى كتاب شهداء فلسطين ص321 : قامت جماعة الإخوان بتوزيع كتاب (النار والدمار) فى فلسطين، وهو كتاب يعرض بالصور والوثائق الجرائم التى ارتكبتها بريطانيا ضد الشعب الفلسطينى الأعزل فوزعت منه الجماعة عشرات الألوف من النسخ مما أغضب الحكومة البريطانية وسلطات الاحتلال البريطانى فى مصر وجن جنونها ، وقامت الصحف البريطانية بإثارة هذا الموضوع والتعليق عليه ، فأوعزت السفارة البريطانية إلى الحكومة المصرية العميلة لها بمنع انتشار هذا الكتاب ومصادرته وملاحقة كل من وزعه وسجنه ومحاكمته . . . فداهمت المركز العام قوة من رجال البوليس وفتشت مركز الجماعة فوجدت سبعمائة وخمسين نسخة فتحفظت عليها ، وسأل رئيس القوة عن صاحب هذه الكتب فتقدم إليه الأستاذ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين وقال له : أنا صاحبها فنقلت القوة النسخ إلى سيارة كانت تنتظرها ، وطلب الضابط من الأستاذ المرشد أن يصحبه إلى النيابة ، وبدأ وكيل النيابة فى التحقيق مع الأستاذ على الوجه الآتى :

س : هل أنت صاحب هذه الكتب ؟

جـ : نعم أنا صاحبها .

س : ألا تعلم أن هذه الكتب تهاجم السلطات وتثير الشعب ضد دولة صديقة وحليفة بحكم المعاهدة ؟

جـ : أعلم ذلك ، وقد قصدت مهاجمة هذه السلطات ومهاجمة هذه الدولة الحليفة

س : ألا تعلم أن القانون يعاقب على هذه الجريمة ؟

جـ : أعلم ، وأنا لا أمانع فى إحالتى إلى القضاء ؛ لأنى معترف بهذه الجريمة ومصر عليها .

وأنهى وكيل النيابة التحقيق ، ووقعه الأستاذ المرشد ، وقرر وكيل النيابة حبس الأستاذ على ذمة هذه القضية حتى تحدد جلسة لنظرها .

وفى السودان واجهت الحركات الجهادية بعنف وشراسة وخلفت مشكلة الجنوب تقض مضجع السودان .

وفى الخليج العربى زرعت الإحن والأحقاد بين حكام المنطقة ، وقسمت المنطقة إلى إمارات وحدودها متداخلة لتبقى على بذور الفتنة فى المنطقة ، وتكون صالحة للشقاق والتنازع والتخاصم ، وما حدث بين قطر والبحرين من منازعات على جزيرة فى عرض البحر خالية من السكان خير دليل على ما نقول ، ونفس الإسفين قد وضعته فى دولة الإمارات المتحدة .

وإنى لا أريد أن أنهى الكلام هنا إلا بعد أن أذكر أن بريطانيا ما استطاعت أن تنتصر على المسلمين إلا بعد أن نجحت فى سياستها القائلة : فرق تسد فقد استطاع لورانس بعد تفكير طويل أملاه عليه شيطانه أن يمزق الوحدة الإسلامية بأن يرفع شعار القومية العربية وينادى الأتراك بالقومية الطورانية ، وينادى الأكراد بقوميتهم، فيحدث التنافر والتدابر والتشرذم .

قال لورانس فى تقريره السرى الذى رفعه للمخابرات البريطانية فى شهر كانون الثانى سنة 1916 بعنوان سياسات مكة ، الأهداف الرئيسية لبريطانيا ، وللعرب عامة : (اهدافنا الرئيسية تفتيت الوحدة الإسلامية ، ودحر الإمبراطورية العثمانية وتدميرها ، وإذا عرفنا كيف نعامل العرب ، وهم الأقل وعياً للاستقلال عن الأتراك، فسيبقون فى دوامة من الفوضى السياسية ، داخل دويلات صغيرة حاقدة ومتنافرة ، غير قابلة للتماسك ، إلا أنها علياأستعداد دائم لتشكيل قوة موحدة ضد أية قوة خارجية) [1] .

أفعال فرنسا الصليبية فى الجزائر [2] :

وفى العصر الحديث احتلت فرنسا الجزائر والمغرب وتونس فماذا فعلت فى تلك البلاد ؟

---

(1) انظر كتاب لورنس العرب على خطى هيرتزل ص 64 نقلاً عن كتاب الوقائع السرية فى حياة لورنس العرب ص 52ـ53

(2) أخذت الشواهد والأدلة فى هذا البحث من كتاب عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية لبسام العسلى الصفحات 29ـ 54 ، 70 وانظر أيضاً حاضر العالم الإسلامى للأمير شكيب ارسلان 2/ 167 ـ 187 .

إن الوقائع تحدثنا أن فرنسا عاثت فى الجزائر فساداً فى مجالات كثيرة منها الاعتداء على المساجد والأوقاف والقضاء .

فقد كان فى مدينة الجزائر وحدها يوم دنستها أقدام الغزاة الفرنسيين الصليبيين سنة 1830 مائة وستة مساجد ، وعندما خرجت فرنسا مدحورة من الجزائر سنة 1961 لم يكن فى تلك المدينة أكثر من ثمانية مساجد ، وهكذا اختفى (98) ثمانية وتسعون مسجداً كانت من أعظم منارات الدنيا .

لقد صرح روفيغو حاكم الجزائر سنة 1932 التصريح التالى : (يلزمنى أجمل مسجد فى المدينة لنجعل منه معبداً للمسيحيين واختار لذلك مسجد كتشاوة ـ كيجاوة وهو أجمل مسجد فى المدينة ويقع فى وسط الدوائر الحكومية ، فلما سمع أهل المدينة بذلك هرعوا إلى المسجد ، ودخل منهم أربعة آلاف رحاب المسجد ، وأقفلوا الباب عليهم فما كان من القوات الفرنسية إلا أن أرسلت قوات من المدفعية والمشاة الفرنسيين الصليبيين الحاقد . على الإسلام وأهله ، فأحاطوا بالمسجد ، واقتربت فرقة من حاملى الفؤوس ، وأخذت تكسر الباب الموصد ، ثم انطلقت بعد كسر الباب بوحشية تطعن الأهالى بحد الحراب والسيوف ، وقتلت من فى المسجد عن آخرهم ، وسالت دماء أربعة آلاف مسلم تروى أرض المسجد وتلطخ جدرانه ، وقام القساوسة يتلون أناشيد الغفران على أشلائهم الممزقة ، وتم تحويل المسجد إلى كنيسة عرفت باسم : (كنيسة سان فيليب) .

وتابع الفرنسيون أعمالهم الوحشية فى هدم المساجد وتحويلها إلى كنائس للنصارى وبيع لليهود وثكنات للجيش والشرطة ، واصطبلات للخيول والدواب ، وتعرضت المدن الجزائرية الأخرى لما تعرضت له العاصمة حيث ذكر أحد رؤساء الأديرة والنائب العام لمطران الجزائر بأن الحاكم الفرنسى فالى رجل عميق الإيمان ، صاحب ذمة وضمير ، يريد مضاعفة الصلبان والمعابد فى الجزائر ، وقد قام فعلاً باختيار أجمل مسجد فى قسنطينة ليجعل منه أجمل كنيسة فى المستعمرة ، وهذا المسجد هو مسجد صالح باى .

وتجاوز إعتداء الفرنسيين على المساجد إلى الاعتداء على الأملاك الوقفية ، إذ كانت تشكل نسبة عالية من مجموع الأملاك العقارية والزراعية ، فقد بلغت نسبتها 66٪ تحبس هذه على المساجد وأندية العلم والحرمين الشريفين وغيرها ، فانتزعها الصليبيون

الفرنسيون ممن امتلكوها بحجة التنظيم والإصلاح .

ولقد كان فى الجزائر قضاء إسلامى نزيه ، فلم يرق لفرنسا الصليبية الحكم بالإسلام، لأنه يحفظ للجزائرشخصيتها الإسلامية ، فحصروا القضاء الإسلامى فى نطاق ضيق هو نطاق الأحوال الشخصية بعد أن كان قضاءً عاماً ينظر فى المعاملات المدنية والنواحى الجنائية وغيرها ، وأرغمت القضاة المسلمين بأن يصدروا أحكامهم باسم الملك الفرنسى إبان حكم الملكية ، وباسم الإمبراطور فى أيام نابليون الثالث ، وفى عهد بيتان باسم الدولة الفرنسية

ولم يتوقف الاعتداء على القضاء عند هذا الحد بل تجاوز ذلك إلى إلغاء المحاكم الإسلامية وأنشئت مكانها فى منطقة القبائل الجامعات القضائية التى خصصت صلاحياتها بالحكم حسب العرف والعادات الأهلية لا الحكم بأحكام الشرعية الإسلامية .

حملات الإبادة :

لقد بذلت السلطات الفرنسية الصليبية فصارى جهودها فى إبادة هذا الشعب المسلم ونهب خيراته ، فقامت هذه السلطات بقتل الشيوخ والأطفال والنساء ، ثم تقطيع آذان النسوة وأيديهن لنهب الأقراط والعقود ، حتى كانت الأقراط المعلقة فى آذان الجزائريات تشحن بالبراميل ، وتكدس أكواماً فى سوق باب عزون فى العاصمة لبيعها بالمزاد

ويحدث المارشال سانت آرنو عن جرائمه فيقول : إن بلاد بنى مناحر رائعة حقاً وهى إحدى المناطق الغنية التى شاهدتها فى أفريقيا ، لقد أحرقنا ودمرنا كل شىء ، وكم من نساء وأولاد لاجئين إلى ثلوج الأطلس ، قضوا نحبهم من البرد والبؤس .

وفى رسائل جندى كتب مونتانياك يصف ما فعله بأحد الجزائريين : قطعت رأسه ، وقبضته اليسرى ، وقدمت إلى المعسكر شاكاً رأسه على حربة ، معلقاً يده على قضيب بندقية ، ثم أرسلناها إلى الجنرال ديلليار الذى كان فى المعسكر القريب منا ، وكم كان الجنرال شديد السرور والفرح .

ويصف كريستيان صاحب كتاب أفريقيا الأفرنسية إقدام القوات الأفرنسية بقيادة الجنرال روفيغو على ذبح جميع أفراد قبيلة (الوفية) وهم نيام فيقول : وهكذا أبيد من

كان حياً دون تفريق بين الشاب والشيخ والذكر والأنثى .

وكانت حملات الإبادة عامة تقوم وفق تعليمات من القادة الفرنسيين ، فقد وجه القائد الفرنسى الصليبى مونتانياك إلى مرؤوسيه ما يلى : لا يمكن تصور الرعب الذى يستولى على العرب حين يرون قطع رأس بيد مسيحية ، فإنى أدركت ذلك منذ زمن بعيد ، وأقسم بأنه لا يفلت أحد من أظافرى حتى يناله من قطع رأسه ما ينال ، وقد أنذرت بنفسى جميع الجنود الذين أتشرف بقيادتهم أنهم لو أتوا بعربى وهو على قيد الحياة ، فسأنهال عليهم ضرباً بعرض نصل سيفى ، وأما قطع الرؤوس فيجب أن يتم على مرأى ومسمع جميع الناس ، هكذا تكون معاملة العرب ، قتل جميع الذكور الذين تجاوزوا الخامسة عشرة من أعمارهم وسبى جميع النساء ، وخطف جميع الأطفال ، وشحن الجميع فى السفن ثم إقصاؤهم إلى جزر مركيز ، أو إلى الثلث الخالى من الأرض ، وخلاصة القول : يجب إبادة كل من لا يتمرغ تحت أرجلنا كالكلاب

وتنفيذاً لسياسة الإبادة فقد تمت إبادة قبيلة " أولاد رباح " الجزائرية بصورة بشعة فقد جاء إنذارمن الكولونيل باليسى يوم 11 حزيران يونيو عام 1845 يأمرها فيه بالاستسلام خلال عشر ساعات ، ولما كان الاستسلام يعنى مد الرقبة للجزار فقد اشترطت القبيلة لخروجها انسحاب القوات الأفرنسية ، وبدون إنذار آخر ، أوقد « باليسى » النار أمام الكهوف ، وسلط الدخان على المحتمين فيها طوال الليل حتى قضوا خنقاً .

وهذا وصف مريع للعملية ـ وقد اقتطف من كتاب « رسائل جندى » مؤلفه ـ مونتانياك : « أية ريشة تستطيع رسم هذا المنظر ، عند منتصف الليل ، وتحت ضوء القمر ، لقد انشغل قسم من القوات الأفرنسية فى تحضير نار جهنمية . . . إننا نسمع الأنات المتقطعة المنبعثة من الرجال والنساء والأطفال والحيوان ، وطقطقة الصخور المحترقة وهى تتساقط ، وطلقات الأسلحة المستمرة . . . لقد حدث فى هذا اليوم أعنف صراع بين الإنسان والحيوان ، فعند الصباح ، وبينما كنا نخلى مدخل الكهوف ، فوجئنا بأفظع مشهد يقع عليه النظر ، لقد وجدنا فى داخل الكهوف جثث الثيران والأغنام والحمير المندفعة بغريزتها الطبيعية إلى استنشاق الهواء الطلق الذى حرمت منه فى الداخل ، وقد تكتلت بين هذه الحيوانات ، وتحتها جثث الرجال والنساء والأطفال ، ورأيت رجلاً ميتاً جاثياً على ركبتيه ، يمينه تمسك بقرن ثور ، بينما كانت بالقرب منه امرأة

وعلى ذراعيها طفلها . . . من السهل التعرف على هذا المنظر ، فالرجل قد اختنق مع المرأة والطفل والثور ، فى الوقت الذى كان يحمى فيه عائلته الصغيرة من ثورة هذا الحيوان . . . لقد كانت الكهوف واسعة حتى إننا أحصينا فيها سبعمائة وستين جثة ، ولم يتجح من الخروج منهم سوى ستين ، ما لبث أن فقد اربعون منهم الحياة ، ونقل رجال الإسعاف عشرة فى حالة صحية خطيرة ، أما العشرة الباقون فقد أطلقنا سراحهم ، ليعودوا إلى قبائلهم أطلالاً وخراباً (1) .

حرق القرى وإتلاف المزروعات :

ومن صور الجرائم الكثيرة التى ارتكبتها فرنسا الصليبية فى الجزائر، حرق القرى وتدمير البيوت وإتلاف المزروعات ونهب البيوت .

ولقد أكد القائد الإفرنسى سانت آرنو جرائمه فى الحرق والتدمير والنهب فقال : لا نسأل عن أشجار الزيتون الباسقة التى ستكون فريسة وحشيتى ، واليوم فى برنامجى إحراق جميع صنيع قبيلة بنى سالم وابن القاسم ، وقاسي وقراهم ، لقد أحرقت أكثر من عشر قرى كلها بهجة وغنى ، وهو القائل : تركت ورائى حريقاً حافلاً تندلع لظاه فيما يقرب من مائتى قرية أصبحت طعمة للهب والحريق ، لقد لعبت يد الدمار بالبساتين بقدر ما لعبت يد المناشير بأشجار الزيتون .

ولقد دافع سانت آرنو عن فعلته هذه الهمجية فقال : على الرغم مما يقوله أهل البر والإحسان فإنى أعتقد أن الغاية تبرر الوسيلة ، فالجيش الذى مهمته إبادة شعب لا يكترث بقوانين الحرب ، فما الحريق إلا حريق ، لا يضرم الإنسان النار ، ويطلب منه أن تكون برداً أو سلاماً ، وما طبيعة النار إلا الإحراق والتدمير .

تجويع الجزائريين لإذلالهم وتنصيرهم :

وبعد أن قامت فرنسا بمخططها فى إحراق الغابات والمزارع والحقول والبساتين وتخريب القرى والمدن ، وردم العيون والآبار ، التى أدت إلى افقار أهل البلاد وتجويعهم تمهيداً لتنصيرهم ، فشكلت جمعياتهم التبشيرية وزودتها بالأطعمة المختلفة لتقديمها إلى

(1) انظر عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية ص 36 ـ 37 .

الجياع شريطة دخول دين النصرانية .

وذات يوم ، وقف أحد الجزائريين الجياع أمام باب إحدى الإرساليات التبشيرية فى عمالة وهران ، وطلب إعطاءه لقمة عيش تحفظ له ما بقى من حياة ، وكان الرجل فى حالة تثير الرثاء فى أقسى القلوب المتحجرة ، واستقبله المبشر ورحب به ، وأدخله المعبد ، وأخذ يعرض على بعد منه أنواع الطعام الشهية ، واصفاً لذائذها وفوائدها ، ولم يتمكن الرجل من إيقاف لعابه السائل ، فمد يده ليحظى بشىء من الطعام ، ولكن المبشر حال دونه ودون مبتغاه ، وقال له بصراحة : لن يأكل هذا الطعام الشهى ، إلا من دخل الدين المسيحى ، وانتابت الرجل رجفة ، ولم يلبث أن أدار ظهره للطعام ، وأخذ يسحب رجليه الكليلتين سحباً حتى إذا ما ابتعد عن باب الكنيسة خر على الأرض فاقداً الحياة ، وأخذ يتحدث أهل وهران الذين عاشوا المجاعة ، وقاسوا آلامها يتحدثون عن هذه الفاجعة المؤلمة .

ولقد حاولت الإرساليات التبشيرية جمع الأيتام وأبناء الفقراء لإعاشتهم شريطة تنصيرهم ، فقد جاء الجنرال بيجو إلى الأب بريمو بثلة من الأيتام وسلمهم إليه وقال له : حاول يا أبت أن تجعلهم مسيحيين ، وإذا فعلت ، فلن يعودوا إلى دينهم ليطلقوا علينا النار .

وبالإضافة إلى سياسة التجويع فقد سلكت سياسة صحية مفادها إهمال الناحية الصحية ، ونقل الأمراض والأوبئة إلى الجزائر ، كأمراض السل والسرطان والأمراض التناسلية ، وقد قام بنقل هذه الأمراض الفتاكة جنود الحملة الفرنسية من السجناء واللقطة والمرتزقة .

الغزو الفكرى :

ولقد كان الغزو الفرنسى بالإضافة إلى أنه غزو عسكريٌ كان أيضاً غزواً فكرياً يهدف إلى تشويه الإسلام فى نفوس أهله ، وفى نفوس الناس ، ويهدف إلى تشكيك الناس بالدين الإسلامى عقيدة وشريعة ونظام حياة ، والنيل من رسول الله ـ ﷺ ـ . فإذا ما نجحوا فى هذا الغزو استسلم المسلمون وكفوا عن جهادهم ومقاومتهم للمحتلين لأرضهم والمدنسين لترابهم ، إن الهدف النهائى لهذا الغزو الفكرى الصليبى هو الردة عن الإسلام

واعتناق دين النصرانية ، ومن أجل ذلك فقد كان من خطتهم الأمور التالية :

قال الكردينال لافيجورى : علينا أن نخلص هذا الشعب ونحرره من قرآنه ، وعلينا أن نعتنى على الأقل بالأطفال ، لتنشئتهم على مبادئ غير التى نشأ عليها أجدادهم فإن واجب فرنسا تعليمهم الإنجيل أو طردهم إلى أقاصى الصحراء بعيدين عن العالم المتحضر.

ومن الأمور الهامة التى حرصت عليها السلطات الفرنسية فى الجزائر محاربة اللغة العربية بوضع كثير من العراقيل فى وجه تعليمها بحيث لا يسمح لأى مسلم بفتح مكتب يعلم اللغة العربية إلا بعد موافقة الحاكم الفرنسى وأخذ رخصة منه ، ويمكن للحاكم أن يسحب الرخصة بعد إعطائها ، وانتهت القيود بمنع تعليم اللغة العربية واعتبارها لغة غريبة بل فرضت على معلمى المكاتب تعلم اللغة الفرنسية .

ولقد فرضت السلطات الفرنسية على حامل رخصة التعليم القانونية أن يبث روح السخط والاشمئزاز بين الأجيال على الثقافة الإسلامية ، وأن يخلص للسلطة الاستعمارية وأن يتبع تعليماتها وينفذ توجيهاتها المتعلقة بالثقافة العربية الإسلامية .

ولقد تبنت الكنيسة فى الجزائر أساليب خبيثة لتشويه الإسلام يدعمها فى ذلك حكم عسكرى صارم ، ومن القصص الشهيرة فى هذا المجال ما تم اكتشافه فى بعض المناطق الشرقية حيث ظهر أن بعض الأضرحة التى يؤمها الشعب ويتبرك [1] بأعتابها خطأ وضلالة لم تكن إلا قبوراً الرهبان نصارى ، ولم يصدق الشعب للوهلة الأولى ما يراه حتى وقعت أنظاره على الصليب فى القبر .

---

(1) إن التبرك بالقبور من أعمال الشرك التى يحاربها الإسلام ويحرمها . وما حدث من هذه الافعال إلا دليل على تدنى الوعى وشيوع الجهل بالدين نتيجة لسياسة فرنسا التعليمية فى هذه البلاد.

أفعال ايطاليا الصليبية فى ليبيا : (1)

وفى عهد الاستعمار الأوربى لبلاد المسلمين قامت إيطاليا بدورها فى احتلال ليبيا بالحديد والنار واستولت على الأراضى الخصبة فيها لتسكن فيها الإيطاليين بعد أن اقتلعوا أهلها منها وهجروهم عنوة إلى أراض قاحلة مجدبة فى الصحراء لا تصلح للحياة ، وليس فيها أى سبب من أسباب الحياة للحيوان وللإنسان وشنوا حملات الإبادة ضد هذا الشعب فقتلوا الأطفال والنساء والشيوخ والرجال وعلقوا على أعواد المشانق عشرات الألوف ، واستباحوا المدن والقرى أياماً فسفكوا دماء غزيرة وأزهقوا الآلاف من الأرواح البريئة .

ولم يكتفوا بهذه الجرائم البشعة بل تجاوزوها إلى هتك أعراض المسلمات الليبيات ، اغتصبوا الزوايا السنوسية واعتدوا على المساجد وأهانوا أهلها .

ولقد تحدث عن جرائم الإيطاليين المجاهد الأمير شكيب أرسلان الذى عاصر الأحداث وشارك فيها ، وكانت له علاقة حميمة بقائد المجاهدين الليبيين الشهيد عمر المختار ـ رحمه الله ـ ، الذى قبض عليه الإيطاليون وحكموا عليه بالإعدام وقبل أن ينفذ فيه الحكم راودوه أن يخنع ويخضع فى مقابل العفو عنه فأبى وقال : « لئن كسر مدفعكم سيفى فلن يكسر باطلكم حقى ، وإن عفوتم عنى فسأعود إلى قتالكم من جديد» وفى كتاب " حاضر العالم الإسلامى " شواهد كثيرة .

عدد الذين شنقهم الإيطاليون من طرابلس وبرقة:

لقد قدر عدد الذين شنقتهم القوات الإيطالية الصليبية من أهل طرابلس وبرقة بعشرين ألف نسمة ، وكان من بين الذين علقوا على أعواد المشانق عدد كبير من النساء المسلمات اللواتى جردن من ثيابهن وأبقوهن مجردات عدة أيام وكانوا يسلكون ستين شخصاً أو سبعين فى سلسلة واحدة ويحبسونهم على هذه الصورة حتى يموتوا ، وقذف فى البحر مرة عدة جثث إلى ساحل السلوم مربوطاً بعضها ببعض .

(1) انظر حاضر العالم الإسلامى لشكيب ارسلان 2/ 65 ـ 85 .

طرد الليبيين من أرضهم المخصبة لإسكان الإيطاليين مكانهم (1) :

لقد كانت أراضى الجبل الأخضر من برقة أجود أراضى طرابلس ، ففيها العيون والمياه الجارية ، والغابات الملتفة ، والمروج المريعة ، فتوجهت أنظار الطليان إليها ، وأرغموا أهلها على هجرها بطريقة فى غاية الوحشية والقسوة .

لقد جمع الطليان من سكان المنطقة ثمانين ألف نسمة رجالاً ونساءً وأطفالاً ، وساقوهم إلى صحراء (سرت) فى الأراضى الواقعة بين برقة وطرابلس على مسافة عشرة أيام من أوطانهم الأصلية ، وأنزلهم فى معاطش ومجادب لا يمكن أن يعيش فيها بشر ولا بقر ، فمات قسم كبير منهم جوعاً وعطشاً ، وماتت مواشيهم بأسرها من فقد الكلأ والماء ، فارتفع صراخ هؤلاء الأهالى وراجعوا الحكومة الإيطالية وشكوا إليها موت ذراريهم وموت مواشيهم ، فما زادها ذلك إلا قسوة ومضاء على عزيمتها ، وزادت الطين بلة ، أخذت منهم الرجال الذين بلغوا حتى سن الأربعين وأدخلتهم فى الجندية ، ثم عمدت إلى الأحداث من فوق أربع سنوات وحتى سن الثانية عشرة سنة فأخذتهم قهراً من أحضان أمهاتهم ودفعتهم إلى إيطاليا لأجل تربيتهم وتنشئتهم فى النصرانية .

على الرغم من الإحتجاجات الكثيرة من أهالى البلاد المهجرين لم تستجب الحكومة الإيطالية لإرجاع الأهالى إلى أراضيهم وديارهم ، بل انتخبت من بقاياهم أربعة آلاف وأرجعتهم إلى الجبل الأخضر يحرثون ويزرعون كعاملين وليسوا مالكين عند المستعمرين الإيطاليين .

استباحة القرى والمدن بوحشية منقطعة النظير(2)

لقد قام الإيطاليون الصليبيون فى سنة 1931 باحتلال واحة الكفره فاستباحوا قراها ثلاثة أيام فقتلوا من صادفوه من الأهالى ، ثم انتشروا فى القرى والبساتين ونهبوا كل ما وقع تحت أيديهم ، ولم يرحموا الشيوخ ولا الأطفال ولا النساء ، وصادفوا الشيخ مختار الفذامسى وهو شيخ فان بالغ ثلاثاً وتسعين سنة ، ومن جلة علماء السنوسية ، فحملوه مقيداً بالحبال على جملٍ ، ونفوه من الكفره فمات فى الطريق ، ثم اغتصبوا النساء فى

(1) انظر حاضر العالم الإسلامى 2/ 66 ـ 68 .

(2) حاضر العالم الإسلامى 2/ 69 ـ 70 .

أعراضهن وقتلوا منهن كثيراً ممن دافعن عن أعراضهن وكان نحو من (200) مائتى امرأة من نساء الأشراف قد فررن إلى الصحراء قبل وصول الجيش الإيطالى ، فأرسلوا قوة فى إثرهن حتى قبضوا عليهن ، وسحبوهن إلى الكفرة حيث خلا بهن ضباط جيش الطليان واغتصبوهن ، ولما احتج بعض الشيوخ على هتك أعراض السيدات أمر القائد الصليبى بقتلهم .

الطليان يدنسون المصحف ويعملون على تنصير المسلمين (1) :

لقد استباح الإيطاليون الصليبيون الزاوية السنوسية المسماة بالتاج وأراقوا فيها الخمور ، وداسوا المصاحف الشريفة بأقدامهم ، ولقد أجلوا ثمانية عشر ألفاً من عرب الجبل الأخضر عن أوطانهم وأماتوهم جوعاً ، وأخذوا أطفالهم قهراً إلى إيطاليا لتنصيرهم ، وقد قاموا بفظائع تقشعر لهو لها الأبدان وتشيب لهولها الولدان ، إذ حملوا الشيخ سعد شيخ قبيلة الفوائد وخمسة عشر شيخاً من رفاقه بالطيارات وقذفوهم من الجو على مشهد من أهلهم حتى إذا وصل أحدهم إلى الأرض وتقطع إرباً صفق الطليان طرباً ونادوا العرب قائلين : ليأت محمد هذا نبيكم البدوى الذى أمركم بالجهاد وينقذكم من أيدينا .

شهادات المرافقين للجيش الإيطالى على فظائعهم (2) :

1 ـ شهادة (فرانز ماكولا) الإنجليزى :

أبيت البقاء مع جيش لاهم له إلا ارتكارب جرائم القتل ، وإن ما رأيته من المذابح وترك النساء المريضات العربيات وأولادهن يعالجون سكرات الموت على قارعة الطريق جعلنى أكتب للجنرال (كانيفا) كتاباً شديد اللهجة قلت له : إنى أرفض البقاء مع جيش لا أعده جيشاً بل عصابة من قطاع الطرق والقتلة .

2 ـ شهادة الكاتب الألمانى (فون غوتبرغ) :

(إنه لم يفعل جيش بعدوه من أنواع الغدر والخيانة ما فعله الطليان فى طرابلس فقد

---

(1) حاضر العالم الإسلامى 2/ 70 .

(2) انظر : حاضر العالم الإسلامى 2/ 72/ 81 .

كان الجنرال كانيفا يستهين بكل قانون حربى ، ويأمر بقتل جميع الأسرى سواء أقبض عليهم فى الحرب أو فى بيوتهم ، وفى سيراكوز الآن كثير من الأسرى الذين لم يؤسر واحد منهم فى الحرب ، وأكثرهم من الجنود الذين تركوا فى مستشفى طرابلس ، وقد قبض الطليان على ألوف من أهل طرابلس فى بيوتهم ونفوهم بدون أدنى مسوغ إلى جزر إيطالية حيث مات أكثرهم من سوء المعاملة .

3 ـ شهادة النمساوى (هرمان رنول) :

قد قتل الطليان فى غير ميدان الحرب كل عربى زاد عمره على 14 سنة ومنهم من اكتفوا بنفيه ، وأحرق الطليان فى 26 أكتوبر سنة 1911 خلف بنك روما بعد أن ذبحوا أكثر سكانه بينهم الشيوخ والأطفال) .

وقال أيضاً : (رجوت طبيبين عسكريين من أطباء المستشفى أن ينقلوا بعض المرضى والمصابين المطروحين على الأرض تحت حرارة الشمس فلم يفعلا ، فلجأت إلى راهب من كبار جمعية الصليب الأحمر هو الأب يوسف بافيلاكو وعرضت عليه الأمر ، وأخبرت شاباً فرنسياً أيضاً ، لكن الأب (بافيلاكو)حول نظره عنى ، ونصح الشاب بأن لا يزعج نفسه بشأن عربى فى سكرات الموت ، وقال : دعه يموت .

ورأيت على مسافة قريبة جندياً إيطالياً يرفس جثة عربى برجله ، وصباح اليوم التالى ، وجدت الجرحى والمرضى الذين رجوت الراهب من أجلهم قد ماتوا ، وقد رأى ذلك معى « فون غوبرغ » الألمانى وبكى من تأثيره .

4ـ شهادة المسيو (كوسيرا) مراسل جريدة (اكسينسور) الباريسية :

لا يخطر ببال أحد ما رأيناه بأعيننا من مشاهد القتل العام ، وفى أكوام جثث الشيوخ والنساء والأطفال ، يتصاعد منها الدخان تحت ملابسهم الصوفية كالبخور يحرق أمام مذبح من مذابح النصر الباهر ، ومررت بمائة جثة بجانب حائط قضى عليهم بأشكال مختلفة ، وما فررت من هذا المنظر حتى تمثلت أمام عينى عائلة عربية قتلت عن آخرها وهى تستعد للطعام ، ورأيت طفلة صغيرة أدخلت رأسها فى صندوق حتى لا ترى ما يحل بها وبأهلها ، إن الإيطاليين فقدوا عقولهم وإنسانيتهم من كل وجه .

5ـ قال المستر (إليس اشميد برتلت) مراسل شركة (روتر) فى رسالة بعث بها من مالطة يصف فيها ما شاهده بعينه هو والمستر (كرانت) مراسل (الدلى ميرور) والمستر (دانيس) مراسل (المورننغ بوست)، وقد سجلت هذه الرسالة فى دائرة رسمية إنكليزية تحت تواقيعهم :

« صادفنا بمجرد خروجنا من المدينة جماعة بين رجال وأولاد لا يقل عددهم عن السبعين قتلوا بدون محاكمة ، وكنا نشاهد فى طريقنا بعد كل بضع خطوات جثث القتلى فى كل مكان ، قتل بعضهم برؤوس الحراب ، والبعض ضرباً ، وآخرون جرحوا وماتوا على إثر جراحهم ، وأبصرنا على مسافة قريبة خمسين رجلاً وولداً هلكوا بالرصاص والسيوف ، وشاهدنا رؤوساً مهشمة ، ومن المشاهد التى رأيناها :

أ ـ شيخ عربى عاجز بينما هو جالس بقرب مدرسة الزراعة إذ اتخذته طائفة من الجند الإيطالى هدفاً لرصاص بنادقهم فمات .

ب ـ سمعنا فجأة صوت عيار نارى فعلمنا أنه أطلق على رجل خرج من منزله ، فسقط والدم يتدفق منه ، وخرجت زوجته وبيدها إناء فيه ماء . . . لعلها تريد أن تسقيه أو تغسل جراحه . . . فلما رأتنا نكصت على أعقابها خوفاً منا .

جـ ـ التقينا فى أحد الشوارع بثلة من الجنود ، أمسكوا ثلاثة من العرب وصفوهم عند حائط ، وأخذوا يتلهون بإطلاق النار عليهم .

6ـ قال المستر (بنيت يورلى) مراسل الدالى تليغراف :

« قتل الطليان فى 7 نوفمير أربعة آلاف شخص بينهم 400 امرأة ، ورأيت رجلاً مقعداً قتله الجنود قريباً من قنصلية النمسا »

7ـ قال مراسل (فرانكفورتو نسايتونغ) :

« لقد رأيت بعينى فظائع هائلة لم تسمع أذن إنسان بمثلها ، ولقد بلغ إلى الآن عدد المذبوحين من الأهالى سبعة آلاف من رجال ونساء وأولاد ، إذ أبيح للجنود قتل كل من يصادفونه »

هذا ولقد أُلفت كتب فى جرائم الإيطاليين الصليبيين فى ليبيا ، وأهم هذه الكتب

كتاب : " الفظائع السود الحمر " ، "وكتاب فظائع الطليان فى طرابلس الغرب " .

ومما جاء فى الكتاب الأخير أن الطليان يهينون الدين الإسلامى ويتعرضون للمسلمين فى مساجدهم ، ويدخلون جنودهم سكارى فى الجوامع ليهزأوا بعبادة المسلمين ، ويجبرون المسلم ولو كان فى وسط الصلاة أن يقوم بأداء التحية للضابط الإيطالى أو المأمور الإيطالى أياً كان .

ولقد أصدرت الحكومة الإيطالية فى لواء بنغازى أمراً بسد جميع الكتاتيب التى تعلم الأطفال أمور دينهم وتحفظهم قرأنهم الكريم .

وفاجأ الفاشيست رجلاً يدعى الشيخ (يونس بن مصطفى البرعصى) وهو معتكف فى غار بزاوية الفايدية بالجبل الأخضر فسدوه عليه وأحرقوه مع عائلته المؤلفة من تسعة أشخاص .

جمع الجنرال (غارسيانى) جميع مشايخ السنوسية ومتولّى أوقافها وأئمة المساجد والمؤذنين والفقهاء والسدنة ، وسجنهم كلهم فى مركز بنينه وهو بناء قديم لا سقف له ، ذاقوا فيه أمرَّ العذاب جوعاً وعطشاً وعذاباً ، ثم نقلوا إلى سجون إيطاليا ، وبعد أن مكثوا فيها مدة أعيدوا إلى بنينه حيث أفنوا بالجوع وغيره ، ولا ذنب لهؤلاء سوى أنهم يعلمون أبناء المسلمين كتاب الله وسنة رسوله الكريم ـ ﷺ ـ .

مواقف الولايات المتحدة الأمريكية الصليبية :

لم تكن الروح الصليبية الحاقدة على الإسلام والمسلمين تعشعش فقط فى قلوب الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين ونفوسهم ، بل إن الذى يدرس مواقف الولايات المتحدة الأمريكية من قضايا المسلمين عامة ومن قضية فلسطين خاصة يدرك بسهولة ويسر مدى حقد الأمريكان على الإسلام والمسلمين ، فقد وقفت هذه الدولة فى القرن العشرين بجانب اليهود الحاقدين المعتدين ، تدعمهم وتؤيدهم فى المحافل الدولية وتسعى جاهدة مستخدمة كل وسائل الترغيب والترهيب لإقناع الدول شرقيها وغربيها غنيها وفقيرها صغيرها وكبيرها بالإعتراف بدولة اليهود فى فلسطين ، وبناء علاقات سياسية واقتصادية وثقافية معها .

وما من مشروع قرار فى هيئة الأمم أو مجلس الأمن الدولى ينصف أهل فلسطين أو يؤيد حقاً من حقوقهم على أرضهم إلا وقفت أمريكا ضده ، تسعى لإبطالة بإسلوب مباشر وغير مباشر .

ولا نقول هذا الكلام على عواهنه دون دليل بل إن الأدلة الكثيرة والشواهد العديدة على صدق ما نقول ، ففى سنة 1922 م أعلن الكونجرس الأمريكى قراره الإجماعى الذى أيد فيه وعد بلفور وتأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين .

وفى شباط عام 1945 قدم خمسة آلاف قسيس بروتستانتى أمريكى طلباً إلى حكومتهم ، طالبين إباحة الهجرة اليهودية إلى فلسطين دون قيد ، وكان (ترومان) رئيس الولايات المتحدة أسرع مستجيب لمثل هذا النداء ، فأرسل كتاباً إلى (اتلى) رئيس الوزارة البريطانية يطلب إدخال مائة ألف يهودى دفعة واحدة إلى فلسطين ، وأن تفتح أبوابها دون قيد للهجرة بعد ذلك (1) .

ولقد ذهبت السلطات الأمريكية إلى أبعد من هذا ، فحاولت أن تنشىء مستعمرات يهودية فى ضواحى المدينة المنورة تمهيداً لاحتلالها والاعتداء على قبر رسول الله ـ ﷺ ـ

(1) انظر : جهاد شعب فلسطين ص 281 .

الذى طهر المدينة من رجس اليهود كما قضى على يهود خيبر وحررها منهم .

فقد قابل (روزفلت) الملك (عبد العزيز آل سعود) فى شهر شباط سنة1945 وكان من أهم جدول الأعمال أن تناقش أمنية الأسر اليهودية التى حمل روزفلت رجاءاتها بإقامة مستعمرات يهودية فى ضواحى المدينة المنورة لقاء عشرات الآلاف من الجنيهات الذهبية (1)

وفى سنة 1946 م وعلى إثر ميل أمريكا نحو اليهود وتأييدهم لها التمس زعماء الدول العربية ـ عن طريق مجلس الجامعة على أثر تأييد (ترومان) لليهود وعطفه عليهم وهدر حقوق الشعب الفلسطينى المسلم فى دياره وأراضيه ـ من أمريكا فى مذكرة كتبوها إلى سفيرها أن تتلطف فلا تؤيد اليهود هذا التأييد الصارخ ، وكانت المذكرة بأسلوب رقيق، فماذا كان موقف المسئولين الأمريكان لقد تلطف " ترومان " فرد عليهم مستخفاً بهم وبكلامهم المؤدب الذى يسيل رقة ولطفاً ، وأعلن إصراره على دعم المطالب اليهودية فقد جاء فى رده :

لقد طلبت إلىَّ حكومتى أن أبلغ عن بالغ ارتياحها لروابط الصداقة المتينة التى تربط الولايات المتحدة الأمريكية بجميع الدول العربية ، وعن أملها فى أن تزداد الصداقة توثقاً ولقد أحيطت حكومتى علماً بتقرير المجلس ، إن اهتمام حكومة الولايات المتحدة بقضية فلسطين والتصريحات الأخيرة التى أدلى بها رئيس الولايات المتحدة بخصوص فلسطين قد سببت قلقاً شديداً فى سائر الدول العربية والعالم الإسلامى ، فمنذ نهاية الحرب العالمية الأولى عاضدت الولايات المتحدة حكومة وشعباً فكرة الوطن القومى اليهودى فى فلسطين ، وإذن فحكومتى إنما تتصرف طبقاً لسياسة الولايات المتحدة التقليدية عندما تدعو إلى اتخاذ التدابير التى ترمى إلى تعزيز وإبراز هذه الفكرة إلى حيز الوجود . (2)

وبدعم مادى وسياسى ومعنوى من أمريكا قامت دولة لليهود على أرض فلسطين فهل توقفت أمريكا عن دعمها أم أن دعمها قد استمر وازداد ؟

(1) المرجع السابق ص 281 .

(2) انظر : جهاد شعب فلسطين ص 282 ـ 283 .

إن المسلمين فى شتى أنحاء العالم الإسلامى لن ينسوا موقف أمريكا من حرب 1967 إذ أرهبت عبد الناصر وخدعته حين مهدت للضربة الأولى لقوات الإحتلال اليهودى ومنعته من أن يوجه الضربة الأولى ، وسخرت فى سبيل تلك المهمة الإتحاد السوفيتى عن طريق السفارة السوفيتية ، وتمت المؤامرة واستطاعت دولة اليهود وفق هذه المؤامرة تدمير الطائرات والمطارات فى مصر وسوريا والأردن وأن تحتل بقية أرض فلسطين والجولان وسيناء وجزءً من أرض الأردن .

وفى حرب رمضان 1403 هـ الموافق شهر أكتوبر سنة 1973 لم تقف أمريكا الصليبية مكتوفة الأيدى حين رأت أن كفة الجيش المصرى قد رجحت فى بداية الحرب على كفة إسرائيل ، إذ تقدم محطماً خط بارليف ومزيلاً لها من الوجود فى سويعات وأخذ يوجه ضربات قوية للغطرسة اليهودية ، وأخذ اليهود يفرون من وجه أولئك الأشاوس ويخلون مواقعهم ويتركون أسلحتهم وراءهم مذعورين ، فاضطرب جبل الأمن فى المجتمع اليهودى ، واستغاثت رئيسة وزراء العدو فى فلسطين "غولدا مائير" بالحليف الصليبى أمريكا وكان رئيس الولايات المتحدة الأمريكية يوم ذاك المستر (نيكسون) من خلال برقية مستعجلة مفادها إذا لم تسعفونا لن تكون هناك إسرائيل

فهبت أمريكا بزعامة رئيسها (نيكسون) تقف بجانب اليهود ودولة اليهود فى فلسطين وأنشأت جسراً جوياً تزود بواسطته دولة اليهود بأحدث الأسلحة البرية والجوية بعد أ ن فتحت خزائن السلاح الأمريكى على مصارعها ، ليقف جنود اليهود أمام الجندى المصرى المسلم الذى اقتحم خط بارليف وهو يهتف : لا إله إلا الله ، الله أكبر[1] وبفضل السلاح الحديث الذى زودت أمريكا دولة اليهود به كدبابات (م . 6) وغيرها استطاعوا أن يستأنفوا القتال من جديد وأن ترفع الروح المعنوية المنهارة .

(1) ومما يجدر ذكره هنا أن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية هذا قد كان فى زيارة رسمية للحكومة الأردنية بعد حرب 1973 م فأنكر الإخوان المسلمون على الحكومة الأردنية استقبالها له ودعوا الشعب الأردنى إلى رفض استقباله وعدم المشاركة فى ذلك ووزعوا بياناً على الشعب ، بعنوان : « عد إلى بلدك يا نيكسون » ، فغضبت الحكومة الأردنية فى ذلك الوقت واعتقلت نفراً من الإخوان المسلمين على رأسهم فضيلة المراقب العام لجماعة الإخوان المسلمين الأستاذ (محمد عبد الرحمن خليفة) .

وأمريكا الصليبية هى التى ضغطت على مصر وروضتها فى عهد الرئيس أنور السادات لتقبل بمعاهدة (كامب ديفيد) ، التى أقرت لليهود بدولة على أرض فلسطين وفصلت مصر أكبر قوة للعرب عن تأييد أهل فلسطين وسائر الدول العربية وشعوبها الذين يحتاجون إلى مصر فكراً وقوة مادية ومعنوية ، فخسرت فلسطين أكبر قوة ضاربة فى أى صراع يحدث فى المستقبل إلا أن ينهض الشعب المصرى المسلم ويتمرد على هذه المخازى، ويرفض هذه المعاهدة ، ويلغيها ، ومن ثم لا يلتزم ببنودها ، وهذا ما نأمله فى شعب مصر الأبى المسلم الذى عودنا على مر التاريخ أنه كان المنتصر على الغزاة من صليبيين وتتار فى حطين وعين جالوت .

لقد استطاعت أمريكا عن طريق عملائها أن تبعد مصر عن حلبة الصراع وأن تحيدها ولم تقف عند هذا الحد ، بل استطاعت أن تجد لها من ساسة مصر عملاء يدعون لسياستها، وينفذون أغراضها ، واستطاعت أن توجد منهم عرابين لسياستها ، يقوم بترويض زعماء المنطقة وإقناعهم بضرورة التنازل عن حقوقهم وحقوق الشعب الفلسطينى وأن يسامحوا إسرائيل بهذه الحقوق ، وأن يسالموها على هذا الأساس ، وأن يعترفوا لها بالشرعية والأرض ، وأن يكونوا جنوداً أوفياء لمآربها الخبيثة وعلى استعداد لسحق أية قوة أو جماعة ترى استخدام القوة تجاه اليهود الغاصبين .

وبعد احتلال اليهود لبقية أراضى فلسطين والجولان وجزء من أراضى لبنان كان من سياسة اليهود بناء المستوطنات فى الأراضى المحتلة ليتنافس اليهود فى هذه المستوطنات سكان البلاد ومن ثم التضييق عليهم وإخراجهم من أرضهم بوسائل عديدة ترغيبية أو ترهيبية .

وأمريكا هى التى زودت دولة اليهود فى فلسطين بكثير من مليارات الدولارات الأمريكية من أجل بناء هذه المستوطنات لغرس يهود جدد على الأراضى العربية الإسلامية ونزع وطرد أهلها الأصليين .

أما هجرة يهود الاتحاد السوفيتى إلى فلسطين المحتلة ، فمن وراء هذه الهجرة الخطرة، التى ستعرض أمن دول المنطقة العربية والإسلامية للخطر .

إن الذى ضغط على الإتحاد السوفيتى واضطر(جوربا تشوف) وزعماء روسيا وأجبرهم على الإذن لليهود فى تلك البلاد بالهجرة وتيسير سبلها من الاتحاد السوفيتى إلى أرض فلسطين هو الولايات المتحدة الأمريكية الصليبية ، فقد اشترطت على الاتحاد السوفيتى فى مقابل التعامل الاقتصادى معه ، وتزويده بالقمح ، أن ييسر سبل الهجرة لليهود من دولته إلى دولة اليهود على أرض فلسطين ، فرضخ رضوخ الذليل وأخذت موجات الهجرة اليهودية تتابع من دولة يزعم العرب المغفلون أنها صديقة وقد نسوا أنها دولة فى العالم قد اعترفت بالدولة اليهودية على أرض فلسطين .

نعم لقد كان وراء هذه الهجرة التى أثارت سخط المسلمين فى كل مكان وغضبهم ، أمريكا الصليبية تفكيراً وتخطيطاً وتدبيراً ، فهى مطلب أمريكى بل شرط أمريكى من شروط سياسة الإنفراج بين الدولتين .

هذه الهجرة لها أخطارها على العرب والمسلمين عموماً ، لأنه سيتبعها توسع على حساب الدول المجاورة لفلسطين ، إذ سيشن اليهود حملات عسكرية ومعارك حربية تهدف احتلال أراض جديدة من أجل استيعاب هؤلاء المهاجرين .

وأمريكا هى التى تقوم بحملة محمومة ضد الحركات الإسلامية ، وترصد تحركاتها وتقبع على وضع الخطط الخبيثة لإجهاضها أو تعويقها للوصول إلى أهدافها فى التحرير .

إن أمريكا تنفق الملايين من الدولارات لإجراء البحوث والدراسات وعقد المؤتمرات عن الصحوة الإسلامية ، هادفة من وراء ذلك جمع المعلومات عنها ، وتقديرقوتها وجوانب ضعفها حتى تبتكر الوسائل لإحباطها ، ومما يؤسف له أن كثيراً من هذه الدراسات والمؤتمرات تعقد فى البلاد الإسلامية والعربية تحت مسمع الحكام وبصرهم ، بل يفتتحونها ويكرمون المشاركين فيها .

وحينما حدثت الانتفاضة المباركة فى8 / 12/ 1987 وهب الشعب الفلسطينى المسلم يدافع عن نفسه وعن دينه ويرجم اليهود الغزاة بحجارة أرضه المقدسة المباركة وانتشرت أخبار هذه الانتفاضة فى جميع أنحاء العالم ، فضايقت اليهود فى الداخل والخارج نفسياً وأمنياً بعد أن عجزوا عن إجهاضها والقضاء عليها باستخدامهم الوسائل الوحشية تجاه

أهلها من كسر الأطراف وتحطيم الجماجم والرمى بالرصاص الحى وتجويع الناس ذكوراً وإناثاً شباباً وشيباً وزجهم فى غياهب السجون ، وقتل الأطفال والنساء والشيوخ .

قامت أمريكا الصليبية وعملاؤها بمحاولات عديدة لإجهاض الإنتفاضة حفاظاً على سمعة دولة إسرائيل وأمن إسرائيل ، فأرسلت كثيراً من ساستها إلى المنطقة لإجراء اللقاءات مع زعمائها ومع أهل الإنتفاضة لإقناعهم بإيقافها وإغرائهم بوسائل خادعة ، ولقد شارك فى هذه التحركات(شولتز)و (مير فى) وآخرون .

ولكن حكمة الله العليم الخبير أبطلت كل هذه المؤامرات والتدابير ، ووفق الله أهل الانتفاضة إلى أن يستمر وا فى جهادهم وأن يصعدوها دون كلل أو ملل ؛ مما جعل الساسة الأمريكان الذين أكل الحقد قلوبهم يدبرون لتوجيه ضربة للعراق وبخاصة مصانع هذا السلاح الذى يتخوفون منه .

ومن الجدير بالذكر أن الذى يصر على بقاء الدول العربية وغيرها من دول العالم الإسلامى قليلة السلاح لا تمتلك أدنى أسباب القوة ليس ضد أمريكا فقط بل كل الدول الأوربية الصليبية الحاقدة ، فلقد تأثر العالم الصليبى كله واهتز لأبناء السلاح الكيماوى المزدوج لدى العراق ، والهدف من ذلك أن تبقى دول المنطقة تحت نفوذ هذه الدول الصليبية وسيطرتها راضخة لأوامرها ، منفذة لسياستها التى تتلخص فى مطاردة الإسلام وأهله من واقع الحياة ، هذا الإسلام هو الذى يخيف الدول الصليبية لأنه روح الأمة ومصدر عزتها ومنعتها ، ومحررها من الذل والهوان والاستكانة للاستعمار الصليبى

وهذا الخوف والقلق أعلنه المبشر (لورانس براون) بقوله : (لقد كنا نخوف بشعوب مختلفة ولكن بعد الاختبار لم نجد مبرراً لمثل هذا الخوف ، لقد كنا نخوف من قبل بالخطر اليهودى ، والخطر الأصفر واليابان وتزعمها على الصين ، وبالخطر البلشفى ، إلا أن هذا التخويف كله لم يتفق (لم نجده ، لم يتحقق) كما تخيلناه ، إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا ، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد ، ثم رأينا أن البلاشفة حلفاء لنا ، أما الشعوب الصفر فإن هنالك دولاً ديمقراطية كبيرة تتكفل بمقاومتها ، ولكن الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام ، وفى قدرته على التوسع والإخضاع ، وفى حيويته ، إنه الجدار

الوحيد فى وجه الإستعمار الأوروبى) (1)

فـالحـرب لم تتـوقف ضـد المسلمين ولم تخب نارها ، بل هى تستـمـر ويستعر أوارها ، فهى حرب ضروس لا تزال قائمة فى كل أرجاء الأرض لسحق المسلمين سحقاً على ضعفهم وضعف تمسكهم بكتاب ربهم وسنة نبيهم محمد ـ ﷺ ـ ، بل كثير منهم ليس له من الإسلام إلا اسمه .

ألم تشن حملات الإبادة ضد المسلمين فى زنجبار .

ألم نسمع مافعله القبارصة النصارى بالقبارصة المسلمين .

ألم نسمع ما فعله حكام الحبشة بالمسلمين فى أريترية المسلمة .

ألم يخترق سمعنا الأنباء المحزنة فى الصومال الغربى وما يلاقيه المسلمون فيه حين يطالبون بالاستقلال والإنضمام إلى جمهورية الصومال المستقلة(2) .

ومن وسائل الحقد الصليبى فى عصرنا الحاضر الغزو الفكرى عن طريق التبشير وحركات الإستشراق الماكرة ، التى يتظاهر معظمها بالموضوعية العلمية وفى حقيقتها حاقدة تنفث سموم حقدها من خلال بحوثها الاستشراقية ، أما الغزو الفكرى فينصب على تشويه الإسلام والتشكيك فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والإساءة إلى الرسول ـ ﷺ ـ وصحابته ـ رضوان الله عليهم ـ ، والحضارة الإسلامية ، وتحريف التاريخ الإسلامى ، والعقيدة الإسلامية ، والتشكيك فى صلاحية أحكام الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان ، وإثارة الشكوك حول بعض الأحكام الشرعية ، والهدف من ذلك كله هو إبعاد المسلمين عن دينهم ، وإبعاد الناس عن دين الإسلام وتنفيرهم منه حتى لا يعتنقوه .

والذى يقوم بهذا الدور الخطير الحركات التبشيرية وجامعاتها المنتشرة فى كثير من بلاد المسلمين ، ولقد قامت الجامعة الأمريكية بالقاهرة بهذا الدور الخبيث ، ويحدثنا عن هذا

---

(1) التبشير والاستعمار فى البلاد العربية ص 184 .

(2) انظر : مجلة هدى الإسلام ـ العدد الأول لسنة 1393 ص 106 ، 107 نقلاً عن منشور صدر عن جبهة التحرير الصومال الغربى المحتل .

الدور الخطير الشهيد عبد القادر الحسينى فى تجربة خاصة حدثت معه . فهو يقول :

(تدعى إدارة الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، أنها علمية محضة ، وليس لها أدنى علاقة بالتبشير ، وهى تتبرأ مما حصل فى المعادى حيث يسكن أساتذتها المبشرون ، وفيهم من أرسل خصيصاً على حساب أحد الموسرين الكبار للتبشير ، وادعاء الجامعة أنها علمية ليس صحيحاً وإليك حجتى وأدلتى الواضحة :

من هو رئيس الجامعة ؟

رئيس الجامعة هو الدكتور (شارلز واطسون) مبشر ووالده وأمه مبشرة ، فهو من سلالة مبشرين وإنى أستشهد على ذلك بكتابه المسمى : (**حروب صليبية مسيحية فى مصر**) ويعنى بهذه الحروب الحملة التبشيرية وقد قال فى مقدمة ذلك الكتاب : (أهديه أمى وأبى اللذين قضيا حياتهما مبشرين فى مصر) ويوجه فيه الدعوة إلى أهل الخير حساس ، ليروا الانتصار الباهر لأعمال التبشير فى مصر ، كما أنه يوجه إلى المبشرين ـة مؤداها (أنهم هم الذين سوف يتم تنصير مصر بأكملها على أيديهم) ، وبذلك جون رؤوسهم بأكاليل الظفر والفخار ، جزاءً لهم على جهادهم المقدس .

أو تدرى ماذا يقول هذا المبشر أيضاً فى كتابه المشار إليه ؟ إنه يقول :

(إن للمسلمين طقساً دينياً هو أساس الإسلام ، وهذا الطقس هو الحج ، ويجب على كل مقتدر أن يؤديه وهو عبارة عن الذهاب إلى الكعبة ، حيث تقام طقوس دينية مخزية ، وهذا المكان ـ الكعبة ـ قلب العالم الإسلامى ، وكر لصوص تؤتى به جميع أنواع المخازى الأخلاقية (كذا) ، ولكنه يجعل بين المسلمين رابطة متينة يخاف منها) .

وبعد . . فهذا رئيس الجامعة الأمريكية الدكتور (شارلز واطسون)كما تراه فى كتاب احد من كتبه والآن . . . إليك غير هذا الرجل من أقطاب الجامعة :

هناك قسم فى الجامعة الأمريكية يسمونه (مدرسة اللغات الشرقية) يؤمه الأجانب ، ويرأسه الدكتور (جوفرى) وهو رجل لاهوتى ، وهذا القسم ، إن هو إلا معهد لتدريب المبشرين وتعليمهم اللغة العربية ، وكيفية مهاجمة الإسلام مهاجمة علمية فنية ، ومن يزر

مكتبة الجامعة ويرى الكتب التى نقلت من هذا القسم إليها يحقق صدق قولى .

وهذه الكتب تؤلف الآن قسماً كبيراً من المكتبة ، وكلها تبشيرية ، بعضها يبحث الحركات التبشيرية وتاريخها ونجاحها وأعمالها فى الشرقين الأدنى والأقصى ، وبعضها يبحث فى كيفية التنصير ، والبعض - وهو أكثرها - يحتوى على شتائم فى الإسلام والمسلمين .

والدكتور (جوفرى)رئيس هذا القسم هو مبشر الجامعة الأكبر ، ويليه المستر (مولر)، وكلاهما قاطن بالمعادى ، حيث المبشر (بطرس عيان) صديقهم الأعز وبطل الحادثة المشهورة .

والدكتور جوفرى يصلى بطلبة الجامعة أيام الآحاد وهم مجبرون على الاستماع لطعنه فى الإسلام والمسلمين ونبيهم بل فى المذاهب المسيحية ، التى لا تتفق مع مذهبه، وأذكر أنه قال يوماً فى إحدى عظاته وعنوانها : (النبى الكاذب) أن محمداً لا يمكن أن يكون نبياً ، لأن مستوى أخلاقه العادى (كذا) إذ أباح لنفسه أن يتزوج من عدة نساء (كذا) كما اختص نفسه بأثمن أسلاب الحرب فهو رجل شهوانى (كذا) .

وفى عظة أخرى ألقاها هذه السنة ، أتانا ببراهين واهية ليقنعنا بأن القرآن ليس من كلام الله ، كما أنه ليس كله من كلام محمد ، لأنه أدخل عليه كثير من الآيات التى ثبت علمياً أنها لا يمكن أن تكون من روح محمد .

هذا عدا ما يقوله فى الدروس اليومية التى يسمونها (علم الأخلاق وفلسفة الديانات، وعلم النفس وعلم الإجتماع) من الافتراءات والشتائم ، مما لا يتلفظ به مسيحى ، لأن الدين المسيحى نفسه دين سماحة ولطف ، أما ما يفعله هؤلاء فتحامل وشتائم وسباب وبث كراهية وإشعال حروب ،فالإسلام فى رأيهم دين وحشى بربرى ، يحث على القتال والسلب والنهب ، ولن يرتقى الشرق ويسعد حالاً إلا إذا تخلص من هذا الدين ، والكثلكة لديهم عبادة أوثان وخرافات وأساطير مضرة مخلة بالآداب . . إلخ .

أكتفى بهذا القدر الآن مشيراً إلى أن هذه الحركة التى تقوم بها الجامعةالأمريكية غير محمودة ، بل هى تخلق روحاً سيئة فى البلاد ، فالواجب على كل وطنى مسلماً كان أم مسيحياً أن يحارب هذه الفكرة ليعيش المسلمون والمسيحيون أهل هذا البلد وغيره من الأقطار هانئين آمنين) .

عبد القادر الحسينى

خريج الجامعة الامريكية بمصر

وعلى أثر ذلك اتصلت إدارة الجامعة بالإنجليز والأمريكان ، الذين اتصلوا بدورهم بالحكومة المصرية وأخبروها بالأمر ، وطلبوا منها إخراج عبد القادر من مصر ، فما كان من الحكومة المصرية إلا أن أصدرت قراراً يقضى بوضعه فى سجن الاجانب كإجراء احترازى ، ثم بطرده من مصر خلال أربع وعشرين ساعة ، وبعد ذلك أصدرت الحكومة المصرية قراراً موقعاً من رئيس الوزراء الطاغية (إسماعيل صدقى) بإخراج عبد القادر وترحيله إلى فلسطين فى تموز 1932 م .

ولقد ذكرنا أن المبشرين إذا لم يستطيعوا أن ينصروا المسلمين ، فتنصب جهودهم إلى أن يترك المسلم دينه حتى يعيش بلا دين ولا رسالة فيسهل السيطرة عليه وتوجيهه حسب مخططاتهم الخبيثة ، ففى المؤتمر التبشيرى الذى عقد فى القدس سنة 1935 صرح القس (صموئيل زويمر) بما يلى : إن مهمة التبشير التى ندبتكم دول المسيحية للقيام بها فى البلاد المحمدية ، ليست هى إدخال المسلمين فى المسيحية ، فإن فى هذا هداية لهم وتكريماً ، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله ، وبالتالى لا صلة تربطه بالأخلاق التى تعتمد عليها الأمم فى حياتها ، ولذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعمارى فى الممالك الإسلامية ، وهذا ما قمتم به فى خلال الاعوام المائة السالفة خير قيام ، وهذا ما أهنئكم عليه ، وتهنئكم دول المسيحية والمسيحيون جميعاً من أجله كل التهنئة .

لقد قبضنا أيها الإخوان فى هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم فى الممالك الإسلامية المستقلة ، أو التى تخضع للنفوذ

المسيحى أو التى يحكمها المسيحيون حكماً مباشراً ، ونشرنا فى تلك الربوع مكامن التبشير المسيحى والكنائس والجمعيات ، وفى المدارس الكثيرة التى تسيطر عليها الدول الأوربية والأمريكية وفى مراكز كثيرة ، . . إنكم أعددتم بوسائلكم جميع العقول فى الممالك الإسلامية إلى قبول السير فى الطريق الذى مهدتم له كل التمهيد (إخراج المسلم من الإسلام) إنكم اعددتم نشءلا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها ، وأخرجتم المسلم من الإسلام ، ولم تدخلوه فى المسيحية ، وبالتالى جاء النشء الإسلامى طبقاً لماأراده له الاستعمار ، لا يهتم بالعظائم ، ويحب الراحة والكسل ، فإذا تعلم فللشهوات وإن تبوأ أسمى المراكزففى سبيل الشهوات) [1] .

ومن وسائل الغزو الصليبى فى العصر الحديث التركيز على إفساد المرأة وإبعادها عن دينها وكذلك العمل على إفساد أبناء الحكام فى البلاد الإسلامية بإنشاء معاهد ومدارس خاصة لهم ، يقوم على تربيتهم صليبيون حاقدون على الإسلام وأهله ليجتالوهم عن دينهم ، وما أنشئت كلية(فكتوريا)على يد(كرومر) إلا لإفساد هؤلاء الأبناء وتغريبهم ليفكروا بعقلية الغزاة الصليبيين ، وهذا ما صرح به اللورد" لوبد" الممثل البريطانى فى مصر فقد قال فى خطبة له فى كلية (فكتوريا) بالإسكندرية سنة 1936 عن طلبة هذا المعهد : كل هؤلاء لا يمضى عليهم وقت طويل حتى يتشبعوا بوجهة النظر البريطانية ، بفضل العشرة الوثيقة بين المعلمين والتلاميذ فيصيروا قادرين على أن يفهموا أساليبنا ويعطفوا عليها) [2] .

ثم أما بعد :

فهذه طبيعة مواقف الدول الأوربيةوالأمريكية الصليبية من الإسلام والمسلمين وهذه أوجه نشاطاتهم العدائية وهذه أمور لا تستهجن ، لأن طبيعة العداوة هكذا ، العدو يمكر بعدوه ، ويعمل على تدميره ، لكن الذى يستهجن أن ينخدع نفر من أبناء المسلمين

---

(1) انظر كتاب مجتمعنا المعاصر ص292 ـ 293 نقلاً عن جذور البلاء لعبد الله التل 275 ـ 276 .

(2) المرجع السابق ص 294 نقلاً عن كتاب التبشير والاستعمار .

بأساليب هؤلاء الأعداء الماكرين ، ويتأثروا بأقوالهم ، ويرددوها كالببغاوات دون أن يدركوا معناها ومراميها وأهدافها التى تستهدف القضاء على حضارتهم وشخصيتهم وماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم .

إن على جيل الصحوة الإسلامية أن يدرك أهداف هؤلاءالحاقدين ، ويحذر أن يقع فى أحابيلهم ، بل عليه أن يحذر المسلمين من النتائج الوخيمة المترتبة على انخداع الجماهير بهذه الأساليب .

إن على الدعاة إلى الله أن يوضحوا طبيعة الطريق للناس ، وحقيقة الأعداء وأهدافهم ، إن عليهم ألا يسئموا فى فضح أساليب بريطانيا وفرنسا وأمريكا وسائر الدول الصليبية الهادفة إلى إذلال المسلمين واحتلال بلادهم ، على الدعاة إلى الله أن يغرسوا الكره لهؤلاء الحاقدين .

إن على الباحثين والمفكرين والكتّاب الإسلاميين أن يبذلوا قصارى جهودهم فى توعية الأمة بالخطر الصليبى الداهم ، وأن يعيدوا إليهم ثقتهم بإسلامهم وبتاريخهم وحضارتهم وأنفسهم ، وأن يغرسوا فيهم عزتهم الإيمانية وقيمهم الإسلامية التى تفرض عليهم جهاد أعدائهم وقتالهم حتى يكون الدين كله لله .

وإن الباحث ليكتب هذه الأسطر ويرى ملامح النصر وبوارقه تظهر فى الأفق والله وحده هو الذى ينصر عباده المؤمنين ، قال تعالى : ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ وقال سبحانه : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

أسماء الشهداء

(1) رشيد سليمان نوفل

(2) إبراهيم سليمان نوفل

(3) محمد نوفل أبو محمود

(4) عبد المحسن نوفل

(5) الحاج عبد القادر

(6) محمد الأطرش

(7) حسن الدرشخى

(8) محمد محمد نعيم

(9) عبد الله يونس الحاج

(10) محمد الحاج أبو عقال

قائمة المراجع (1).

كتب التفسير.

كتب الحديث .

كتب السيرة.

كتب التاريخ والتراجم .

كتب الفقه.

كتب متفرقة.

(1) قسمت المراجع حسب الموضوعات ثم رتبت مراجع كل موضوع على حسب حروف المعجم وأخذ كل مرجع رقماً متسلسلاً .

كتب التفسير

1 ـ أسباب النزول ـ لأبى الحسن على بن أحمد الواحدى ـ تحقيق السيدأحمد صقر ـ الطبعة الأولى ـ سنة 1389 هـ ـ1969م ـ الناشر : دار الكتاب الجديد ـ القاهرة ●

2 ـ تفسير التحرير والتنوير تأليف الطاهر بن عاشور محمد بن محمد الشاذلى ، سنة الطبع 1970 ـ الناشر : الدار التونسية ـ تونس ●

3 ـ تفسير القرآن العظيم ـ الشهير بتفسير ابن كثير ـ لأبى الفداء إسماعيل ابن عمر بن كثير القرشى المتوفى سنه 774 ـ طبع دار الاندلس ـ بيروت ـ الطبعة الأولى سنة1385هـ ، 1966 ●

4 ـ جامع البيان عن تأويل آى القرآن ـ الشهير بتفسير الطبرى ـ لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة 310 هـ الطبعة الثالثة ـ سنة الطبع 1388 هـ ، 1968 م ـ الناشر : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ـ القاهرة ●

5 ـ الجامع لأحكام القرآن ـ الشهير بتفسير القرطبى ـ لأبى عبد الله محمد بن أحمد الانصارى القرطبى ـ الطبعة الثالثة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية سنة 1387هـ ، 1967 م ـ طبع دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ـ بيروت ●

6 ـ المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ـ تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصارى والسيد عبد العال السيد إبراهيم ـ الطبعة الأولى ـ سنة الطبع 1402 هـ ، 1982 م الدوحة ـ قطر ●

كتب الحديث

7 ـ تلخيص المستدرك ـ للحافظ الذهبي ـ وهو مطبوع بحاشية كتاب المستدرك على الصحيحين ـ الطبعة الأولى 1341 هـ ●

8 ـ الجامع الصغير للحافظ جلال الدين السيوطي المتوفى سنة 911 هـ ـ وهو متن لكتاب مختصر شرح الجامع الصغير ـ الطبعة الأولى ـ سنة الطبع 1373 هـ ـ 1954 م ـ الناشر : دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ●

9 ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول ـ تأليف مجد الدين أبي السعادات المبارك محمد بن الأثير الجزري ـ الطبعة الأولى ـ سنة الطبع 1392 هـ ـ مطبعة الملاح ـ دار البيان ●

10 ـ دلائل النبوة للحافظ أبي نعيم الأصبهاني المتوفى سنة 430 هـ ـ تحقيق الدكتور محمد رواس قلعجي وعبد البر عباس ـ الطبعة الثانية ـ سنة الطبع 1406 هـ ، 1986 م ـ الناشر : دار النفائس ـ بيروت ●

11 ـ سنن ابن ماجة وهو الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (207 ـ 275 هـ) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ سنة الطبع 1972 م ـ الناشر : عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ القاهرة ●

12 ـ سنن أبي داود للإمام الحافظ أبي داود وسليمان بن الأشعث بن إسحق الأزدي السجستاني ـ الطبعة الأولى ـ سنة الطبع 1371 هـ ـ 1952 م ـ الناشر : مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ـ القاهرة ●

13 ـ سنن الترمذي ـ لأبي عيسي محمد بن سورة (209 ـ 279 هـ) تحقيق وشرح أحمد شاكر ـ الطبعة الأولى ـ سنة الطبع 1356 هـ ـ 1937 م القاهرة وهو متن لعارضة الأحوذي لابن العربي المالكي ●

14 ـ السنن الكبرى ـ لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي المتوفى سنة 458 هـ

الطبعة الأولى ـ سنة الطبع 1355 هـ ـ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ـ الهند ●

15 ـ صحيح البخارى متن فتح البارى ـ محمد بن إسماعيل البخارى ـ تاريخ الطبعة 1378 هـ ـ 1959 م ـ الناشر : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ـ القاهرة . طبعة أخرى طبعة الشعب المصرية ●

16 ـ صحيح مسلم متن شرح النووىتأليف مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى وهو مطبوع مع شرح النووى ـ طبع المطيعة العصرية ●

17 ـ شرح النووى على صحيح مسلم ـ تأليف محيى الدين أبى زكريا يحيى بن شرف النووى ـ طبع المطبعة المصرية ومكتبتها ●

18 ـ فتح البارى بشرح صحيح البخارى ـ تأليف ابن حجر العسقلانى (773 ـ 758هـ) تاريخ الطبعة 1378 هـ 1959 م ـ الناشر : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ـ القاهرة ●

19 ـ الفتح الربانى لترتيب مسند الامام أحمد بن حنبل الشيبانى ـ تأليف أحمد بن عبد الرحمن البنا ـ الطبعة الأولى ـ سنة الطبع 1370 هـ ـ القاهرة ●

20 ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير ـ تأليف محمد بن عبد الرؤوف المناوى ـ الطبعة الثانية ـ سنة الطبع 1391 هـ ـ 1972 م ـ الناشر : دار الفكر للطباعة والنشر .

21 ـ كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال للعلاَّمة علاء الدين على المتقى بن حسام الدين الهندى البرهان فورى المتوفى سنة 975 هـ ـ الطبعة الأولى ـ سنة الطبع 1391هـ ـ 1971 م ـ الناشر : مكتبة التراث الإسلامى ـ حلب ●

22 ـ مختصر صحيح مسلم للحافظ زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى بن سلامة المنذرى تحقيق محمد بن ناصر الدين الألبانى ـ الطبعة الثالثة ـ سنة الطبع 1392هـ ـ 1972 م ـ الناشر : المكتب الإسلامى ـ دمشق●

23 ـ مختصر بلوغ الأمانى من أسرار الفتح الربانى ـ تأليف أحمد بن عبد الرحمن

البنا الشهير بالساعاتى / وهو مطبوع على حاشية الفتح الربانى وهو أيضاً للساعاتى ـ الطبعة الأولى ـ سنة 1370 هـ ـ القاهرة ●

24 ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لأبى بكر الهيثمى بتحرير الحافظين العراقى وابن حجر ـ الطبعة الثالثة ـ سنة الطبع 1402 هـ ،1982 مالناشر : دار الكتاب العربى ـ بيروت ●

25ـ المحلى ـ تأليف أبى محمد على بن أحمد بن سعد بن حزم الأندلسى ، المتوفى سنة 456 هـ ـ طبعت هذه النسخة المطبوعة بالمطبعة المنيرية تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر 1387 هـ ـ 1967 م طبع دار الاتحاد العربى للطباعة لصاحبها محمد عبد الرزاق نشر مكتبة الجمهورية ـ القاهرة ●

26ـ موارد الظمآن إلى زوائد بن حبان ـ للحافظ نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة ـ المطبعة السلفية ومكتبتها ـ القاهرة ●

27ـ المستدرك على الصحيحين ـ لأبى عبد الله محمد بن عبد الله المشهور بالحاكم النيسابورى ـ الطبعة الأولى ـ سنة الطبع 1341 هـ ـ طبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ـ الهند . طبعة أخرى ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت ●

28ـ المصنف فى الأحاديث والآثار للإمام الحافظ عبد الله بن محمد بن أبى شيبة المتوفى سنة 235 هـ ـ تحقيق الأستاذ عامر العمرى الأعظمي ـ الناشر : الدار السلفية بومباى الهند. ●

29ـ مشكاة المصابيح تأليف الشيخ ولى الدين محمد بن عبد الله الخطيب العمرى التبريزى ـ تحقيق محمد ناصر الألبانى ـ الطبعة الأولى ـ سنة الطبع 1380 هـ/ 1961م طبع على نفقه الشيخ على عبد الله آل ثان ـ الدوحة ـ قطر ●

30ـ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار ـ تأليف محمد بن على الشوكانى ـ الطبعة الأخيرة ـ الناشر : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ـ القاهرة ●

31ـ نصب الراية لأحاديث الهداية للحافظ الزيلعى المتوفى سنة 762 هـ ـ الطبعة الثانية 1393 هـ ـ 1973 م ـ الناشر : المكتبة الإسلامية ●

كتب السيرة

32ـ امتاع الأسماع ـ تأليف تقى الدين أحمد بن على المقريزى ـ شرح محمود محمد شاكر ـ الطبعة الثانية ـ طبعت على نفقة الشئون الدينية بدولة قطر الدوحة ●

33ـ أنساب الاشراف ـ تأليف أحمد بن يحيى المعروف بالبلاذرى ـ تحقيق محمد حميد الله ـ طبع بمطابع دار المعارف سنة 1959 م ●

34ـ أيام العرب فى الإسلام تأليف محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوى الطبعة الثالثة سنة 1388 هـ ، 1968 م الناشر : دار احياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى وشركاه وتصوير دار احياء التراث العربى ـ بيروت●

35ـ تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس تأليف الإمام الشيخ حسين بن محمد بن الحسن الديار بكرى ـ الناشر : مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع ـ بيروت لبنان ●

36ـ تجربة مؤتة ـ للدكتور على عتوم ـ الطبعة الأولى ـ سنة 1405 هـ ، 1985 م ـ الناشر : مكتبة الرسالة الحديثة ـ عمان ●

37ـ الجامع فى السنن والآداب والمغازى والتاريخ لأبى محمد عبد الله بن أبى زيد القيروانى المتوفى سنه 386 هـ تحقيق محمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ ـ الطبعة الأولى سنة 1402 هـ ، 1982 م الناشر : مؤسسة الرسالة ببيروت والمكتبة العتيقة بتونس ●

38ـ حياة سيد العرب وتاريخ النهضة الإسلامية ـ تأليف حسين عبد الله باسلامة ـ الطبعة الثانية ـ سنة الطبع 1389 هـ 1969 م تحقيق الشيخ زكريا بن عبد الله بيلاً ●

39ـ خاتم النبيين ـ تأليف الشيخ محمد أبو زهرة ـ من مطبوعات المؤتمر العالمى الثالث للسيرة والسنة النبوية المنعقد بمدينة الدوحة بقطر سنة 1400 هـ ـ طبع على نفقه حاكم قطر الشيخ خليفة بن حمد آل ثان .

40ـ الخصائص الكبرى واسمه كفاية الطالب اللبيب فى خصائص الحبيب لأبى الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى المتوفى سنة 911 هـ ـ الناشر : دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ●

41ـ الدرر فى إختصار المغازى والسير ـ تأليف الحافظ يوسف بن عبد البر النمرى (368ـ 463 هـ) تحقيق الدكتور شوقى ضيف ـ سنة الطبع 1368 هـ 1966 م ـ القاهرة ●

42ـ الرسول القائد ـ تأليف الزعيم الركن محمود شيت خطاب ـ الطبقة الثانية سنة الطبع 1960 م ـ الناشر : دار مكتبة الحياة ومكتبة النهضة ـ بغداد ●

43ـ الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام ـ تأليف الفقيه المحدث أبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن الحسن السهيلى (508ـ 581هـ) وهو مطبوع مع السيرة النبوية لابن هشام نشر مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة ●

44ـ زاد المعاد فى هدى خير العباد ـ لابن قيم الجوزية ـ تحقيق وشرح وتعليق شعيب الارناؤوط وعبد القادر الارناؤوط ـ الطبعة الأولى ـ سنة الطبع1399هـ ، 1979م ـ الناشر : مؤسسة الرسالة ببيروت ومكتبة المنار الإسلامية بالكويت ●

45ـ سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ـ للامام محمد بن يوسف الصالحى الشامى المتوفى سنة 942 هـ ـ تحقيق فهيم محمد شلتوت والدكتور جوده عبد الرحمن هلال سنة الطبع 1404 هـ ـ 1983 م ـ الناشر : المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية لجنة التراث الإسلامى ـ القاهرة ●

46ـ السيرة الحلبية المسماة بإنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون ـ تأليف على بن برهان الدين الحلبى (975 ـ 1044هـ) الطبعة الأولى سنة 1384 هـ 1964 م ـ الناشر : شركة مكتبة ومطبعة البابى الحلبى وأولاده ـ القاهرة .

47ـ السيرة النبوية ـ لا بن هشام ـ تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى ـ الطبعة الثالثة ـ سنة الطبع 1375 هـ 1975 م الناشر : مصطفى البابى الحلبى وأولاده ـ القاهرة ●

48ـ السيرة النبوية لابن كثير وهو أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشى الدمشقى المتوفى سنة 774 هـ ـ تحقيق مصطفى عبد الواحد ـ تاريخ الطبعة 1384 هـ 1964 م . طبع مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه ـ القاهرة ●

49ـ السيرة النبوية والآثار المحمدية ـ تأليف أحمد زينى دجلان ـ نشر دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ أعيد طبعه بالأوفست ●

50ـ السيرة النبوية للمؤلف الدكتور محمد عبد القادر أبو فارس وآخرين ـ الطبعة

الأولى - سنة الطبع 1405هـ -1985 م - طبع مطابع الجمعية العلمية الملكية - عمان●

51 - شرح المواهب اللدنية - تأليف محمد بن عبد الباقى الزرقانى - الطبعة الأولى - سنة 1326 هـ - طبع بالمطبعة الأزهرية المصرية - القاهرة ●

52 - الصراع مع اليهود للدكتور محمد عبد القادر أبو فارس - الناشر : دار الفرقان للنشر والتوزيع - عمان ●

53 - عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير - لابن سيد الناس - الطبعة الثانية - سنة الطبع 1974 م - الناشر : دار الجيل بيروت ●

54 - فقه السيرة للأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى - الطبعة الثامنة 1400هـ 1980م - الناشر : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ●

55 - محمد رسول الله - محمد صادق عرجون - الطبعة الأولى - سنة الطبع 1405هـ، 1985 - الناشر : دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق وبيروت ●

56 - مغازى رسول الله لعروة بن الزبير برواية أبى الأسود عنه - تحقيق محمد مصطفى الأعظمى - الطبعة الأولى سنة 1401 هـ - 1981 م - الناشر : مكتب التربية العربى لدول الخليج - الرياض - السعودية ●

57 - المغازى للواقدى محمد بن عمر المتوفى سنة 207 هـ تحقيق الدكتور مارسدن جونسون - الناشر : عالم الكتب بيروت ●

58 - نظرات فى السيرة النبوية للمرشد العام للإخوان المسلمين الأستاذ حسن احمد عبد الرحمن البنا - سجلها وأعدها للنشر أحمد عيسى عاشور - الطبعة الأولى - سنة الطبع 1399 هـ - 1979 م - الناشر : مكتبة الاعتصام - القاهرة ●

59 - الهجرة النبوية للدكتور محمد عبد القادر أبو فارس - الطبعة الأولى سنة 1402هـ ، 1982 م - الناشر : دار الفرقان للنشر والتوزيع - عمان ●

60 - الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة - جمعها محمد حميد الله الطبعة الرابعة سنة 1403 هـ - 1983 م الناشر : دار النفائس - بيروت ●

61 - الوفا بأحوال المصطفى للإمام أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى (510-597هـ) تحقيق مصطفى عبد الواحد - الناشر : دار الكتب الحديثة لصاحبها توفيق عفيفى القاهرة ●

كتب التاريخ والتراجم

62 ـ الإصابة فى تمييز الصحابة ـ تأليف شهاب الدين أبى الفضل أحمد بن على ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة 852 هـ ـ طبعة جديدة بالأوفست طبع دار صادر بيروت عن الطبعة الأولى سنة 1328 هـ مطبعة السعادة ـ القاهرة ●

63 ـ الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر المتوفى سنة 463 هـ، وهو مطبوع على حاشية الإصابة ●

64 ـ البداية والنهاية ـ للحافظ أبى الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى القرشى المتوفى سنة 774 هـ ـ الطبعة الثانية سنة 1977 م ـ الناشر : دار الفكر بيروت ●

65 ـ بين الجدوالهزل ـ عمر عنانى ـ سنة الطبع 1397 هـ ـ 1977 م طبع فى مطابع دار الأيتام الإسلامية ـ القدس ●

66 ـ تاريخ الأمم والملوك الشهير بتاريخ الطبرى ـ لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى الناشر : دار القلم ـ بيروت ●

67 ـ التبشير والاستعمار فى البلاد العربية ـ تأليف الدكتور مصطفى خالدى والدكتور عمر فروخ ـ الطبعة الثانية ـ سنة الطبع 1964 م ـ بيروت ●

68 ـ الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين فى العصر الأيوبى ـ تأليف الدكتور فايد حماد محمد عاشور ـ الطبعة الأولى ـ الناشر : دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع ـ القاهرة ●

69 ـ جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية ـ تأليف الدكتور فايد حماد محمد عاشور ـ الطبعة الأولى سنة 1401 هـ ـ 1981 م ـ الناشر : مؤسسة الرسالة ـ بيروت ●

70 ـ جوامع السيرة النبوية تأليف أبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم ـ تحقيق تايف العباسى الطبعة الأولى ـ سنة الطبع 1404 هـ ـ1984 م ـ الناشر : مؤسسة علوم القرآن ـ دمشق ●

71 ـ حاضر العالم الإسلامى ـ تأليف أمير البيان الأمير شكيب أرسلان ـ الطبعة الرابعة ـ سنة الطبع 1394 هـ ـ 1974 م ـ الناشر : دار الفكر للطباعة والنشر والتوريع بيروت ●

72 ـ حضارة العرب ـ تأليف الدكتور جوستاف لوبون ـ ترجمة عادل زعيتر ـ الطبعة الثانية دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ●

73 ـ شهداء فلسطين تأليف الدكتور محمد عبد القادر أبو فارس ـ الطبعة الأولى ـ سنة الطبع 1410 هـ ـ 1990 ـ الناشر : دار الفرقان للنشر والتوزيع ـ عمان ●

74 ـ صفة الصفوة للامام أبى الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزى (510ـ597هـ) الطبعة الأولى سنة 1389 هـ ـ 1969 م ـ مطبعة الأصيل بحلب ـ الناشر دار الوعى ـ حلب ●

75 ـ صور من حياة الرسول ـ تأليف آمين دويدار ـ الطبعة الرابعة ـ الناشر : دار المعارف ـ القاهرة ●

76 ـ الطبقات الكبرى ـ لابن سعد ـ سنة الطبع 1388 هـ ، 1967 م الناشر : دار صادر بيروت ●

77 ـ عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائري ـ تأليف بسام العسلى الطبعة الأولى ـ سنة الطبع 1402 هـ ـ 1982 م ـ الناشر : دار النفائس بيروت ●

78 ـ القضية الفلسطينية ـ لأكرم زعيتر ـ الطبعة الثالثة ـ سنة الطبع1986 م ـ الناشر : دار الجيل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية ـ عمان .

79 ـ الكامل فى التاريخ ـ تأليف على بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى المتوفى سنة 630 هـ ●

80 ـ لورانس العرب على خطى هيرتزل (تقارير لورانس السرية) تأليف زهدى الفاتح الطبعة الثانية ـ سنة الطبعة 1400 هـ ـ 1980 م ـ الناشر : دار النفائس بيروت●

81 ـ النجوم الزاهرة فى تاريخ ملوك مصر والقاهرة ـ تأليف جمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى ـ هذه الطبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ـ طبع المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ـ القاهرة●

82 ـ اليهود فى الوطن العربى ـ تأليف داود عبد العفو سنقرط ـ الطبعة الأولى سنة 1403 هـ ـ 1983 م ـ الناشر : دار الفرقان للنشر والتوزيع ـ عمان●

كتب الفقه

83 ـ الأم للامام أبى عبد الله بن إدريس الشافعى ، وبهامشه مختصر المزنى الشافعى المتوفى سنة 264 هـ ـ طبعة دار الشعب ـ سنة 1388 هـ ـ1968 م القاهرة ، وهى مصورة عن طبعة سنة 1321 هـ ●

84 ـ الاختيار تأليف عبد الله بن محمود بن مودود الموصلى الحنفى ـ عليه تعليقات الشيخ محمود أبو دقيقه ـ الطبعة الثالثة سنة 395 ـ 1975 ـ الناشر : دار المعرفة بيروت●

85 ـ الإنصاف فى معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام المبجل أحمد بن حنبل . تأليف علاء الدين المرداوى ـ الطبعة الأولى ـ سنة 1374 هـ ـ 1955 م مطبعة السنة المحمدية ●

86 ـ الأيمان والنذور ـ الدكتور محمد عبد القادر أبو فارس ـ الطبعة الأولى الناشر : مكتبة دار الأرقم عمان ●

87 ـ حاشية ابن عابدين المسماه رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار ـ لخاتمة المحققين محمد أمين الشهير بابن عابدين ويليه تكملة ابن عابدين لنجل المؤلف الطبعة الثانية سنة 1386 هـ ـ 1966 م ـ الناشر : شركة مكتبة ومطبعة البابى الحلبى واولاده ـ القاهرة ●

88 ـ الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك ـ تأليف العلامة أبى البركات أحمد بن محمد بن أحمدالدردير ، وبهامشه حاشية الصاوى المالكى سنة الطبع 1974 م ـ الناشر : دار المعارف ـ القاهرة ●

89 ـ الفروع لابن مفلح المتوفى سنة 763 هـ ومعه تصحيح الفروع للشيخ علاء الدين المتوفى سنة 885 هـ ـ الطبعة الثانية سنة 1379 هـ ـ 1960 م ـ الناشر دار مصر

للطباعة ـ القاهرة ●

90 ـ المجموع شرح المهذب ـ للامام أبى زكريا يحيى بن شرف النووى ـ مطبعة العاصمة ـ الناشر : زكريا على يوسف ـ القاهرة ●

91 ـ المغنى على مختصر الخرقى لموفق الدين بن قدامة المقدسى (541 ـ 620هـ) سنة الطبع 1388 هـ ـ 1968 م ـ الناشر : مكتبة القاهرة ـ القاهرة ، وطبع فى مطبعة الفجالة الجديدة ●

92 ـ مغنى المحتاج إلى معرفة معانى ألفاظ المنهاج ـ للشيخ محمد الخطيب الشربينى الناشر : المكتبة الإسلامية لصاحبها رياض الشيخ ـ دار الفكر بيروت ●

93 ـ المقنع فى فقه إمام السنة أحمد بن حنبل الشيبانى ـ تأليف موفق الدين ابن قدامة المقدسى مع حاشيته ـ الطبعة الثالثة ـ سنة 1393 هـ ـ 1973 م . طبع على نفقة الشيخ على بن عبد الله آل ثانى ـ مطابع قطر الوطنية ـ الدوحة قطر ●

كتب متفرقة

94ـ اعلام النبوة لأبى الحسن على بن محمد الماوردى الشافعى المتوفى سنة 450 هـ الطبعة الأولى ـ سنة 1393 هـ ـ 1973 ـ الناشر : دار الكتب العلمية ـ بيروت ●

95ـ التمهيد فى الرد على الملحدة المعطلة الرافضة والخوارج والمعتزلة ـ تأليف الإمام أبى بكر محمد بن الطيب بن الباقلانى ـ سنة الطبع 1366 هـ ـ 1947 م ـ الناشر : دار الفكر العربى ـ القاهرة ●

96ـ الرسول العربى المربى ـ تأليف الدكتور عبد الحميد الهاشمى ـ الطبعة الأولى ـ سنة الطبع 1401 هـ ـ 1981 م ـ الناشر : دار الثقافة للجميع للطباعة والنشر والتوزيع ـ دمشق ●

97ـ الفصل فى الملل والأهواء والنحل تأليف أبى محمد على بن أحمد بن سعد بن حزم المتوفى سنة 456ـ الطبعة الثانية صادرة عن دار المعرفة للطباعة والنشر واعيد طبعه بالأوفست سنة 1395 هـ ، 1975 م وطبعة أخرى الطبعة 1321 هـ ●

98ـ مجتمعنا المعاصر تأليف الدكتور عبد الله سليمان المشوخى الطبعة الأولى ـ سنة الطبع 1407 هـ ـ 1987 م ـ الناشر مكتبة المنار ـ الزرقاء ـ الأردن ●

99ـ مجلة هدى الإسلام ـ تصدرها وزارة الاوقاف والشئون والمقدسات الإسلامية بالمملكة الأردنية الهاشمية ـ عمان ـ السنة السابعة عشرة ـ العدد الأول ـ لسنة 1393 ـ هـ 1973 م ●

100 ـ النظام السياسى فى الإسلام للدكتور محمد عبد القادر أبو فارس ـ الناشر : مكتبة الرسالة ـ عمان ـ الطبعة الأولى سنة 1980 م ●

• فهرس الكتاب •

المحتويات	الصفحة

هذا الكتاب

إن الأحداث تؤكد أن أوربا الصليبية وسائر الدول الصليبية الأخرى وفي مقدمتها أمريكا ظلت تحمل الحقد الدفين في القلوب حتى جاء العصر الحديث ، فحملت على بلاد المسلمين واحتلتها ودخل القائد البريطاني اللمبي القدس ليصرح عن حقده الصليبي فيقول : الآن انتهت الحروب الصليبية .

● ويدخل القائد الفرنسي جورو دمشق ويركل قبر صلاح الدين قائلاً : هانحن عدنا ياصلاح الدين .

● إن هذا الكتاب يحدثنا عن فترة من فترات الصراع مع الصليبيين ، ويضع الحل الناجع لعلاج حقدهم ، يدرس الأحداث ويحللها ويستنبط العبر والعظات والدروس والحكم والأحكام ، ويحاول أن يربطها بالواقع لتستفيد منها الأجيال لتدرك طبيعة الصراع وأبعاد المعركة وحجمها وخطورتها ، ولتدرك من هم أعداؤها وماحقيقتهم .

● إن الصراع مع الصليبيين لايقل خطورة عن الصراع مع اليهود قديماً وحديثاً ، ويتأكد هذا الخطر في عالمنا المعاصر ، وفي حياتنا المعاصرة .

إن الكاتب ليؤمل أن تدرك هذه الأمة أعداءها وكيف ينبغي أن تتعامل معهم بجد وحزم وصرامة .

ودار البشير . . إذ تقدم هذا الكتاب فإنها تكشف الحقد والصد والاعتداء من الصليبيين على الإسلام وأبنائه ، كما ترجو من المولى ـ عز وجل ـ القبول ومن القراء الأعزاء خالص الدعاء .

والله من وراء القصد

الناشر

أصاله للتجارة و التسويق

الزقازيق ـ مساكن أعضاء هيئة التدريس

تليفاكس : 055/348654/353988

أصالة

دار البشير للثقافة و العلوم

طنطا 23 ش الجيش عمارة الشركة للتأمين

تليفاكس : 321744 / 305538 / تليفون : 228277 / 210907 / 040